الجمهورية العراقية
دار الرشيد للنشر

هدير الأمواج

رواية



بقلم الكاتب الياباني
يوكيو ميشيما

ترجمة سعيد أحمد الحكيم

هدير الأمواج

رواية

بقلم الكاتب الياباني

يوكيو ميشيما

ترجمة : سعيد أحمد الحكيم

ـ المقدمـــة ـ

يعـرف الجميع بان اليابان بلد صـناعي له من الامكانات الهـائلة ما يقف نداً لاكثر دول العـالم تقــدماً في العلوم والتكنولوجيا ، لكن القليل من اولئك الناس من يعـرف شـيئاً عن الأدب الياباني الذي تمتد اصـوله الى مئات من السنين والذي لم يعرف على نحو مميز عالمياً إلا بعـد الحـرب الثانية عندما ظهر في تلك البلاد من الأدباء الكبار ما وصـل احـدهم الى نيل جـــائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٨ ، واعني به الكاتب «ياســـوناري كاوابا تا»(*) الذي انتحر بطريقة «الهيراكيري» المعروفة .

وهناك العديد من الكتاب البارزين الاخـرين ممن اسـهموا في شـتى مجالات الاداب والفنون ، ولعل الكاتب الكبير ـ يوكيو ميشـيما ـ مؤلف رواية «هدير الامواج» هو واحـد من اولئك الأدباء المعـروفين في داخـل اليابان وخارجها على حد سواء .

كان «ميشـيما» مجموعة قدرات بمفـرده ، فهـــو كاتب غزير الانتاج وممثل ومخـرج سـينمائي وبطل مصـــارعة وفارس ورياضي (كمال جسماني) وقائد جيش صغير صنعه بنفسه .

وهذا الكاتب الذي انتحر بطريقة «الهيراكيري» ايضاً ، لم يقدم على الانتحار لانه لم يعد لديه ما يكتب عنه كما قيل على لسان أحد كتاب الغرب ، بل انه انتحر لانه اعطى المبررات لنفسه ، وان كنا لا نتفق معه حول تلك المبررات لان وجوده في الحياة كان أجدى وافضل .

ولد «ميشيما» في طوكيو عام ١٩٢٥ ، وفي عام ١٩٤٤ حصل على شهادة تقدير من الامبراطور نفسه بناءاً على تفوقه في دراسته ، وبعد تخرجه من الجامعة الامبراطورية عام ١٩٤٧ - قسم القانون - اتجه نحو الأدب بكل ما يملك من طاقة حتى كان عام ١٩٤٨ حينما نشرت له أول رواية وتوالت بعدها الروايات حتى بلغت اثنتي عشرة رواية ، ولم يكتف بذلك ، بل كتب عشر مسرحيات ذات الفصل الواحد - مسرحيات النو - وكذلك كتب حوالي (٧٥) قصة قصيرة وعدة مجلدات من المقالات القصيرة وكتاب رحلات .

ان مثل هذا الكاتب الكبير بانتاجه الأدبي الثر لا يمكن ان يكون ذلك الكاتب الذي «انتحر لانه لم يعد له ما يكتب عنه» . كان آخر ما كتبه هو رواية رباعية تتناول حياة اليابان في الستين سنة الاخيرة ، ولعل من المفارقات المحزنة ان يسلم هذا الكاتب الجزء الرابع من تلك الرواية الكبيرة بعد اجراء التصحيحات المطلوبة الى المطبعة ثم ينصرف لا ليحتفل بل لينتحر .

كان «ميشيما» فناناً مرهف الحس يعتريه على الدوام شعور بعدم الرضى على ما آلت اليه حال اليابان بعد الحرب العالمية الثانية التي اذلت بلاده ، اضف الى أن شعوره القومي ، الشعور المتين بالقومية والشخصية القومية ، قد واجه تحدياً من قوى خارجية لم يعهد لها مثيلاً في تاريخ بلاده .

ان الاستعانة بحضارة الغرب وعلومه وصناعاته شيء ، أما ان تقضي تلك الحضارة على الفرد الياباني واجياله وتطمس تقاليده وممارساته

والفروسية اليابانية ، فهو شيء آخر لا يمكن التغاضي عنه .

بدأ «ميشيما» بتكوين جيش من الشباب الجدد لم يتجاوز عددهم (٩٨) فرداً واخذ يدربهم على المصارعة وفنون القتال القديم ليعدهم جيشاً يابانياً عظيماً يحافظ على كل ما هو ياباني صميم .

وفي صباح أحد الأيام اقتحم هذا الكاتب الكبير مكتب الجنرال ـ قائد قوات الامن ـ وهي القوات الوحيدة التي سمحت السلطات الامريكية بتكوينها ، واخذ قائد ذلك الجيش كرهينة حتىٰ يجتمع جيشه فيخطب فيهم من اجل اثارة حماستهم والاصغاء لما يحمل من اراء . وعندما اجتمع حوالي الالف من ذلك الجيش ، خطب فيهم الكاتب «ميشيما» طالباً منهم تكوين جيش ياباني حقيقي ليستعيد قدرة اليابان القومية وما تصبو اليه بعيداً عن كل جيوش الاحتلال . ولكنه عندما لم يجد اذناً صاغية له ، عاد الى حجرة القائد الرهينة وفي ذهنه شيء لا بد من انجازه .

ارتدى أمام ذلك الجنرال الكيمونو الياباني وعقد اربطته وازراره برباط جأش . وبعد ان انتهى من ذلك ، جاء المصورون فالتقطوا له ولرفاقه الصور التذكارية ، ثم مسك السيف الساموري المحظور فطعن به نفسه في اعلى جزء من بطنه . وما كاد يحدث هذا حتى وقف مساعده خلفه وضربه سبع ضربات على رقبته حتى فصلها عن جسده وفقاً للخطة المتفق عليها .

وبعد ذلك جلس المساعد ليطعن نفسه بنفس طريقة قائده وليموت بالاسلوب الذي مات به ذلك الكاتب الكبير .

وهكذا طويت حياة هذا الاديب عام ١٩٧٠ عن عمر يناهز الخامسة والاربعين في وقت كانت فيه جائزة نوبل تقترب منه على خطوات قليلة وتترجم كتبه وتباع بمئات الاف النسخ في شتىٰ ارجاء العالم .

ان روايته ـ هدير الامواج ـ التي قمت بترجمتها ، رواية رائعة نال عليها الكاتب جائزة ادبية يابانية عام ١٩٥٤ واعيد طبعها اكثر من

عشرين مرة واعتمدتها اليونسكو كأثر أدبي متميز . انها واحدة من مجموعة روايات اخرىٰ كتبها «ميشيما» مثل «معبد الجناح الذهبي» التي حصل عليها هي الاخرىٰ ، جائزة يابانية عام ١٩٥٧ ، ورواية «الالوان المحظورة» «والظمأ الى الحب» وغيرها ...

ان هذه الرواية ـ هدير الامواج ـ تحكي حياة قرية يعمل أهلها في صيد الاسماك ويحدث فيها ما يمكن ان يحدث في اي مكان آخر ، غير انها ذات نكهة اسيوية يابانية خاصة ، فيها من الصور المثيرة ما يمكن ان تكون وسيلة امتاع للقاريء العربي الكريم .

المترجم

ـ الفصـــل الاول ـ

يعيش في «اوتا ـ جيما» أو «جــزيرة الغناء» حــوالي الف واربعمائة مواطن ، ويمتد أمام تلك الجزيرة خـط ساحلي يبلغ طـوله اقل من ثلاثة اميال ، كما تحتوي تلك الجزيرة على منطقتين فيهما من المناظر الساحرة ما يفوق الوصف . المنطقة الاولىٰ هي مقام «ياشـيرو» المقـدس الذي يتجـه نحو الشمال الغربي لينتصب قريباً من اعلىٰ نقطة في الجزيرة فيشرف بذلك على امتداد مشـهد طـويل لاعوائق فيه يمثل امتداداً لخليج «ايسـه» ، كما تمتد الجزيرة نفسـها مباشرة باتجـاه المضـايق التي توصـــل الخليج بالمحيط الهادي . أما شبه جزيرة «شيتا» فهي تقترب آتية من جهة الشمال كما تمتد شبه جزيرة «اتسومي» بعيداً نحو الشمال الشرقي .

يستطيع المرء الى جهة الغرب مشاهدة مناظر خط الساحل بين مينائي «اوجـي يامادا» و «يوكايشي» في «تسـو» . وعندما تتسـلق الدرجــات الصـخرية المائتين التي تؤدي الى المقـام المقــدس وتنظر الى الخلف من النقطة التي تبدو فيهـا بوابة «توري» التي يحـرسها كلبان من الصـخر من تلك التماثيل الخـاصة بالمعـابد ، فانك تسـتطيع ان تشــاهد كيف ان تلك الشواطيء البعيدة تهز بين اذرعها خليج «ايسه» الاسطوري كما تهـز الأم

وليدها النائم في المهد ، ذلك الخليج الذي لم تمتد اليه يد التغيير منذ قرون طويلة . وحدث ان كانت هناك شجرتان من اشجار الصنوبر التوت اغصانها فشذبتا على شكل بوابة «توري» فاضفتا على ذلك المنظر اطاراً غريباً يلفت اليه النظر ، غير ان الموت واتاهما قبل سنوات قليلة .

لم تزل اوراق الصنوبر الابرية داكنة الخضرة حتى الآن بفعل الشتاء ، لكن الاعشاب البحرية الربيعية ظلت تصبغ البحر القريب من الشاطيء بلون أحمر حتى هذا الوقت ، كما ظلت الرياح الموسمية الشمالية الغربية تهب بقوة من جهة «تسو» لتجعل التمتع بذلك المنظر اكثر مما يطيقه المرء وذلك لشدة البرد الذي يرافقه .

ان مقام «ياشيرو» مكرس الى «واتاتسومي ـ نو ـ ميكوتو» ـ اله البحر ، وبما ان هذه الجزيرة هي لصيادي الاسماك ، فان من الطبيعي والحال هذه أن يعبد الناس اله البحر هذا بكل ورع وخشية . انهم يقيمون الصلاة له باستمرار من أجل ان تكون البحار هادئة ، كما ان أول شيء يقومون به بعد اجتياز الاخطار هو تقديمهم النذر في مقام اله البحر ذاك .

في ذلك المقام كنز يتمثل بست وستين مرآة برونزية حيث صممت احدى هذه المرايا على هيئة عنقود عنب ويرقى تأريخها الى القرن الثامن ، كما تمثل الاخرى نسخة قديمة لمرآة صينية كانت موجودة خلال فترة السلالات الستة في وقت لا يوجد مثلها اكثر من خمس عشرة أو ست عشرة مرآة في اليابان كلها ، ولا بد ان الغزلان والسناجب المنقوشة على ظهرها قد خرجت منذ قرون عديدة من احدى الغابات الفارسية وقامت برحلة طويلة حول نصف الكرة الارضية ثم اجتازت قارات واسعة وبحاراً لا حدود لها لتصل في آخر المطاف الى «اوتا ـ جيما» وتستقر فيها .

اما المنطقة الثانية الاكثر جمالاً في الجزيرة فهي المنظر الذي يشاهده

المرء من المنار القريب من قمة جبل «هيگاشي» الذي ينحدر على شكل جرف صخري حاد نحو البحر . والى الاسفل من ذلك المنحدر الصخري يسمع هدير الامواج الذي لا ينقطع لقنال «ايراكو» وحيث تمتلىء هذه المضايق الصغيرة التي توصل ما بين خليج «ايسه» والمحيط الهادي في الايام العاصفة من خلل دوامات بحرية لا حصر لها . يبرز القسم الاعلى من شبه جزيرة «اتسومي» من مكان ما عبر ذلك القنال كما يظهر على شاطئها الصخري المنعزل منار «كيب ايراكو» الصغير الخالي من كل شيء .

ويمكنك ، الى الجنوب الشرقي من منار «اوتا ـ جيما» ، مشاهدة المحيط الهادي ، ويمكنك ، الى الشمال الشرقي عبر خليج «اتسومي» خلف سلاسل الجبال المتناثرة ، مشاهدة جبل «فوجي» في بعض الاحيان ، وليكن ذلك عند الفجر حينما تهب الريح الغربية بعنف .

وفي الوقت الذي تشق فيه اي سفينة بخارية طريقها من أو إلى «ناگويا» أو «يوكايشي» ، بعد ان تكون قد ابحرت خلل قنال «ايراكو» بين زوارق الصيد التي لا يمكن حصرها والتي انتشرت على امتداد القنال بين الخليج ومدخل البحر الواسع ، يستطيع موظف المنار قراءة اسم السفينة بيسر من خلل التلسكوب .

لقد وصلت تواً السفينة «توكاجي مارو» ، وهي من سفن شحن (خط متسومي) والبالغة حمولتها ألفاً وثمانمائة طن حيث اصبحت في مجال الرؤية بواسطة ذلك التلسكوب ، واستطاع الرقيب مشاهدة اثنين من بحارتها بملابس العمل الرمادية يتحدثان ويتخطيان فوق سطحها .

وفي هذه اللحظة بالذات دخلت سفينة شحن انكليزية (تاليسمان) القنال في طريقها الى الميناء ، لقد شاهد الرقيب بوضوح بحارتها الذين بدوا صغاراً وهم يقومون بلعبة رمي الحلقات على سطحها .

التفت الموظف نحو مكتبه ، وعلى لوحة من الخشب اشير عليها بالكلمات «سجل حركات السفن» ادخل اسمي السفينتين وعلامتيهما

والجهة التي تقصدانها مع تحديد الوقت ، واخـذ بعـد ذلك في ضرب تلك المعلومات على مفتاح التلغراف مخبراً اصحاب البضـائع في المواني‌ء عن وجهتي تلكما السفينتين لكي يبدأوا تحضيراتهم أو يعدوا انفسهم لذلك .

الوقت عصر وقد حجب جبل «هيگاشي» شمساً كانت مائلة للغـروب فالق ذلك الجبل بوشـاح ظله فوق المنطقـة التي تجـاور المنار ، وهناك في السماء الصافية الزرقاء فوق صفحة البحر ظل صـقر يدور ويدور . كان الصقر في هذا الوقت يغوص في اعماق السماء بجناح واحدة تارةً وبجناحين تارة اخـرىٰ كما لو كان يتفحص تلك السماء ، وبالضـبط ، في الوقت الذي كان فيه على وشك الهبوط عمودياً باتجـاه البحـر تراه ينسـاب على حـين غرة الى الخلف على الهـواء ومن ثم يأخـذ بالتحليق الى الاعلى مرة اخرىٰ على جناحين مبسوطين لا يتحركان

بعد ان غابت الشمس تماماً ، ظهر صـياد شـاب يسرع الخـطىٰ الى أعلى الطريق الجبلية التي تبدأ من القـرية ماراً بمحـاذاة المنار ومن يده تدلت سمكة كبيرة

كان الشاب في الثامنة عشرة من عمره وقد انهىٰ دراسـته الثانوية في السنة الماضـية بالضـبط ، طـويلاً ، قوي البناء متجـاوزاً بذلك عمره الحقيقي ، ولم يكشف عن فتوته وشبابه الحقيقيين سوىٰ نضـارة وجهـه كما لا يمكن لبشرته ان تكتوي باشعة الشمس اكثر مما هي عليه الان .

انفه الجميل يعكس ميزة خاصة يتصف بها اهالي تلك الجـزيرة ، أما شفتاه فقد امتلأتا بالتشقق والصدوع . عيناه السوداوان كانتا صـافيتين بافراط ، غير ان صـفاءهما لم يكن من النوع الذي يدل على المعـرفة وسعة الاطلاع ـ انما هو هبة يمنحهـا البحـر الى اولئك الذين يجعلون منه مورداً لرزقهم . والحقيقة هي ان علاماته المدرسية كانت واطئة على نحـو يعـرفه الجميع . في تلك اللحـظة لم يزل في نفس الملابس التي اعتاد فيهـا الخروج للصيد كل يوم ـ سروال ورثه عن ابيه الميت وسترة فضـفاضة

رخيصه يلبسها العمال او البحارة .

اجتاز الشاب ملعب المدرسة الابتدائية المهجور حالياً واخذ في الصعود على الهضبة قريباً من الطاحونة المائية واثناء صعوده على درجات السلم الصخرية راح يغذ السير خلف مقام «ياشيرو» المقدس الذي كانت ازهار الكمثري تتفتح في حديقته التي تغطيها الدكنة ويكسوها شفق الشمس الغاربة ، وفي هذا الموضع لم يكن الصعود ليستغرق اكثر من عشر دقائق للوصول الى المنار .

كان الطريق الىٰ المنار حاداً كثير الالتواء لا يخلو من خطورة لدرجة ان اي شخص اذا لم يكن معتاداً عليه لا بد وان يفقد السيطرة على موطيء قدميه حتى في ضوء النهار لكن «شنجي» كان بامكانه حتى وان اغمض عينيه أن يسير دون أن تفقد قدماه معالم الطريق ما بين الصخور وجذور الصنوبر المكشوفة . وعلى الرغم من انه وحتىٰ هذه اللحظة التي كان فيها مستغرقاً في افكاره ، لم يعثر ولا مرة واحدة .

وقبل فترة قصيرة من الوقت حينما كانت لا تزال هناك خيوط من اشعة الشمس ، عاد زورق الصيد الذي يعمل عليه «شنجي» الى ميناء «اوتا - جيما» .

في هذا اليوم ، كما في سائر الأيام ، خرج الشاب للصيد على ظهر الزورق «تايهي - مارو» ، وهو زورق صغير يسير بمحرك ، سوية مع صاحب ذلك الزورق وشاب ثالث معهما .

وبعد ان عادوا الى الميناء نقلوا شحنة السمك الى مركب الجمعية التعاونية ثم أخذوا حصتهم من ذلك الصيد وانزلوها على الشاطيء .

اتجه الشاب نحو بيته يحمل سمكة الهلبوت التي سوف يأخذها الى المنار بعد فترة قصيرة ، واثناء سيره على الشاطيء اضطرب الغسق بضجيج الصيادين وصراخهم وهم يسحبون الزوارق فوق الشاطيء الرملي .

وهناك كانت فتاة لم يشاهدها من قبل تستند طلباً للراحة على ركام من قطع الاخشاب الملساء رميت فوق الرمال - الواح ذات اشكال خاصة . ان أول ما كان يسحب على الشاطيء هو الاقسام الاخيرة من زوارق الصيد تلك بواسطة آلة رفع بعد ان توضع تلك الاعمدة الخشبية تلك لكي تسمح بانسيابها الواحدة بعد الاخرىٰ بسهولة ويسر .

يبدو ان تلك الفتاة قد انتهت لتوها من مساعدة الاخرين في حمل قطع الاخشاب تلك ولا بد انها ركنت هناك لتستعيد انفاسها المتعبة . كانت جبهتها ندية ملأى بالعرق وقد تورد خداها ، ومن بعيد هبت على المنطقة ريح رشيقة نشيطة ، ومع ذلك فقد تمتعت بها الفتاة لانها ادارت وجهها الذي أحمر من الارهاق نحو تلك الريح فسمحت بذلك لشعرها ان يتموج خلف جسمها .

كانت تلبس سترة بطانتها من القطن ليس لها اردان وسروال مما تلبسه النساء اثناء العمل مطوياً عند كاحليها وقفاز للعمل تعلوه الاوساخ ، لم يكن لون بشرتها ، الذي يدل على العافية والصحة ، ليختلف عن لون البشرة عند بقية فتيات الجزيرة ، ولكن كان ثمة شيء يدل على الانتعاش في نظرات عينيها وشيء آخر يدل على السكينة في حاجبيها .

استدارت عينا الفتاة بثبات نحو السماء فوق صفحة البحر الى جهة الغرب حيث اختفت بين كتل السحب السود بقعة من الشمس .

لم يستطع الشاب ان يتذكر بانه رأىٰ تلك الفتاة فيما سبق على الرغم من انه ليس هناك من وجه لا يمكن تذكره في «اوتا - جيما» ، وهكذا تبادر الى ذهنه بانها لا بد ان تكون غريبة ، ولو ان ملابس تلك الفتاة لا تدل على انها من الغرباء .

ان ما كانت تختلف فيه عن بقية فتيات الجزيرة المتسمات بالنشاط والحيوية ، هو الطريقة التي وقفت بها في معزل عنهم جميعاً لا تفعل شيئاً

سوى التحديق في البحر ، وعن قصد تعمد الشاب المرور امامها مباشرة ، ومثلما يحدق الاطفال في شيء غريب ، توقف ونظر الى وجهها نظرة فاحصة كاملة ، زمت الفتاة حاجبيها قليلاً ، إلاّ انها استمرت في التحديق نحو البحر بكل ثبات دون أن تدير عينيها نحو ذلك الشاب على الاطلاق . أما هو ، فبعد أن امعن النظر فيها بهدوء واصل سيره بسرعة .

وفي الوقت الذي شعر فيه بقناعة مبهمة في انه اشبع فضوله ، تأكدت لديه في تلك اللحظة فقط ، اللحظة التي كانت متأخرة كثيراً اثناء صعود الطريق الذي يفضي الى المنار ، فظاعة استطلاعاته السابقة وقسوتها . لقد رسمت تلك الفكرة على خديه صوراً لا تدل إلاّ على الخجل والعار .

نظر «شنجي» الى البحر من بين اشجار الصنوبر اثناء سيره في ذلك الطريق فتناهىٰ الى سمعه زئير المد القادم وقد اسودت صفحة ماء البحر قبل بزوغ القمر . وعند انعطافه حول المكان الذي يدعىٰ بـ «منحدر المرأة» ، حيث قيل بان شبح امرأة طويلة كان يظهر هناك في بعض الاحيان ـ ، رأىٰ الى الاعلىٰ منه ولأول مرة اثناء سيره ذاك نوافذ المنار بانوارها الساطعة البهيجة . تأثرت عيناه بذلك الضوء الساطع لفترة من الوقت ، فقد اعتاد ، نظراً للعطب الذي اصاب المولد الكهربائي في القرية لفترة طويلة ، على الضوء الخابي للمصابيح النفطية .

كثيراً ما كان «شنجي» يجلب السمك الى المنار بهذه الطريقة لانه كان يشعر بانه مدين بالعرفان الجميل الى الشخص المسؤول عن المنار : لقد أخفق في امتحان العام الماضي وبدا بأن تخرجه لا بد سيؤجل سنة اخرىٰ ، غير ان امه ، اثناء مرورها الكثير بمحاذاة المنار لجمع الحطب من الهضبة الخلفية ، اقامت علاقة صداقة وطيدة مع السيدة التي تقيم في ذلك المنار والتي طلبت منها العون بعد ان شرحت لها بانها وبكل بساطة لم يعد بامكانها اعالة اطفالها اذا تأجل تخرج ابنها من المدرسة . وهكذا ،

تحدثت زوجة موظف المنار الى زوجها الذي ذهب بدوره الى صديقه الطيب - مدير المدرسة - واستطاع الشاب ، والفضل هو لهذه الطريقة الودية التي حسمت الموضوع ، ان يكون ضمن الطلاب الخريجين .

اتخذ الشاب الصيد مهنة له حالما انهى دراسته . ومن ذلك الوقت اعتبر مسألة تخصيص جزء من الصيد اليومي الذي يحصل عليه الى المنار من وقت لآخر شيئاً اساسياً لا يحيد عنه ، كما انه كان يقوم بانجاز بعض المهمات لكل من الزوج والزوجة فصار بذلك اثيراً عند كليهما .

يقع المسكن المخصص الى موظف المنار الى جانب سلم ذي درجات كونكريتيه تفضي الى المنار نفسه ، وفي البيت توجد حديقة صغيرة تحتوي على انواع كثيرة من الخضروات ،وعندما اقترب الشاب من ذلك المسكن استطاع أن يشاهد ظل امرأة يتحرك على باب المطبخ الزجاجي ، لا شك بانها كانت تهيء طعام العشاء . أعلن عن قدومه وهو في الخارج ففتحت له السيدة باب المطبخ وهي تقول : اوه ، أهو أنت يا «شنجي - سان»؟

قدم الشاب اليها تلك السمكة التي كان يحملها دون ان يقول شيئاً ما فأخذتها منه ثم صاحت وهي تدير رأسها ، وفي هذه المرة استعملت اسم عائلة «شنجي» .

ابتاه ، لقد جلب لنا «كوبو - سان» سمكة .

ومن غرفة اخرى أجاب صوت موظف المنار الطيب بلا تكلف : شكراً ، شكراً ، ادخل يا «شنجي» .

تردد الشاب اثناء وقوفه في باب المطبخ ، أما السمكة فقد وضعت على طبق كبير مطلي بالمينا وهي ما تزال تلهث بوهن بينما كان الدم ينز من خياشيمها راسماً خطوطه الحمر فوق جلدها الابيض الناعم

ـ الفصـــل الثــاني ـ

استقل «شنجي» في صباح اليوم التالي زورق سيده كما هي العادة وشرعوا في الابحار طلباً للصيد اليومي في وقت كانت السماء فيه ملبدة بغيوم انعكست على صفحة بحر هاديء وحيث سيستغرق ذلك الابحار ساعة واحدة للوصول الى منطقة الصيد ، كان «شنجي» يرتدي مريلة سوداء من المطاط تبدأ من مقدمة بلوزته حتى تصل الى اعلى جزمته المطاطية التي تغطي ركبته ووضع زوجاً من الكفوف المطاطية الطويلة على يديه ، مرت ذكرى الليلة الماضية به عندما كان يقف في مقدم الزورق يحدق إلى الأمام باتجاه المكان الذي يقصدونه في المحيط الهاديء بعيداً نحو اعماق سماء الصباح الرمادية ، تلك الذكرى التي امتدت ما بين مغادرته المنار واستسلامه للنوم .

كانت أم «شنجي» واخوه الصغير ينتظران عودته في غرفة صغيرة تضاء بمصباح نفطي معتم معلق فوق فرن المطبخ .

يبلغ اخوه الثانية عشرة من عمره ، أما أمه ، فهي منذ السنة الاخيرة من الحرب العالمية الثانية ، عندما قتل زوجها في هجوم قاصف شديد ، وحتى السن التي اصبح فيها «شنجي» قادراً على العمل ، كانت

الوحيدة التي تقوم باعالة طفليها مما تكسبه من عملها في الغطس .

هل كان موظف المنار فرحاً ؟

نعم ، فقد صاح ادخل ، ادخل ، ومن ثم دعاني لتناول شيء يدعونه (الكاكو) .

ترى ، ما هو هذا الكاكو ؟

يبدو وكأنه شيء يشبه حساء الفول الاجنبي .

لم تكن الام تجيد الطبخ فقد اعتادت ان تجهز السمك أما بتقطيعه الى قطع نيئة ـ مخللة احياناً ـ واما بتجهيزه مشوياً أو مسلوقاً على نحو بسيط بكامل ما يحتويه من رأس وذيل وعظام وغيرها . ونظراً الى انها لم تجتهد في تنظيف السمك أوغسله كما ينبغي فان اسنانهم كثيراً ما كانت تمضغ حبات من الرمل وذرات من الحجر مع ذلك السمك .

انتظر «شنجي» وقد راوده أمل في ان تتحدث امه اثناء وجبة الطعام ولو بشيء قليل عن تلك الفتاة الغريبة ، ولكن ، بما ان امه لم تعتد التذمر والشكوى من أي شيء فهي كذلك ليست ممن تستهويهن اشاعة الاسرار الشخصية والثرثرة التي لا اساس لها .

عند الانتهاء من تناول العشاء ذهب «شنجي» واخوه الى حمام القرية ، وهنا ايضاً كان يأمل في ان يسمع شيئاً عن تلك الفتاة ، لكن ، بما ان الوقت كان متأخراً فقد كان الحمام خالياً تقريباً والماء في غاية القذارة . هناك كان رئيس جمعية الصيادين التعاونية ومدير دائرة البريد يتناقشان في أمور سياسية اثناء الاغتسال في ماء الحوض وقد علت اصواتهما الملأى بالغرور فتردد صداها من سقف الحمام . انحنى لهما الاخوان بهدوء ثم انتحيا زاوية بعيدة ليغترفا بعض الماء الحار من الحوض . ومهما انتظر «شنجي» أو أجهد اذنيه في استراق السمع فان ذلكما الرجلين لم يتركا في الحقيقة الحديث عن السياسة ليتحدثا عن الفتاة ، واثناء ذلك انتهى اخوه من الاستحمام بسرعة غريبة وانصرف

الى الخارج ، خرج «شنجي» من بعده ليسأله عن سبب تلك السرعة وعند ذاك شرح له اخوه «هيروشي» بأنه واصدقاءه كانوا في ذلك اليوم يلعبون لعبة الحرب وانه ابكى ابن رئيس الجمعية لانه ضربه على رأسه بسيفه الخشبي .

اعتاد «شنجي» ان يستسلم للنوم بسهولة ، غير انه مرَّ في الليلة الماضية بتجربة غريبة وهي السهر لفترة طويلة . لم يستطع ان يتذكر بانه قد مرض يوماً من الأيام طوال حياته ولذا فقد استلق على فراشه وهو يتساءل خائفاً ان تكون هذه هي حال من يسميه الناس بالمريض ، ظل ذلك القلق يلازمه طوال الصباح ، لكن منظر المحيط الواسع الذي ترامى الى ما وراء مقدم الزورق الذي وقف عليه ، وذلك المنظر الذي ملأ نفسه تدريجاً بطاقة يومية معتادة على العمل المرهق المتواصل ، قد جعله يشعر ، من غير وعي منه ، بالراحة والاطمئنان مرة اخرى ، اهتز الزورق برشاقة متكلّفة تبعاً لاهتزاز الماكنة وضربت ريح الصباح القارسة الشاب على خديه ووجهه ، وهناك في اعلى الجرف الصخري الشاهق الى الجانب الايمن من زورق الصيد كان ضوء المنار قد انطفأ الان ، وعلى امتداد الشاطيء تحت اغصان الصنوبر الضاربة الى السمرة في اوائل الربيع ، بدت الامواج المتكسرة في قنال «ايراكو» بيضاً ذات نشاط وتدفق في مجمل ذلك المنظر الصباحي الملبد بالغيوم ..

كانت هناك سلسلتان من الصخور مغمورتان بماء البحر في ذلك القنال أثارتا الاضطراب في ماء البحر حدَّ الزبد ، ولذا كان لزاماً على اية سفينة بحرية ان تشق طريقها بحذر شديد من خلل الممر الموجود بينهما ، ولكن مهارة التجذيف التي يتمتع بها قبطان الزورق «تايهي - مارو» جعلته يبحر برشاقة وانسياب وسط التيار الملتف على دوامات شديدة العنف ، يتراوح عمق الماء في القنال ما بين ثماني عشرة قامة ومائة قامة غير أنّ عمقه فوق سلاسل الصخور يتراوح ما بين ثلاث عشرة

قامة وعشرين .

في هذه النقطة بالذات ، من المكان الذي ترسم فيه عوامات الارشاد الطافية معالم الطريق وحتىٰ المحيط الهادي ، تغوص سلال صيد الاخطبوط باعداد لا حصر لها .

ان نسبة ثمانين بالمائة من الصيد الذي تقوم به جزيرة «اوتا ـ جيما» سنوياً هو من الاخطبوط البحري ، ان موسم صيده الذي بدأ في تشرين الثاني في طريقه الآن الى الانتهاء ليسمح بذلك الى موسم آخر هو موسم صيد الحبّار (حيوان بحري من الرخويات) والذي سوف يبدأ فعلياً عند اعتدال فصل الربيع . الوقت الآن هو نهاية الموسم ، ذلك الوقت الذي ترمي فيه السلال في انتظار الفرصة الاخيرة لما يسمىٰ بصيد الاخطبوط الهارب ذلك الاخطبوط الذي يتجه نحو اعماق المحيط هرباً من المياه الباردة في خليج «ايسه» .

ان الارتقاع والانخفاض الدقيق لكل بوصة من قاع المياه الضحلة في الجانب الباسفيكي من الجزيرة مألوفان لدىٰ الصيادين الماهرين بمثلما يألفون الحدائق التي تلتف حول مطابخ بيوتهم . انهم كثيراً ما يرددون «الاعمى هو الوحيد الذي لا يستطيع مشاهدة قاع المحيط» .

كانوا يعرفون الاتجاه الصحيح من خلل البوصلة البحرية ، وبمشاهدة الصور المتغيرة لحدود الجبال في الرؤوس الداخلة في البحر بعيداً ، يستطيعون على الدوام أن يخبروك عن الموقع الذي يعملون فيه تماماً ، فقد حدث في احدىٰ المرات وَهم يسيرون أن ادركوا من دون خطأ في تقديرهم طبيعة سطح قاع المحيط الذي كانوا يتحركون فوق مياهه .

ان اعداداً لا حصر لها من الحبال تطفو على نحو منتظم فوق قاع المحيط وقد ربط الى كل حبل منها اكثر من مائة سلة من سلال الصيد بحيث كانت قطع الفلين الطافية المربوطة الى تلك الحبال تتحرك وتتصادم فيما بينها تبعاً لحركات المد والجزر التي تحدث باستمرار . ان صاحب الزورق هو وحده الذي يعرف الاسلوب الفني لصيد الحبار ، وكل ما

كان يفعله «شنجي» وزميله الآخر «ريوجي» هو الاندفاع بكامل قوتهما البدنية لانجاز ذلك العمل المرهق الذي وجدا نفسيهما يكافحان في خضمه .

«جوكيجي أوياما» - الصياد الماهر ، هو صاحب الزورق «تايهي - مارو» . كان ذا وجه ليس فيه غير جلد اسمر ضارب الى الصفرة بفعل الرياح البحرية ، وكانت التجاعيد ، التي تعلوها الاوساخ والسخام في يديه والتي خالطتها ندوب جراء فترات الصيد الطويلة على نحو يتعذر فيه تمييزها ، مسفوعة بالشمس التي نفذت الى اعماق تلك التغضنات الكثيرة ، نادراً ما كان «جوكيجي» يشاهد ضاحكاً ، لكنه ، من الناحية الاخرىٰ ، كان يتصف بمزايا روحية ذات صفاء وطيبة على الدوام ، وحتىٰ الصوت المرتفع الذي كان يطلقه عندما يصدر أوامره في الزورق لم يكن يصدر عن غضب حقيقي ، وكان يندر ان يتحرك من مكانه في مقعد الدفة الخلفية اثناء الصيد إلا بما كان يقوم به بين فترة واخرىٰ من رفع احدىٰ يديه عن المجذاف لكي ينظم عمل الماكنة وضمان استمراريتها .

عند وصولهم الى مناطق الصيد وجدوا بان كثيراً من زوارق الصيد ، التي كانت محتجبة عن عيونهم حتى تلك اللحظة ، قد تجمعت قبل بلوغهم ذلك المكان وعند ذاك اخذوا يتبادلون تحيات الصباح المعتادة مع الصيادين الاخرين . حينما وصلوا الموضع الذي اعتادوا الصيد فيه اخفض «جوكيجي» سرعة محرك الزورق واشار الى «شنجي» ان يربط حزاماً ما بين المحرك والاسطوانة الدوارة الموجودة في الحافة العليا من جانب الزورق . ادارت هذه الاسطوانة بكرة انتصبت فوق حافة الزورق العليا على نحو بارز حيث سيوضع بعد ذاك أحد الحبال الذي ربطت به سلال صيد الحبار على البكرة وحيث ستتابع السفينة في سيرها ذلك الحبل ببطءٍ اثناء عمل تلك البكرة في سحب أحد طرفي الحبل الى الاعلى من البحر لتتيح للطرف الثاني منه السقوط في البحر ، أما الشابان فسيقومان على التناوب في سحب ذلك الحبل لان القنب المبلل

بالماء غالباً ما يكون ثقيلاً بالنسبة لبكرة واحدة من ناحية ، ومن الناحية الاخرىٰ فان ذلك الحبل لا بد وانه سينزلق بسهولة ان لم يتم السحب بحذر وعناية .

كانت الشمس خابية اثناء اختفائها وراء السحب عند الافق البعيد ، وهناك لاح لهما اثنان من طيور الغاق الضخمة يسبحان في البحر وقد برز عنقاهما الطويلان فوق سطح الماء .

عند النظر الى الخلف ناحية «اوتا - جيما» يستطيع المرء ان يرى انحداراتها الصخرية الجنوبية تسطع بلون ابيض شديد نتيجة لاسراب طيور الغاق الهائلة التي تتهاوى فوقها . كانت الريح شديدة البرودة ، لكن «شنجي» وهو يسحب الحبل الأول نحو البكرة أمعن النظر في ماء البحر بلونه النيلي الغامق فشعر بأن طاقة هائلة تمور في داخل جسمه انتظاراً للاجهاد الذي سيجعله يتصبب عرقاً . بدأت البكرة بالدوران فظهر حبل مبلل ثقيل من داخل الماء ، ومن خلل قفازيه الخفيفين بدأ «شنجي» يتحسس الحبل السميك المتجمد الذي مسكه بكلتا يديه والذي تطاير منه رذاذ ماء ملحي ذي طبقة رقيقة اثناء التفافه حول البكرة . وفجأة ظهرت سلال الحبال هي الاخرىٰ الى سطح الماء بلون أحمر كلون الصلصال . وقف «ريوجي» ينتظر عند البكرة ، لأنه إذا حدث أن كانت احدىٰ تلك السلال فارغة فلا بد وانه سوف يسرع في تفريغ الماء منها ويمنعها من ضرب البكرة اثناء السحب ثم يودعها بعد ذلك الى الحبل الذي يغطس في تلك اللحظة في ماء البحر مرة اخرىٰ .

وقف «شنجي» منفرج الساقين وقد تشبثت احدى قدميه الى قيدوم الزورق واستمر في عملية «جر الحبل» المتواصلة لكل ما يمكن أن يحتويه البحر من حبار ، وسحباً باليد بعد سحب حتىٰ ظهر الحبل من الماء . كان «شنجي» رائعاً وهو مستمر في عمله ، غير ان البحر لم يستسلم : فقد استمر ويا للسخرية في دفع السلال الى الاعلىٰ - فارغة كلها

ان اكثر من عشرين سلة سحبت الواحدة بعد الاخرى حتى ذلك الوقت على مسافات من الحبل تتراوح من سبع الى عشر ياردات وكان «شنجي» هو الذي يقوم بسحب ذلك الحبل بينما كان «ريوجي» يفرغ الماء منها . أما «جوكيجي» فقد استمر يمسك المجذاف دون أن تتغير تعابير وجهه . كان يراقب الشابين بهدوء اثناء ذلك العمل .

انتشر العرق غزيراً في ظهر «شنجي» وظهر العرق بالتدريج بعد ذلك على جبهته وتعرض الى ريح الصباح فأحمر خداه . واخيراً ، ظهرت الشمس من خلل الغيوم التي رمت بظلال باهتة على اقدام الشابين المتحركين بسرعة .

اشاح «ريوجي» بوجهه عن البحر وراح ينظر نحو الزورق بعد أن اوقف السلة التي وصلت تواً ، أما «جوكيجي» فقد سحب عتلة خاصة ليوقف دوران البكرة ، وعند ذاك استدار «شنجي» ليلقي نظرة -يها .

تناول «ريوجي» عموداً من الخشب واخذ يتحسس ما بداخل سلة الصيد ، وتماماً كشخص استيقظ من اغفاءة طويلة ، انطلق اخطبوط خارج تلك السلة يرتجف على سطح الزورق وانفتح باهتزاز ظاهر غطاء سلة كبيرة من الخيزران مستقرة بالقرب من غرفة المحرك لينزلق فيها الصيد اليومي وقد احدث صوتاً مكتوماً فاتراً .

انهى الزورق «تايهي ـ مارو» معظم فترة الصباح المخصصة لصيد الاخطبوط حيث كان الصيد الزهيد يتكون من خمسة اخطبوطات فقط ، وبعد قليل هدأت الريح تماماً واشرقت الشمس ببهاء كبير .

عاد الزورق «تايهي ـ مارو» ، اثناء ابحاره خلل قنال «ايراكو» الى خليج «ايسه» ليقوم بالصيد بواسطة الشبكة خلسة في المياه المحظورة هناك . ومن اجل القيام بذلك ، ربطوا عدداً من الصنارات الكبيرة والخيوط على قضيب مستعرض ثم ربطوا ذلك القضيب الى حبل متين ومن ثم جعلوا الزورق يتحرك بعد ان القوا بذلك القضيب الى قاع

المحيط تماماً مثلما تعمل ماكنة جمع التبن في الحقل . وبعد فترة من الوقت سحبوا القضيب لتظهر معه اربع من الاسماك المفلطحة الرأس وثلاث من اسماك موسى تهتز بعنف من داخل الماء . اخرجها «شنجي» من صناراتها بيديه فسقطت على سطح الزورق الملطخ بالدم يشع من بطونها البيض بريق اخاذ ، أما أجسام اسماك موسى الرطبة السود وعيونها الصغيرة التي استقرت عميقة بين ثنيات التجاعيد الكثيرة ، فقد عكست على صفحتها زرقة السماء الصافية .

حان موعد تناول الغذاء فقطع «جوكيجي» رؤوس الاسماك المفلطحة فوق باب فتحة الهبوط الى غرفة المحرك وقسمها الى قطع صغيرة . تقاسموا القطع النيئة فوق اغطية علب الغذاء الالمينيوم المخصصة لهم وسكبوا فوقها صلصة فول الصويا من قنينة صغيرة ، ثم تناولوا علبهم الملأى بخليط من الرز المسلوق والشعير وبعض قطع الفجل المخلل فأكلوا كثيراً الى حد التخمة ، أما زورقهم فقد عهدوا به الى امواج البحر الطويلة تعبث به ما تشاء . وفجأة قال «جوكيجي» !

قل لي ، ما هو رأيك في موضوع استدعاء العم العجوز «تيروميانا» لابنته ؟

لا ادري ان كان قد فعل ذلك .

وانا كذلك .

هز الشابان رأسيهما بينما استمر «جوكيجي» في سرد القصة :

للعم «تيرو» اربع فتيات وصبي واحد وقد صرح مرة بان لديه من البنات اكثر مما ينبغي ولذا فقد زوج ثلاثاً منهن في مكان قصى وجعل الرابعة في رعاية اناس آخرين على سبيل التبني . اسم هذه الفتاة هو «هاتسو» ، وقد تبنتها عائلة من نساء يعملن في الغوص في «اويزاكي» في «شيما» . وماذا تعرفان بعد كل هذا ؟ ان ابنه الوحيد «ماتسو» مات بمرض التدرن في العام الماضي ، وبما ان العم «تيرو» أرمل فقد إزداد

شعوره بالوحدة ، وعلى هذا فقد ارسل في طلب «هاتسو» لتعود الى البيت ثم اعاد تسجيلها ضمن عائلته وقرر ان يتبنىٰ لها زوجاً يضمه الى عائلته - شخصاً يحمل اسم العائلة

لقد شبت «هاتسو» لتصبح قطعة من جمال حقيقي كما أن هناك كثيراً من الشباب ممن يرغبون بالزواج منها .. والآن ، ما هو رأيكما ايها الشابان ؟

نظر «شنجي» و «ريوجي» احدهما الى الآخر وضحكا . كان كل واحد منهما يخمن بان الآخر قد أحمر خجلاً ، غير ان الاحمرار الذي سببته لهما الشمس كان اشد من اي احمرار آخر يمكن له أن يظهر

ان الحديث عن هذه الفتاة والصورة التي رآها بها البارحة على الشاطيء قد امتزجا فيما بينهما بسرعة داخل رأس «شنجي» . لقد تذكر في تلك اللحظة بقلب كسير وضعه البائس في الحياة ، كما انه تذكر مثل هذه الامور الآن قد جعل الفتاة التي رآها عن كثب قبل يوم تبدو بعيدة المنال جداً . لقد عرف الآن بأن اباها هو «تيروكيجي مياتا» ، المالك الثري لسفينتي الشحن التجاريتين العاملتين وفق امتياز معين معقود مع شركة نقل «ياماگاو» ، الاولىٰ ، «اوتاجيما - مارو» ذات الحمولة البالغة مائة وخمسة وثمانين طناً . والثانية ، «هاروكاز مارو» ذات الحمولة البالغة خمسة وتسعين طناً . ذلك الثري المعروف بسرعة اثارته وكثرة تذمره وبشعره الابيض الذي يهتز كشاربي الأسد عند الغضب

ادرك «شنجي» ، وهو الذي كان يتصف برجاحة العقل والتفكير السليم ، بانه لا يزال الآن في الثامنة عشر من عمره وبأن الوقت لم يحن بعد للتفكير بالنساء ، فهو على نقيض الوضع الذي يعيش فيه شباب المدن الكبيرة الذين تتفجر حياتهم بالصور المثيرة ، يعيش في «اوتاجيما» التي تخلو حتى من قاعة واحدة لممارسة لعبة الكرة والدبابيس مثلاً اضافة الى خلوها من أي بار أو نادلة واحدة . ان منتهى ما يحلم به هذا الشاب

هو ان يملك في أحد الايام واحداً من المراكب التجارية ليقوم باعمال الشحن سوية مع اخيه الصغير «هيروشي» .

وعلى الرغم من سعة المحيط المترامي الذي احاط به من كل جانب ، لم تلتهب في ذهنه على وجه التخصيص تلك الاحلام المستحيلة التي تتمثل بمغامرات كبيرة في البحار لان فكرة الصياد عن البحر تقترب كثيراً عما يفكر به الفلاح حول ارضه . البحر ، بالنسبة اليه ، مكان ينال فيه لقمة عيشه ، بحر ، بدلاً من سنابل الرز والقمح المتراقصة فوقه ، تتموج فيه والى الأبد محاصيل ، لكنها من امواج بيض لا ترسل معالمها اشكالاً ثابتة بل تستقر على زرقة أبدية يتسم قرارها بالشفافية والطوعية .

ومع ذلك ، عندما اوشك صيد ذلك اليوم على الانتهاء ، فقد امتلأ قلب الشاب بعواطف غريبة وهو ينظر الى سفينة شحن تمخر عباب البحر نحو غيوم المساء المتراكمة عند الافق ، ومن بعيد اخذ العالم يضغط عليه بثقل هائل لم يكن يدركه قبل الآن ، لقد وافاه ادراك هذا العالم المجهول بما يشبه الرعد ، يدوي من البعيد تاره لينحدر الى ما يشبه العدم تارة اخرى .

وعلى سطح الزورق قريباً من قيدومه جفت واحدة من نجوم البحر . بينما جلس الشاب هناك وقد اعتمر رأسه بمنشفة بيضاء خشنة . ثم شاح بوجهه بعيداً عن غيوم المساء تلك واخذ يهز رأسه هزاً خفيفاً

ـ الفصل الثالث ـ

حضر «شـنجي» في تلك الليلة الاجتماع المنتظم «لجمعية الشُـبـاب» ، وهذا هو الاســم الذي صــار اليوم يطلق على ما كان يدعى في الزمن السابق بـ «دار النوم» ثم اصـبح فيما بعـد واحـداً من الاقسـام الداخلية للشـباب غير المتزوجـين من اهل الجـزيرة ، وحـتى الان فان كثيراً من اولئك الشـباب يفضـلون النوم في كوخ الجمعية الكئيب على شــاطيء البحر ، على النوم في بيوتهم الخاصة .

اعتاد الشباب في ذلك المكان على النقـاش بحـرارة حـول نفقـات التعليم والصحة وطرق انقـاذ السـفن التي توشـك على الغـرق والقيام بوسائل الانقاذ الاخـرى في عرض البحـر وحفـلات الرقص لمهــرجان «الاسد والمصباح» والمهام الخاصة بالمناسبات الاجتماعية التي تهـم شـباب القرية منذ اقدم العصور . وهكذا اعتبر الشباب انفسهم جـزءاً من حياة الناس البسـطاء وتحملوا بسرور بالغ ذلك العـبء الذي اعتاد الرجــال الكبار تحمله كجزء من الواجبات الملقاة على كواهلهم .

هبت من البحر ريح قوية لتبعث الصليل في مصـاريع النوافذ الليلية المغلقة وتؤرجح المصباح الى الامام والخلف فيخفت الضـوء تارة ويسـطع

على نحو مفاجيء تارة اخرى ، وتزاحم في الخارج ليل البحر الكثيف قريباً منهم وكشف هدير المد المتواصل عن قلق الطبيعة وطغيانها في وقت تحرك فيه ضوء ذلك المصباح فوق تلك الوجوه الشابة الطافحة بالبهجة والبشر .

عندما دخل «شنجي» تلك الدار كان أحد الاولاد يحبو على الاربع تحت المصباح وقد قص له أحد الاصدقاء شعر رأسه بماكنة حلاقة يعلوها الصدأ قليلاً . ابتسم ثم اتخذ مجلسه على الارض قريباً من الجدار وبعد ذلك عقد ركبته وبقي صامتاً كالعادة وهو يصغي الى أحاديث الآخرين .

أخذ الشباب بالتباهي فيما بينهم حول الصيد اليومي وقد علا ضحكهم وكال الاهانات أحدهم الى الاخر بلا حدود ، كان أحد الشباب المغرمين بالقراءة كثيراً يقرأ بحماسة كبيرة في احدى المجلات القديمة التي تجهز بها الدار ، بينما انهمك آخر بحماسة لا تقل عن صديقه في قراءة كتاب هزلي يمسك صفحاته المفتوحة باصابع ذات مفاصل ملتوية تجاوزت في شكلها عمره الحقيقي ، استمر يقرأ بعض الصفحات لدقيقتين او ثلاث دقائق قبل ان يدرك مضمونها في آخر الامر ولتنطلق ضحكاته هادرة مدوية بعد ذلك .

وهنا ، يسمع «شنجي» للمرة الثانية حديثاً عن الفتاة الجديدة التقطت اذنه جزءاً خاطفاً من جملة قالها شاب ذو سن مكسورة فتح فمه واسعاً ليضحك ويقول :

«هاتسو» هذه ، انها

أما بقية الجملة فقد استعصى على «شنجي» سماعها وذلك بسبب الاضطراب الذي ساد جزءاً آخر من الغرفة واختلط بجواب ضاحك من المجموعة التي تحلقت حول الشاب ذي السن المكسورة . لم يكن «شنجي» معتاداً على اطالة التفكير فيما يحدث حوله من شيء ، لكن اسم «هاتسو» ، وهو كالاحجية التي يحتار المرء في أمر اقترابها وابتعادها

عنه ، استمر في الضغط على افكاره وارهاقها . أحمر خـداه لمجـرد سماع الصـوت الذي يدل على اسمهـا واخـذ قلبه يدق بعنف . ان الجلوس في ذلك المكان من غير عمل يقوم به كان يثير في نفسه شعوراً غريباً . لقـد شعر في داخـل نفسـه بتلك التغـيرات البدنية التي اعتادت ، حـتىٰ تلك اللحظة ، ان تعتريه خلال فترة العمل المرهق فقط .

وضع راحة يده على خـده يتحسسـه فبدا له وكأنه شيء غير مألوف تماماً . ان ادراك مثل تلك الاشـياء في داخـل نفسـه او بالدرجـة التي لم يكن يتوقعهـا ، كان بمثابة ضربة موجعـة اصـابت رجـولته واعتزازه بنفسه ، كما ان ذلك الغضب المتزايد جعل خديه يتوقدان حرارة .

كان الشباب في انتظار رئيسـهم ـ ياسـو كواموتو ـ الذي وان كان في سن التاسعة عشر من عمره ، لكنه كان ابن عائلة معـروفة في القـرية وله من القوة ما يجعل الاخرين يلتفـون حـوله ويسـيرون على خـطاه . وهو ، على الرغم من صغر سنه ، عرف السر في اضـفاء الاهمية الكبيرة على نفسه ، ولذا فقد اعتاد على الحضور متأخراً عن مواعيد الاجتماعات باستمرار .

دخل «باسو» الغرفة الآن بعد ان فتح الباب بعنف وضجة وكان مفرط السـمنة ذا بشرة حمراء ورثهـا عن ابيه الذي كان مدمناً على الخمرة . وجهه ينم عن مظهر بسيط ، لكن سيماء ماكرة تأبىٰ إلا ان تظهـر حـول حاجبيه الرفيعين . ثم تحدث بعفوية دون ان يظهـر في حـديثه اي أثر من اللهجة المحلية :

يؤسفني انني تأخرت ... حسـن ، والآن ، يجـب ألاّ نفـرط بالوقت فهناك خطط معينة يجب تثبيتها لمشاريع الشهر القادم .

جلس الى مكتبه وهو يردد هذه الكلمات ، ثم فتح دفتراً للملاحـظات ، فشـعر الآخـرون جميعـاً بانه لا بد ان يكون في عجلة من أمره من أجل شيء ما . استأنف الحديث بعد ذلك ليقول :

وبناء على ما تقرر في اخر اجتماع لنا ـ هناك مسألة عقد الاجتماع لجمعية «رعاية الشيوخ» وكذلك مسألة جلب الصخور للقيام باصلاح الطريق ، ثم قضية تنظيف المجاري للخلاص من الفئران ـ ان هذا هو الطلب الذي تقدم به مجلس القرية .

وكما هي العادة ، فاننا سوف نقوم بهذه الاعمال في يوم عاصف لا تخرج فيه الزوارق للصيد في البحر ، ومن حسن الحظ ، ان القضاء على الفئران يمكن ان يتم تحت اي ظرف من ظروف المناخ ، كما انني لا اظن بان الشرطة سوف تتعقبنا ان نحن قضينا على بعض تلك الفئران خارج المجاري . انطلق عند ذاك ضحك مدو واصوات تصيح «اخبر الشرطة انت ! اخبرهم انت !» .

وقدمت فيما بعد اقتراحات للطلب الى طبيب المدرسة في القاء حديث عليهم حول الصحة العامة والقيام بمباراة خطابية عامة ، لكن السنة الجديدة ، وفقاً للتقويم القمري القديم ، قد انتهت تواً وقد بلغ السأم بالشباب فيما يخص مثل هذه الاجتماعات حداً جعلهم يشعرون بفتور حول كلا الاقتراحين .

وهكذا انتظموا في لجنة عامة وجلسوا يتناقشون في تقويم نقدي حول المزايا الموضوعية للنشرة الخاصة التي تنسخ بايديهم والمسماة بـ «جزيرة الايتام» . وهناك ما يشبه الرباعية من نظم «فيرلين» اقتبسها أحد الشباب الولوعين بقراءة الكتب لتوضع في نهاية مقالة من العدد الاخير لتلك النشرة . لقد اصبحت تلك الرباعية الموضوع العام والقضية الأولى بالنسبة الى زوارقهم وتغيير اتجاهاتها في البحر :

أنا لا ادري لماذا ،
تحوم روحي الحزينة بلا قرار ، بلا قرار
فوق مياه البحر ،
على جناحين شديدي الاهتياج لا يستقران ...

ماذا تعني بعبارة «بلا قرار ، بلا قرار» ؟

«بلا قرار ، بلا قرار» تعني «بلا قرار ، بلا قرار» . هذا هو كل ما في الأمر .

ربما استعملت العبارة خطأ ، كأن اريد بها «الطيران أو التنقل السريع من مكان لآخر» .

صحيح ! فلو انك قلت مثلاً (انه يطير بسرعة) ، عند ذاك يكون للكلمات بعض المعنى المنطقي .

ومن هو «فيرلين» هذا ، على اية حال ؟

واحد من أشهر الشعراء الفرنسيين ـ ذاك هو !

وماذا تعرف انت عن الشعراء الفرنسيين ؟ من يدري ؟ لعلك اقتبست ذلك من احدى الاغاني الشعبية المنتشرة هنا أو هناك .

وهكذا انتهى اجتماع تلك الليلة بتراشق متبادل من الاهانات والكلمات النابية كما هي العادة .

اوقف «شنجي» واحداً من اصدقائه ليسأله بعد ان اخذته الدهشة وهو يرى «ياسو» في مثل تلك العجلة لمغادرة المكان ، فاجابه الصديق

ألا تدري ؟ انه مدعو الى الحفلة التي اقامها العم «تيرومياتا» احتفاءاً بعودة ابنته الى بيته .

اعتاد الشاب ان يقطع الطريق الى البيت مع الآخرين وهم يتناقشون ويتضاحكون ، ولكنه الان ، بعد ان سمع بالحفلة التي لا يمكن ان يدعى لها باية حال من الاحوال ، انسل على الفور وسار لوحده على الشاطيء باتجاه الدرجات الصخرية التي تفضي الى مقام «باشيرو» المقدس . وحينما كان ينظر الى الاعلى نحو بيوت القرية التي بني الواحد منها فوق الآخر في ارتفاع شديد الانحدار ، شاهد الاضواء الساطعة التي انبعثت من بيت «مياتا» . كانت اضواء القرية كلها تنبعث من نفس النوع من المصابيح النفطية ، عدا تلك الاضواء ، فقد بدت مختلفة نوعاً ما ـ كانت اكثر اشراقاً .

ثم انه وان كان لا يمكنه مشاهدة منظر المأدبة الحقيقية ، غير انه استطاع ان يتصور بكل وضوح كيف ان لهيب تلك المصابيح الحساس لا بد وان يرمي بالظلال المضطربة لحاجبي الفتاة الهادئين واهدابها الطويلة على خديها .

نظر «شنجي» بعد وصوله الى بداية سلم الدرجات الصخرية الى تلك الدرجات التي كانت تعلوها بقع من ظلال اغصان الصنوبر . ثم ابتدأ في الصعود فانطلق من قبقابيه الخشبيين صوت له قرقعة جافة . لم يشاهد حول المقام أي شخص ، كما ان الضوء في مسكن الكاهن قد اطفيء في ذلك الوقت .

وعلى الرغم من ان «شنجي» قد صعد الى اعلى المائتي درجة لم يظهر اي اثر للارهاق على صدره حتى وصوله ذلك المقام .

وقف أمام المقام المقدس وقد امتلأت نفسه باحترام كبير ، ثم وضع بعد ذلك مبلغ عشرة «ينات» في صندوق التبرعات الخيرية وبعد ان استغرق في التفكير لحظة دفع بعشرة «ينات» اخرى .

كان صوت يديه ، وهما تصفقان تدعوان الله للالتفات اليه ، قد تردد في حديقة ذلك المقام وعند ذاك أخذ يتلو صلاته قلبياً :

«يا الهي ، ارجوك ان تجعل البحار هادئة والاسماك وفيرة وقريتنا اكثر ازدهاراً . لا ازال يا الهي شاباً ولكن اجعلني يارب في الوقت المناسب صياداً ماهراً بين حشود الصيادين . انعم علي بمعرفة كبيرة استعن بها على كشف زوارق الصيد وتقلبات الجو ... وكل شيء . اللهم اجعلني رجلاً ذا مهارة كبيرة في كل شيء ... كما اتوسل اليك ياربي ان تحفظ أمي الرؤوم واخي الذي لا يزال طفلاً . اتوسل اليك يا الهي أن تدرأ الشر عن امي وهي تدخل البحر في موسم الغوص وان تبعد الاخطار عنها ... وهناك يا الهي رجاء آخر أود ان اطلبه منك ... اللهم اجعل في أحد الأيام شخصاً مثلي أهلاً لأن يمنح زوجة طيبة جميلة ..

ولتكن مثل ابنة «تيروكيجي» التي عادت الى بيت ابيها» .

هبت بعد ذلك الريح عاصفةً فساد الاضطراب والصخب اغصان الصنوبر . اطلقت تلك الريح العاصفة اصداءاً مخيفة حتى في داخل المقام المظلم ، ومن يدري ؟ لعله اله البحر وقد قبل دعوات الشاب وصلاته .

نظر «شنجي» الى السماء المرصعة بالنجوم واخذ نفساً عميقاً ثم قال في نفسه : «اليست هي الالهة تعاقبني على مثل هذا الدعاء الذي يدل على الانانية ؟» .

ـ الفصل الرابع ـ

بعد حوالي أربعة أو خمسة أيام تحولت الريح لتصبح عاصفة هوجـاء وكانت الامواج تتكسر بقـوة وعنف فوق حـاجز الماء في ميناء «اوتا ـ جيما» ، والبحر على سعة امتداده وبعـده كان متقلباً تعلو سـطحه الامواج المزبدة . أما السماء فقـد كانت صـافية ، غير انه بسـبب تلك الريح العاتية لم يخرج الى الصيد حتىٰ ولا زورق واحد ابداً

طلبت أم «شنجي» من ابنها ان يسدي لها معروفاً فقـد قامت النسـاء في القرية بجمع الحطب فوق الجبل وتركته مركوناً في اعلى مكان فيه سبق ان اتخذ فيما مضى كبرج عسكري للمراقبة . كانت العـلامة التي وضـعتها امه فوق ما جمعته من حـطب قطعـة من قماش أحمر قديم . وبما إن «شـنجي» قد انتهـىٰ عند ظهـر ذلك اليوم من العمل في «جمعية الشـباب» حيث تعاونوا على حمل الصخور لرصف الطريق ، فقد طلبت منه أمه ان يجلب لها الحطب الذي جمعته فوق الجبل .

وضع الشاب على كتفه حـاملاً من الخشـب غطي ببعض الاغصـان المقـطوعة كوقاء وانطلق في الطريق التي تفضي الى ما يحـاذي المنار ، وعندما استدار حول المكان المعروف باسم «منحدر المرأة» هدأت العاصفة

تماماً كما لو انها كانت مجرد حيلة لا غير .

ران الصمت على مسكن موظف المنار فبدا أهله وكأنهم استسلموا لقيلولة ثقيلة .ثم شاهد ظهر أحد المراقبين وقد جلس الى الطاولة في برج المراقبة الذي صدح فيه الراديو بموسيقىٰ عالية . عندما صعد «شنجي» على المنحدر الذي تكسوه أيكة من اشجار الصنوبر ، أخذ جسمه يتصبب عرقاً من شدة التعب والارهاق .

ساد الجبل هدوء تام ولم يشاهد في ذلك المكان اي انسان ولم يتجول فيه حتى ولا كلب سائب . والحقيقة هي انه بسبب القدسية التي يفرضها وجود الاله الذي يحرس الجزيرة ، لا يوجد هناك كلب سائب في جميع ارجاء الجزيرة عدا تلك الكلاب البيتية الاليفة . ونظراً الى ان تلك الجزيرة تقع على سفح هضبة عالية مما يجعل وجود الأرض المستوية أمراً نادراً ، فلا توجد كذلك خيول أو ابقار يمكن استخدامها في سحب العربات او حمل الاثقال . الحيوانات الوحيدة فيها هي القطط التي تجرجر اذيالها في الظلال القوية المتناثرة في الازقة التي تفضي باستمرار نحو الاسفل بواسطة درجات مرصوفة بالحصىٰ ـ تلك الازقة التي تتخلل بيوت القرية الكثيرة .

صعد الشاب الى قمة الجبل التي هي اعلىٰ نقطة في «اوتا ـ جيما» والتي نمت فيها خميلة من شجيرات تعتبر مقدسة اضافة الى اشجار التوت الفضي والاعشاب الطويلة لدرجة تعذرت من خللها الرؤية ، ولم يسمع غير صوت البحر المدوي في منطقة الاحراش تلك التي يلفها سكون كئيب . أما الطريق التي تؤدي الى الاسفل من الجهة الاخرىٰ نحو الجنوب فقد اكتست بالشجيرات والاعشاب البرية مما يتحتم على من يريد الوصول الى برج المراقبة ان يقوم بانعطاف كبير بعيد عن الطريق المباشرة .

في هذه الاثناء ، والى ما وراء أجمة اشجار الصنوبر ذات الارض

الرملية ، بدا للعيان برج المراقبة ذو البناء الاسمنتي المسلح بطوابقه الثلاثة . كانت بقاياه القديمة البيض غريبة الشكل وسط ذلك المنظر المتوحد الذي ران عليه السكون . اعتاد الجنود في الازمان القديمة ان يقفوا في شرفة الطابق الثاني منه وقد وضعوا المنظار امام عيونهم وثبتوا اهداف المدافع اثناء التمرين لاصابة الهدف من منطقة جبل «كوناكا» حتى الجهة البعيدة من «ايراكوكيب» وبعد ذلك يأخذ الضباط في النداء من داخل البرج مستفسرين عن الموضع الذي سقطت عليه الاطلاقات فيجيبهم الجنود موضحين لهم خطوط الاتجاه ومجال الاطلاق لتلك المدافع او مسافاتها . استمرت هذه الحال حتى منتصف سنوات الحرب العالمية الثانية ، هذا بالاضافة الى الشكوى الكثيرة التي ابداها الجنود من ذلك الحيوان اللبون (الغرير) الذي اعتاد على الحفر في الارض ، وذلك بسبب النقص الغامض في تجهيزاتهم أو مواردهم الاحتياطية .

اطل الشاب من اعلىٰ البرج الى الطابق الارضي فرأىٰ جبلاً من اوراق الصنوبر المنشارية والاغصان الصغيرة الجافة مربوطة في حزم مختلفة .

من الواضح ان هذا الطابق من البرج كان يستعمل فيما مضى كمخزن . وكانت نوافذه صغيرة جداً حتىٰ ان البعض منها لا زال يحتفظ بالواحه الزجاجية سليمة .

دخل الشاب على ضوء النوافذ الباهت فوجد الاشارة التي وضعتها أمه ـ قطعاً من قماش احمر قديم مربوطة الى حزم عديدة وقد كتب عليها اسم «تومي كوبو» بحروف طفولية غير متقنة . وبعد ان انزل «شنجي» تلك الحمالة الخشبية من على ظهره ، ربط حزم تلك الاوراق والاغصان الصغيرة الجافة اليها .

لم يقم الشاب بزيارة البرج منذ فترة طويلة وقد شعر الآن بعدم الرضىٰ من نفسه وهو يغادر المكان بمثل هذه السرعة ، وهكذا فهو بعد ان ترك الحطب جانباً ، اوشك على البدء بالصعود على درجات السلم .

وحينذاك فقط ، وعلى حين غرة ، تناهى الى سمعه صوت خافت من فوق رأسه بدأ وكانه صوت ارتطام حجر بخشب . اصغى الشاب لمعرفة مصدر ذلك الصنوت ، لكن الصوت توقف . لا بد ان يكون الأمر مجرد خيال .

صعد الى اعلى السلم الصخري ، وهناك في الطابق الثاني من تلك الخرائب امكنه مشاهدة البحر وقد تأطر منظره على نحو كئيب بنوافذ واسعة ينقصها الزجاج والالواح الخارجية ولم يبق هناك من شيء حتى سياج الشرفة نفسها . ومع ذلك ، فان بقايا كتابات الجنود المشوشة ما زالت ماثلة للعيان على جدران المبنى الرمادية .

استمر «شنجي» في الصعود ثم توقف ليلقي نظرة على سارية العلم المكسورة من نافذة في الطابق الثالث ـ وفي هذه اللحظة تأكد تماماً بانه قد سمع صوت نشيج وبكاء لشخص مجهول ـ انطلق مسرعاً ومن غير أن يحدث ضجيجاً ، صعد الى السطح الاعلى بحذائه المطاطي الخفيف .

وفي الحقيقة ، ان من اصيب بالذهول والدهشة في تلك اللحظة هي الفتاة الموجودة فوق سطح البرج لانها رأت شاباً يظهر امامها من مكان مجهول وبشكل فجائي غير متوقع ، ولم يكن هناك ما يدل عليه حتى وقع اقدامه . كانت الفتاة تنتعل قبقاباً خشبياً ، تبكي ، غير انها توقفت عن النشيج عندما رأته فوقفت جامدة من الخوف . انها «هاتسو» .

لم يحلم الشاب بمثل هذا اللقاء السعيد ابداً ولم يستطيع تصديق حتى عينيه . وهكذا وقف الاثنان بكل بساطة في ذلك المكان مذهولين كحيوانين يتقابلان وجهاً لوجه في غابة ، ينظر احدهما في عين الآخر فتهتز عواطفهما ما بين الحذر وحب الاستطلاع . واخيراً قال «شنجي» :

انت «هاتسو ـ سان» ، أليس كذلك ؟

اومأت «هاتسو» بالايجاب بلا ارادة منها وقد دهشت لمعرفته اسمها ، ومع ذلك ، فهناك ما يخص عيني ذلك الشاب الغامضتين وهو يحاول جاهداً القيام بذلك المظهر المتكلف . فقد أعادت الى ذهنها وجه شاب

حدق فيها باصرار على شاطيء البحر منذ أيام قليلة .
كنت تبكين ، أليس كذلك ؟
نعم .
ولم البكاء ؟
قال «شنجي» ذلك بصوت يشبه صوت رجل من رجال الشرطة ، وعند ذاك اجابته الفتاة بسرعة غير متوقعة بأن السيدة ، زوجة موظف المنار ، اعتادت اعطاء الدروس في قواعد التشريفات والآداب اضافة الى دروس في التدبير المنزلي الى فتيات القرية الراغبات في ذلك ، وفي ذلك اليوم كانت الفتاة «هاتسو» قد ذهبت لحضور تلك الدروس للمرة الاولىٰ ، غير انها ، وقد جاءت قبل الموعد ، قررت الصعود الى الجبل خلف موقع المنار فضلت طريقها
حام في ذلك الوقت تماماً أحد طيور الباز الجوالة فوق رأسيهما فاعتبر «شنجي» ذلك فألاً حسناً ، وعلى هذا فقد انحلت عقدة لسانه وبعد ان استعاد مظهر رجولته المعتادة اخبرها بانه كان قد مرَّ بمحاذاة المنار في طريقه الى بيته وبانه على استعداد للسير معها مسافة الطريق .
ابتسمت «هاتسو» دون ان تبدو عليها رغبة في مسح دموعها التي انحدرت على خديها فبدت الابتسامة وكأنها اشراقة شمس من خلل مطر متساقط كانت تلبس بلوزاً احمر وسروالاً عريضاً من قماش السرج الازرق وجواريب حمراً من القطيفة ـ ذلك النوع من الجواريب المشطورة عند الابهام لكي تلائم لبس القبقاب
اتكأت «هاتسو» على حاجز الشرفة تحت حافة السطح الظاهرة فوق رأسها وراحت تنظر باتجاه البحر ثم تساءلت
ترىٰ ، ما هي هذه البناية ؟
اتجه «شنجي» نحو الحاجز بعيداً عن مكان وقوف الفتاة واجاب :
سبق وان اتخذ هذا البناء كبرج لمراقبة اهداف الرماية ، فقد اعتاد الضباط النظر من هنا لمشاهدة المواضع التي تتساقط فيها اطلاقات المدافع

هنا في الجهة الجنوبية من الجزيرة التي يحجبها الجبل لا توجد رياح . كما ان الجزء المشمس من المحيط الهادي يمتد تحت مستوى نظريهما

اما جرف البحر الصخري المكسو باشجار الصنوبر فقد كان شديد الانحدار وقد انتشرت بقع بيض على صخوره الناتئة تمثل براز طيور الغاق الكثيرة ، واستحال لون الماء القريب من قاعدة ذلك الجرف بنياً مائلاً للسواد نتيجة لنمو الاعشاب والطحالب البحرية فوق قاع المحيط

ثم اشار «شنجي» فيما بعد الى صخرة عالية قريبة من الشاطيء تماماً ، تتلاطم فوقها امواج البحر هادرة لترسل الى الاعلى غيوماً من رذاذ الماء المتطاير

تلك هي الجزيرة السوداء كما يسمونها . انه المكان الذي كان فيه الشرطي «سوزوكي» يصطاد حينما جرفته الامواج واغرقته

كان «شنجي» في غاية البهجة ، غير ان الوقت اقترب من نهايته عندما حان موعد انصراف «هاتسو» الى المنار ، وهكذا فهي بعد ان اعتدلت في وقفتها وغادرت الشرفة ، التفتت نحو «شنجي» لتقول

سوف اذهب الآن

لم يجب «شنجي» غير ان الدهشة ارتسمت على وجهه عندما لمح خطاً اسود امتد باستقامة عبر القسم الامامي من بلوزتها تابعت «هاتسو» نظراته فرأت ذلك الخط المعتم تماماً في المكان الذي اسندت فيه صدرها على حاجز الشرفة الكونكريتي . انحنت ثم اخذت تربت على صدرها بيديها المفتوحتين . وتحت بلوزتها التي بدت وكأنها تخفي بعض الحمالات المشدودة بقوة ، اخذت في الاهتزاز هضبتان صغيرتان نافرتان اهتزازاً رقيقاً وذلك بفعل اللمس الخفيف المتكرر من يديها

امعن «شنجي» نظره في كل ذلك واستولت عليه الدهشة ، فقد بدا له بعد ذلك الضرب المتواصل من يديها ، ثديان كأنهما حيوانان صغيران لعوبان جعلاه يضطرب كثيراً وهو ينظر الى تلك الحركة الناعمة المرنة التى يرسلانها . وفى الاخير ازيل ذلك الخط المتسخ من على صدرها

كلياً .

نزل الشاب اسفل الدرجات الكونكريتيه أولاً ثم تبعته «هاتسو» فانطلقت من قبقابها اصوات خفيفة يتردد صداها بوضوح من جدران الخرائب الاربعة ، لكن تلك الاصوات توقفت خلف «شنجي» عندما وصلا الى الطابق الأول فنظر الى الخلف ليرىٰ الفتاة واقفة تضحك ، فقال :

ماذا حدث ؟

صحيح أن بشرتي سمراء ، ولكن بشرتك في واقع الحال شديدة السواد .

ماذا ؟

يبدو ان الشمس قد احرقتك حقاً .

ضحك الشاب وهو يدمدم باجابة لا معنى لها ثم واصل نزوله على السلم . كانا على وشك مغادرة البرج حينما توقف «شنجي» فجأة ودخل البناء القديم راكضاً . لقد نسي اكوام الحطب التي اوصته أمه بجلبها .

عند العودة باتجاه المنار ، سار «شنجي» الى الامام يحمل على ظهره جبلاً من اوراق الصنوبر المسننة ، واثناء سيرهما سألته الفتاة عن اسمه ، وانذاك ، قدم اليها نفسه لأول مرة ، لكنه اسرع فطلب اليها ان لا تذكر اسمه الى اي شخص آخر وان لا تقول شيئاً عن مقابلته لها في ذلك المكان . كان «شنجي» يدرك جيداً كيف يمكن ان تكون السنة القرويين حادة قاطعة . وعلى هذا فقد وعدته «هاتسو» ان لا تقول شيئاً عن ذلك . وهكذا كان خوفهم الشديد من ميل القرويين الشديد في نشر الاشاعات والقيل والقال قد غير ما كان يعتبر مجرد لقاء بريء عرضي الى شيء يشبه السر فيما بينهما .

سار «شنجي» بصمت لا تراود فكره امكانية اللقاء بها ثانية ، ثم وصلا الى النقطة التي امكنهما فيها مشاهدة المنار فاشار الى الطريق

القصــيرة التي تفضي الى خلف المسكن الذي يقــيم فيه موظف المنار فودعهــا . ومن ثم ، وبقصـد منه ســـار في الطريق الملتوية التي يؤدي انحدارها الى القرية .

ـ الفصـــل الخـــامس ـ

كان «شنجي» حتى هذا الوقت يعيش حياة هادئة راضـية على الرغم من الفقر الذي احاط به ، غير انه اصـبح من الان فصـاعداً نهباً لقلق شـديد وغارقاً في تفكير عميق وفريسـة الى شـعور يوحـي اليه بان ليس هناك من شيء لديه يمكن ان يروق للفتاة «هاتسـو» . صـحيح انه يتمتع بصحة جيدة لدرجة انه لم يصب باي مرض في حياته سوى الحصبة ، كما ان بامكانه اجتياز الماء المحيط بجزيرة» «اوتاـجيما» سباحة خمس مرات من غير توقف وانه كان متأكداً بانه لا يمكن ان يستسلم لأي شـخص مهما كان في اي اختبار للقوة البدنية ، ومع ذلك لم يكن يعتقد بأن اياً من تلك المؤهلات يمكن له أن يؤثر في قلب «هاتسـو» . لا يمكن ان تكون هناك ، بكل بساطة ، فرصة اخرى لمقابلة «هاتسو» ، فقد اعتاد في كل مرة يعود فيها من الصيد ان يشخص ببصره على امتداد الشاطيء بحثاً عنها ، غير انه في المرات القليلة التي رآها فيها كانت منهمكة في العمل لدرجة لم تتح له فرصة التحدث اليها ثانية . لم تتح له فرصة كتلك الفـرصة التي كانت فيها وحيدة تتكيء على الواح الخشـب وتنظر باتجـاه البحـر ، واكثر من ذلك ، فان الشـاب وفي الوقت الذي يقـرر فيه بانه قد سـأم من الامر

كله وبانه لابد ان يبعد «هاتسو» عن تفكيره كلياً ، يتأكد لديه شيء وهو انه سوف يلمح الفتاة في نفس ذلك اليوم تتجول بين الحشود الهائجه للصيادين الذين اجتمعوا على الشاطىءعند وصول زوارق الصيد .
يستطيع شباب المدن الكبيرة ان يعرفوا أساليب الحب مبكراً وذلك عن طريق الروايات ودور السينا وما شاكل ذلك ، غير انه في قرية «اوتا-جيما» لا توجد في واقع الحال انماط معينة يمكن اتباعها وهكذا ، وبغض النظر عما كان يراود ذهن «شنجي» من شيء ، لم تدر بخلده اية فكرة مهما كانت بسيطة عما كان ينبغي القيام به في تلك الدقائق التي مرت مابين برج المراقبة والمنار عندما انفرد بالفتاة . لقد ترك في موقف ليس فيه شيء سوى الشعور بالمرارة ، الشعور بان هناك شيئاً قد فشل فيه تماماً .
كان ذلك اليوم هو اليوم المحدد في كل شهر لاحياء ذكرى موت والده وكانت العائلة كلها في طريقها الى القبر كما هي العادة الجارية في كل شهر . ومن أجل ان لا يتدخلوا في مجريات العمل اليومي الذي يقوم به «شنجي» فقد اختاروا وقتاً يقع قبل موعد انطلاق زوارق الصيد وقبل موعد ذهاب اخيه (هيروشي) الى المدرسة .
خرج «شنجي» واخوه من البيت ترافقهما امهما التي كانت تحمل عيدان البخور وازهاراً توضع خصيصاً على قبور الموتى . تركوا باب الدار مفتوحاً لانه ليس هناك ما يعرف بالسرقة في تلك الجزيرة الآمنة .
تقع المقبرة على مسافة من القرية فوق جرف صخري واطيء يمتد بمحاذاة الشاطيء ، ويحدث اثناء ارتفاع مد البحر العالي أن يصل الماء الى اسفل ذلك الجرف الصخري ، أما فوق ذلك المنحدر من الجرف فقد انتشرت شُواهد القبور التي كان البعض منها قائماً على ارض رملية رخوة . لم يظهر الفجر بعد ، لكن السماء بدأت تكتسي بالنور من ناحية المنار ، أما القرية وميناؤها اللذان واجها المنطقة الشمالية الغربية فما زالا

ينوآن تحت عبء الظلام الثقيل .

سار «شنجي» الى الامام يحمل بيده مصباحاً ورقياً ، أما «هيروشي» اخوه فهو مايزال يفرك عينيه في محاولة لطرد النوم عنها ويسحب ردن ثوب امه ليقول :

هل استطيع الحصول يا أماه على اربع قطع من حلوى الرز في طعام الغذاء هذا اليوم ؟

هل استطيع ذلك ؟ هوه !

- كلام فارغ ! سوف تحصل على قطعتين فقط . ان تناول ثلاث قطع فيها لاشك يسبب لك الآماً مبرحة في معدتك .

- ارجوك ، اريد اربعاً منها ، هاه !

ان قطع الحلوى المصنوعة من الرز ، والتي يقوم القرويون بعملها احتفالاً بالعيد الذي يدعى «يوم القرد» ، أو تخليداً لأيام الاموات الحزينة ، كانت تقترب في حجمها من حجم الوسائد الصغيرة التي ينامون عليها .

هبت في المقبرة نسمة صباحية باردة على نحو متقطع وكان البحر ، من جانب الجزيرة الذي حجب عن الريح ، لا يزال مظلماً بينما انتشرت بقع مشرقة من الفجر فوق الجزء البعيد المنظور من البحر فاصبح بالامكان مشاهدة الجبال التي تحيط بخليج «ايسّة» بكل وضوح . بدت شواهد القبور الصخرية في ضوء الفجر الشاحب كأنها اشرعة بيض كثيرة لزوارق رست على رصيف ميناء مزدحم ، اشرعة لا يمكنها ان تمتليء بالريح ثانية ، اشرعة متدلية على نحو ثقيل وبسبب من الاهمال الذي اصابها لفترة طويلة ، تحولت الى شواهد صخرية على ماهي عليه الان . لقد دفنت مراسيها بعيداً في اغوار تلك الارض الحالكة السواد لدرجة لا يمكن معها رفع تلك المراسي مرة اخرى على الاطلاق .

عندما وصلوا الى قبر ابيهم ، وضعت الأم الازهار التي جلبتها فوقه بانتظام ، وبعد ان اشعلت كثيراً من عيدان الكبريت بسبب انطفائها

بفعل الهواء ، نجحت في آخر الأمر في حرق البخور . ومن ثم جعلت ولديها ينحنيان خشوعاً أمام قبر ابيهما ، بينما انحنت هي خلفهما تذرف بحرارة الدموع .

يردد الناس في تلك القرية مثلاً يقول ، لاتدع امرأة واحدة او كاهناً واحداً من الركوب على ظهر سفينة . كان المركب الذي قتل فيه والد «شنجي» قد كسر طوق هذا الحظر ، فقد حدث ان ماتت امرأة عجوز في تلك الجزيرة في نهاية الحرب ، وعلى هذا فقد تكفل مركب الجمعية التعاونية أمر نقل جثتها من أجل تشريحها في «توشي ـ جيما» . وعندما اصبح المركب على بعد ثلاثة اميال من «اوتا ـ جيما» تقريباً ، شاهدته طائرة كانت قد اقلعت من سفينة حاملة للطائرات ، ومن المفارقات ان لا يكون المهندس المختص موجوداً على سطح المركب في ذلك اليوم في وقت لم يعتد الشخص البديل على ادارة ماكنة المركب بالشكل المطلوب . لقد ساعد الدخان الاسود المتصاعد من تلك الماكنة الخاملة على اعطاء الطائرة هدفاً واضحاً مما سهل عليها أمر اسقاط قنبلتها فوق ذلك المركب ومن ثم أمطرته بوابل من نيران مدفعها الرشاش . انشقت مدخنة المركب وقطع رأس والد «شنجي» حتى اذنيه ، كما ان رجلاً آخر قتل في الحال بعد ان اصيب في عينيه ، وضرب شخص آخر باطلاقة نارية اخترقت رئتيه واصيب اخر بساقيه بينما مات في الحال رجل اصيب احد ردفيه مما نتج عنه نزف حاد لم ينقطع .

وهكذا استحال سطح المركب وجوفه الى بحيرة من الدماء الغزيرة واصيب كذلك خزان الوقود فانتشر النفط فوق تلك الدماء واختلط فيها . لقد تردد بعضهم في الانبطاح نتيجة لتلك الفوضى والارتباك فاصيبوا في مفاصل الورك اصابات بليغة .

لقد انقذ اربعة اشخاص انفسهم وذلك باختفائهم في صندوق الثلج الموجود في العنبر الامامي ، بينما شق أحد الرجال ، وهو في حالة فظيعة من الالم ، طريقه خلل فتحة اطلاق النار الموجودة على جانب المركب

خلف منصة الربان فانقذ نفسه ، ولكن مما يبعث على السخرية هو ان ذلك الرجل نفسه ، عندما حاول تكرار ما قام به من عمل فذ في الميناء ، وجد بانه مهما حاول من جهد لم يمكنه التسلل من خلل تلك الفتحة الصغيرة مرة اخرى .

وهكذا فقد قتل ثلاثة رجال من مجموع الرجال الأحد عشر وجرح اخرون بينما بقيت جثة المرأة الموضوعة على سطح المركب والمغطاة بحصيرة من اوراق نبات السمار لم تصب حتى بطلقة واحدة .

كان العجوز يتسم بالعنف والقسوة وهو يصيد سمك الانقليس الرملي .

قال «شنجي» ذلك لامه على سبيل الذكريات : وفي الحقيقة كان يضربني في كل يوم ، فلم تكد ضربات يده تتساقط عليَّ حتى تتساقط غيرها علي اكثر فاكثر .

يوجد سمك الانقليس الرملي في مياه «يوهيرو» الضحلة ثم أن صيد هذه الاسماك يتطلب مهارة غير عادية . وجرت العادة ان يثبت بعض الريش على رأس عمود من الخيزران المرن ليمثل طائراً بحرياً يتعقب سمكة تحت الماء ، وهذه العملية تتطلب جزءاً من الثانية فقط .

وعند ذاك عقبت الأم على حديث ابنها بقولها :حسن ، اظن ذلك ، ان صيد مثل هذا النوع من السمك هو في الحقيقة عمل يتصف بالرجولة حتى بالنسبة للصياد المحترف نفسه .

لم يهتم «هيروشي» كثيراً بالحديث الذي جرى بين امه واخيه ، بل راود ذهنه حلم بخصوص الرحلة المدرسية التي ستبدأ بعد عشرة أيام . أما «شنجي» فهو لم يكن عندما كان في عمر اخيه ، من الرفاه بحيث يستطيع المشاركة في الرحلات المدرسية ، وعلى هذا فقد اعتاد على ادخار بعض النقود من اجوره الخاصة كمصاريف سفر لأخيه «هيروشي» . كتعويض عما فاته .

بعد تقديم فروض التكريم والاجلال في تلك المقبرة ، انصرف

«شنجي» نحو الشاطيء مباشرة ليساعد الاخرين في التهيؤ للابحار وقد اتفق على ان تعود امه الى البيت من أجل ان تجلب له طعام الغداء قبل ابحار زوارق الصيد . وفي الوقت الذي حث فيه الخطى باتجاه الزورق «تايهي - مارو» على امتداد الشاطيء المزدحم تناهى الى سمعه صوت احدهم تحمله الريح اليه من بين ذلك الحشد الهائل : لقد قيل بان «ياسو كاواموتو» سوف يتزوج «هاتسو» .

اصبحت خواطر «شنجي» وهو يسمع تلك الكلمات قاتمةً بل حالكة السواد .

ومرة اخرى قضى يومه في صيد الاخطبوط البحري ، وخلال فترة الاحدى عشر ساعة التي قضوها على ظهر الزورق رمى «شنجي» بكامل قواه الروحية في سبيل الصيد ونادراً ما كان يفتح فمه بالحديث طوال ذلك الوقت ، وبما ان الشاب قد اعتاد على قلة الكلام ، لذا لم يجلب ذلك الصمت الانتباه اليه على وجه التخصيص . وبعد ان عادوا الى الميناء ربطوا زورقهم ، كما هي العادة ، بمركب الجمعية التعاونية وافرغوا شحنة الاخطبوط منها ثم بيعت انواع السمك الاخرى عن طريق الوسيط حيث نقلت الى سفينة الشراء التي تعود الى متعهد خاص ببيع الجملة . كان السمك الحفار يتحرك بعنف داخل السلال المعدة للوزن ويلمع في ضوء الشمس المائلة للغروب .

جرت العادة ان تدفع اجور عمال الصيد في هذا اليوم . اليوم العاشر عادة وهكذا فقد ذهب «شنجي» وريوجي» مع الموظف المسؤول الى دائرة التعاونية .

كان وزن ما اصطادوه من السمك في العشرة ايام الماضية اكثر من ثلاثمائة وثلاثين باوناً مما استحقوا عليه مبلغ (٢٧٫٩٩٧) «ين» ربحاً صافياً بعد طرح ما تتقاضاه الجمعية كرسوم بيع اضافة الى عشرة بالمائة كتأمينات ادخار وتكاليف صيانة .

تسلم «شنجي» مبلغ اربعة الاف «ين» من الموظف المسؤول وهو مقدار حصته من الربح . كان المبلغ جَيداً قياساً الى ان ذروة موسم الصيد قد انتهت الان . وبعد ان لحس الشاب اصابعه بلسانه أخذ يعد الاوراق النقدية بدقة بين يديه الخشنتين الكبيرتين ، ثم اعادها الى الغلاف الذي كتب عليه اسمه ووضعه في جيب سترته الداخلي وبانحناءة منه للموظف المسؤول غادر الشاب غرفة المكتب . انسحب الموظف يرافقه رئيس الجمعية التعاونية الى مجمرة النار حيث استعرض باعتزاز مبسم سيجارة كان قد حفره بنفسه من قطعة من المرجان .

قرر «شنجي» الذهاب الى البيت ، غير ان قدميه قادتاه طواعية الى شاطيء البحر المعتم . لقد سحب منذ لحظات ، آخر زورق فوق الرمل ، وهناك وقف قليل من الصيادين يديرون الرافعة من أجل ان يحركوا أحد الزوارق فوق الرمل عن طريق سحب الحبل ، وهكذا كانت النساء اللواتي اعتدن على وضع الواح الخشب تحت الزوارق لانزلاقها ، يدفعن من الخلف مما يدل بوضوح على صعوبة تحرك الزورق الى الأمام .

اشتد الظلام على الشاطيء ولم يعد هناك من أثر لطلاب المدرسة الثانوية الذين اعتادوا على مساعدة الصيادين في مثل هذه الاحوال ، ولذا قرر «شنجي» ان يمد يد العون لهم . في تلك اللحظة بالذات رفعت احدى النساء ، اللواتي كن يدفعن الزورق رأسها واخذت تنظر نحو «شنجي» انها «هاتسو» .

لم يرغب في التحديق بوجه هذه الفتاة التي جعلت مزاجه عكراً طوال هذا اليوم ، ومع ذلك فقد قادته قدماه الى سطح ذلك الزورق . كان وجهها يشع في ذلك الظلام الباهت فاستطاع ان يشاهد العرق يتصبب من جبهتها الندية كما شاهد خديها الورديين وعينيها السوداوين البراقتين اللتين تركزتا بقوة نحو الجهة التي دفع فيها الزورق ومن غير ان

يقول شيئاً مسك «شـنجي» بالحبل فصـاح الرجــال الذين يعملون على الرافعة : شكراً جزيلاً .

كانت يدا «شـنجي» قويتين وبعـد لحـظة من العمل اخــذ الزورق بالانزلاق فوق الرمل ، وعند ذاك اسرعت النسوة بعـده باندفاع وفوضى يحملن الواح الخشـب الناعمة التي سـينزلق عليهـا الزورق فوق رمال الشاطيء .

بعد أن استقر الزورق على الشاطيء اسـتدار «شـنجي» ثم سـار في طريقه نحو البيت دون أن يلتفـت الى الخلف . كانت ، في الواقع تحـدوه الرغبة في الالتفات الى الوراء ، لكنه استطاع ان يكبح جماح تلك الرغبة القوية .

وفي الوقت الذي فتح فيه باب داره الذي يتحرك على سكة ، تحـت ضـوء مصـباح باهت ، وقع نظر «شــنجي» على حصران القش الممتدة امامه بلونها البني المائل الى الحمرة وذلك نتيجة لقدمها وطول استعمالها .

كان اخوه منبطحاً على الحصير يقرأ في كتاب يحمله بيديه تحت ضـوء المصباح ، أما امه فقد كانت منهمكة بعملها في الفرن ، ومن دون ان يخلع جزمته المطاطية استلقى «شنجي» ووجهه الى الاعلى ، كان القسـم الاعلى من جســمه ممتداً فوق حصران القش تلك بينما بقيت اقدامه مستقرة في مدخل الباب الصغير ، وحينذاك قالت امه : اهلاً بك في البيت يا بني .

اراد «شـنجي» ان يعـطي الغـلاف الذي يحتوي على النقـود الى أمه دون ان يقـول شـيئاً ، ولكنهـا كأم ، كانت تدرك أو تتظاهر على الدوام بانها قد نسيت بان ذلك اليوم هو اليوم العـاشر ، يوم الاجـور ، وكانت تعرف مقـدار رغبة ابنهـا في ان يراها وقد اسـتولى عليه العجــب والاستغراب في مثل ذلك اليوم

وضـع «شـنجي» يده في الجيب الداخلي لسـترته الفضـفاضة غير ان النقـود لم تكن هناك . فتش الجيب في الجهـة الاخــرى كما فتش جيوب

سرواله وحتى انه مرَّ بيديه الى اسفل سرواله . لا شك بانه قد اسقطها على الشاطيء ومن غير ان يتفوه بكلمة انصرف خارج البيت راكضاً .

بعد فترة من مغادرة «شنجي» ، وصل شخص يصيح خارج البيت فخرجت الأم الى مدخل الدار لتجد فتاة شابة تقف في الظلام الذي خيم على الزقاق .

هل «شنجي ـ سان» في البيت ؟

جاء الى البيت منذ وقت قصير ثم خرج ثانية .

لقد وجدت هذا الشيء على الشاطيء ، ونظراً الى ان اسم «شنجي ـ سان» مكتوب عليه فلابد وانه ....

حسن ، هذا لطف منك حقاً ، لابد ان «شنجي» قد ذهب للبحث عنه .

وهل أذهب لاخبره بذلك . ؟

اوه او تفعلين ذلك ؟ أنا في غاية الامتنان ، غاية الامتنان .

التفع الشاطيء في ذلك الوقت بغلالة من ظلام كثيف ، غير ان مصابيح «توشي ـ جيما» و «سوكاشي ـ جيما» الباهتة كانت وحدها التي تومض عبر البحر .

لمحت «هاتسو» ظل «شنجي» غير انه اختفى في تلك اللحظة خلف أحد الزوارق . انحنى يبحث في الرمل ، ويبدو واضحاً انه لم يشاهد «هاتسو» . وقفت امامه وجهاً لوجه في ظل احد الزوارق فرأته واجماً يتميز غضباً . اخبرته عند ذلك بما حدث وبانها انما جاءت الى الشاطيء من أجل ان تخبره بان نقوده لم يحدث لها شيء وهي الان عند امه ، ثم واصلت حديثها لتقول له بانها اضطرت لسؤال شخصين او ثلاثة حتى عرفت الطريق الى بيته ، هذا بعد ان ارضت فضولهم باستمرار في عرض الغلاف الذي وجدته على الشاطيء والذي كان اسمه مكتوباً عليه .

اطلق الشاب حسرة تدل على الفرح والاطمئنان ثم ابتسم فاشرق بياض اسنانه بجمال اخاذ خلال الظلام . سارت الفتاة نحوه مسرعة فأخذ

نهداها بالارتفاع والانخفاض مما جعلاه يتذكر ارتفاع وانخفـاض الامواج البحرية الثرية بزرقتها الغـامقة في عرض البحـر . لقـد تبددت الان كل عذابات ومتاعب اليوم الذي مر به فانتعشت روحه من الداخل .

سمعت بانك تنوين الزواج من «ياسو كاواموتو» ، فهل هذا صحيح ؟

اندفعت الكلمات من فم «شنجي» بسرعة ، غير ان الفتاة انفجـرت ضاحكة ثم ازداد ضحكها تدريجياً حتى الاختناق .

حاول «شنجي» ايقاف ذلك ، لكنه لم يعرف السـبيل الى ذلك . ان كل ما فعله الشاب هو انه وضع يده على كتفها . كانت لمسته خفيفـة ، ومع ذلك فقد وقعت «هاتسو» على الارض وهي مستمرة في الضحك .

ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

جلس «شنجي» القرفصاء الى جانبها على الرمل ثم هز كتفيهـا حـتى هدأت ضحكتها في آخر الأمر فالقت على وجه الشاب نظرة جادة ، وبعد ذلك راحت تضحك مرة اخرى .

نظر «شنجي» بوجه بارز الملامح الى وجهها وسألها :

هل الخبر صحيح ؟

سخف ، مجرد كذبة كبيرة .

ولكن هذا ما يرددوه الناس بالفعل .

كذبة كبيرة .

جلس الاثنان وقد تعـاقدت ركبتاهما في ظـل أحـد الزوارق فقـالت «««هاتسو» :

أوه ـ انني اشعر بالألم ، ضحكت كثيراً لدرجة الالم ـ هنا بالضبط .

اشارت الفتاة. وقد وضعت يدها على نهدها . كانت الخـطوط الباهتة لملابس العمل تتحرك عبر نهديها ، ثم استأنفت القول :

ـ هذا هو موضع الألم .

ـ وكيف تشعرين الان ؟

وضع «شنجي» من غير وعي منه يده على الموضع الذي اشارت اليه ، فقالت الفتاة :

ـ انك عندما تضغط هناك اشعر بقليل من الراحة .

وفجأة شعر «شنجي» بان صدره هو الاخر أخذ يتحرك بسرعة ، ثم اقترب خداهما لدرجة الملامسة حتى بدا وكأن بامكانهما شم رائحة احدهما الاخر ـ رائحة ماء مشبع بالملح ـ واكثر من ذلك فقد شعرا بدفء ينبعث من كليهما ثم تلامست شفتاهما المليئتان بالشقوق فتذوقا شيئاً من الملح العالق عليهما وحينئذ قال «شنجي» في سره :« ان لمس شفتيها يشبه لمس الطحالب البحرية الناعمة» .

مرت تلك اللحظة بسرعة فابتعد الشاب ثم نهض يدفعه شعور بالذنب في أول تجربة من هذا القبيل تمر في حياته .

غداً سوف آخذ بعض السمك الى مسكن موظف المنار عند عودتي من الصيد اليومي . استعاد «شنجي» ، وهو ما يزال ينظر نحو البحر ، وقاره واخلاقياته الان فامكنه التصريح بذلك بصوت رجولي وعند ذاك اجابت الفتاة بطريقة مماثلة وهي تنظر نحو البحر :

وسوف أذهب أنا الاخرى الى هناك بعد الظهر .

افترق الاثنان فسارا في اتجاهين معاكسين لصف الزوارق الراسية على الشاطيء .

انطلق «شنجي» نحو بيته غير انه لاحظ بان الفتاة لم تظهر من خلف زوارق الصيد بل رأى فيما بعد مباشرة مسقط ظلها خلف أخر زورق فادرك بانها انما كانت تختبيء هناك ، فصاح :

ان ظل جسمك يفضح اللعبة يا «هاتسو» .

وفجأة انطلق جسم فتاة تلبس ملابس عمل ذات خطوط عريضة كأنها حيوان بري مرعوب وراحت تعدو باقصى سرعتها عبر الشاطي لا تلوي على شيء .

- الفصـــل الســـادس -

عندما عاد «شـنجي» من الصـيد في اليوم التالي ، انطلق نحـو المنار يحمل سمكتين من نوع سمك عقارب البحر طول كل واحـدة منهما حـوالي الخمس او الست بوصـات علقتا من خياشـيمهما بحبل رفيع من القش . كان قد صعد الى خلف مقام «ياشيرو» المقـدس عندما تذكر بانه لم يرتل صـلاة الشكر الى الاله الذي اسـبغ بركاته عليه بمثل تلك السرعة ، وهكذا فقـد عاد الى الجـزء الامامي من ذلك المقـام وادى الصـلاة بكل ورع وخشوع .

بعد اداء الصـلاة راح يحـدق في خليج «ايسـه» الذي كان يسـطع في اشـعة القمر في ذلك الوقت ، ثم تنفس بعمق ، أما فوق الافق فقـد طافت غيوم كأنها الهة قديمة . شـعر الشـاب بانسـجام تام ما بين روحـه وبين تلك الطبيعة الثرة التي احاطت به . اسـتنشق الهـواء بعمق فبدا له كأن جزءاً من ذلك الشيء الذي يشكل الطبيعة ويسن قانون وجـودها قد نفذ الى اعماقه أو قل الى جوهر وجوده . سمع هدير الامواج وهي تضرب الشـاطيء بعنف فشـعر كأن اصـطخاب دمه الفـتي وتموره كان في غاية التساوق والانسجام مع حركات المد العنيفة في ذلك البحر

كان ذلك شيئاً لا يتطرق اليه الشك لأن الطبيعة ارضت فضوله وحققت له كل ما يحتاج اليه لدرجة لم يعد فيها بحاجة الى اي موسيقى في حياته اليومية على وجه التحديد .

رفع «شنجي» تلكما السمكتين قريباً من عينيه ثم اخرج لسانه سخرية من منظر وجهيهما البشعين المليئين بالاشواك . ما زالت السمكتان تتنفسان بالتأكيد ، لكنهما لم تقوما بأقل حركة ، وعلى هذا فقد لكز الشاب واحدة منهما في فكها وراح يراقبها وهي تتخبط في الهواء .

هكذا كان الشاب يتسكع في الطريق غير راغب في تعجيل اللقاء المرتقب بينه وبين الفتاة .

لقد سمح كل من موظف المنار وزوجته في أن تحتل الزائرة الجديدة هاتسو - قلبيهما العامرين بدفء الحب . وفي اللحظة التي كانت فيها الفتاة تلوذ بالصمت لدرجة يفكران فيها بان ذلك ربما يعزى لعدم جاذبيتها الكبيرة ، تنفجر «هاتسو» بضحكة انثوية محببة تبدد تلك الاوهام . واذا حدث مرة ان بدت الفتاة هائمة فيما بين متاهات غيوم التفكير فذلك يعزى الى انها فتاة حذرة تحسب لمشاعر الاخرين الف حساب . والدليل على ذلك هي ان «هاتسو» ، بعد ان تنتهي من محاضرة القواعد العامة في السلوك والتشريفات عند زوجة موظف المنار ، تبدأ على التو في رفع الاكواب التي تناولوا فيها الشاي بحركة تدل على اهتمام كبير يختلف عما لدى الفتيات الاخريات ، وبعد قيامها برفع تلك الاكواب تنصرف الى غسل الصحون الاخرى المتسخة التي ربما وجدتها مبعثرة داخل المطبخ .

كان للزوجين الموجودين في المنار بنت واحدة تدرس في احدى جامعات طوكيو ، وقد اعتادت هذه الفتاة على المجيء الى البيت خلال العطلة الرسمية ، أما في اثناء غيابها فقد كان الزوجان يعتبران فتيات القرية اللواتي غالباً ما كن يحضرن الى البيت ، مثل بناتهما تماماً . كانا يهتمان كثيراً بمستقبل هؤلاء البنات ، وهما عندما يوافي الحظ واحدة

منهن ، يبتهجان كما لو كانت تلك البنت هي ابنتهما .

وموظف المنار الذي قضى في تلك الخدمة ثلاثين سنة ، كان مصدر رعب في قلوب اطفال القرية بسبب نظراته الصارمة القاسية وصوته الجهوري الذي كان يعصف باولئك الصغار الاوغاد الذين اعتادوا على اختلاس النظر في داخل المنار شوقاً لمعرفة ما يجري فيه ، لكنه في حقيقة الامر ، كان انساناً طيب القلب رقيقاً . لقد ابعدت العزلة التي يعيشها كل شعور يدفعه للتفكير بان دوافع الناس لابد ان تكون سيئة . في المنار ، ليس هناك من شيء اكثر صرفاً للنقود من الصرف على استقبال الضيوف ، ولاشك بانه لا يمكن ان يذهب انسان كل تلك المسافة الطويلة من اجل زيارة منار منعزل مدفوعاً بمشاعر حقد دفينة ، ومن المؤكد بأن مثل هذه المشاعر سوف تختفي على الاقل ، من قلبه عندما يقابل بذلك الكرم بلا حدود . ولعل الأمر هو في واقع الحال ، كما كان يردد موظف المنار على الدوام «لا يمكن أن تنقل النوايا السيئة الى المدى الذي تنقل اليه النوايا الحسنة» .

والسيدة زوجته هي الاخرى كانت انسانة طيبة وذات اطلاع واسع . وهي لم تكن في وقت من الاوقات مدرسة في احدى مدارس البنات في الريف حسب ، بل ان وجودها لسنوات طويلة في المنار جعلها اكثر حباً للقراءة لدرجة اصبحت الان ذات معرفة موسوعية بكل شيء تقريباً . انها اذا كانت تعرف بان دار «اوبرا لاسكالا» هي في مدينة «ميلان» الايطالية مثلاً فهي تعرف كذلك بان ممثلة السينما في طوكيو كذا ... وكذا قد التوى كاحلها الايمن في الفترة الاخيرة في مكان كذا ... وكذا . وكثيراً ما كانت تلك السيدة تدخل في نقاش حاد مع زوجها في احدى زوايا البيت حول بعض الامور ، ومن ثم ، لاجل مصالحته ، تضع كل طاقتها الروحية في القيام برتق جواربه مثلاً أو تهيئة طعام العشاء له . اما عندما يزورهما ضيوف فلا بد انها سوف تتحدث

اليهم حديثاً متواصلاً لا انقطاع له . اعتاد القرويون الاستماع اليها منهولين بلباقتها وحسن حديثها ، حتى ان البعض منهم كانوا يقارنونها على نحو سلبي بنساء القرية المعروفات بالصمت ، كما كانوا يشعرون بنوع من العطف المتسم بفضول لا مبرر له نحو موظف المنار نفسه ، ومع ذلك فقد كانوا ينظرون الى موظف المنار باحترام كبير نتيجة لسعة المعرفة التي تتصف بها زوجته .

الجزء الذي خصص مسكناً لموظف المنار كان بيتاً من طابق واحد يحتوي على ثلاث غرف وقد انتظم فيه كل مرفق من مرافقه وحافظ على طلائه كالمنار تماماً . فعلى الجدار علق التقويم الذي وزعته احدى شركات السفن ، وحتى رماد النار الموجود في ارضية الموقد في غرفة الجلوس ، تكوم بانتظام على الدوام ، حول جمرات الفحم ، وكان مكتب ابنتهما ، اثناء غيابها ، ينتصب انيقاً في احدى زوايا قاعة الاستقبال وقد عكس سطحه الصقيل زجاج المقلمة الازرق اضافة الى الدمية الفرنسية الحلوة التي زينته .

يوجد خلف البيت حمام يحتوي على مرجل كبير يسخن بالغاز الذي يتولد من بقايا الزيت المستعمل لتزييت المولد الكهربائي لمصباح المنار . وعلى النقيض مما يوجد في بيوت الصيادين الفقيرة ، كانت حتى منشفة اليد النيلية المغسولة حديثاً والتي علقت الى جانب الحوض الموجود في دورة المياه ، ذات بريق على الدوام ونظيفة .

اعتاد موظف المنار ان يقضي الجزء الاكبر من يومه الى جانب الموقد يدخن سيجاير رخيصة من نوع «نيو لايف» يقطعها اقتصاداً الى اطوال قصيرة ليضعها في مبسم طويل رفيع من البرونز .

يكون المنار في خلال النهار هامداً لا حياة فيه ، وقد اعتاد موظف المنار الاحتفاظ بواحد من المساعدين في برج المراقبة من أجل رفع التقارير عن تحركات السفن .

لقد قامت «هاتسو» في مساء ذلك اليوم ، على الرغم من عدم وجود الدروس ، بزيارة المنار وقد حملت معها هدية تتناقلها بيوت القرية فيما بينها ـ خيار البحر ـ ملفوفاً بقطعة من صحيفة . كانت تلبس الى اسفل الثوب الذي خيط من قماش السرج الازرق ، جواريب طويلة بلون البشرة ، وفوق تلك الجواريب النسائية كانت تلبس جواريب رجالية حمراً ، أما بلوزتها فهي البلوزة القرمزية المعتادة .

لم تكد «هاتسو» ان تدخل الدار حتى انبرت السيدة في تقديم ارشاداتها دون ان يبدو على تلك الكلمات اي نوع من المباهاة والفخر :
عندما تلبسين ثوباً أزرق يا «هاتسو» لابد ان تلبسي معه جواريب ذات لون اسود ، انني على يقين بانك تحتفظين ببعضها لانك كنت تلبسينها في الايام الماضية .
حسن يا سيدتي .

قالت «هاتسو» ذلك وقد ظهر الخجل على وجهها ثم جلست الى جوار الموقد .

اعتادت الفتيات ، في دروس «الاتكيت» والتدبير المنزلي ، الجلوس والاصغاء بامعان كبير ، بينما تأخذ السيدة في الحديث بصوت ذي نبرة تعليمية ، غير انها الان ، وهي تجلس الى جانب الموقد مع «هاتسو» بدأت معها حديثاً انسيابياً بسيطاً . وبما ان الضيف هو فتاة شابة فقد تحدثت السيدة في باديء الأمر حديثاً عاماً عن الحب ، وفي الاخير انعطفت لتطرح عليها سؤالاً مباشراً مثل :

هل هناك شخص معين تشعرين بميل نحوه ؟

في بعض الاحيان ، عندما كان موظف المنار يلاحظ تلك الفتاة وهي تمرح بصخب وثرثرة ، كانت تحدوه الرغبة في ان يطرح ، على مسؤوليته الخاصة ، مثل هذا السؤال الذي لا يخلو من ضيق واحراج .

وحينما تأخر الوقت سألوا «هاتسو» مرات عديدة فيما اذا لم يتعين

عليها الانصراف الى بيتها لتناول العشاء او اذا لم يكن ابوها ينتظر عودتها بقلق ، أما جوابها على ذلك السؤال فقد كان في أخر الأمر هو انها اقترحت تهيئة طعام العشاء لهما .

جلست «هاتسو» حتى هذه اللحظة بكل بساطة وقد ارتسم الحياء على وجهها مطرقة برأسها الى الاسفل حتى انها لم تلمس ما قدم من وجبة طعام خفيفة وشراب ، لكنها عندما دخلت المطبخ ، استعادت كل معنوياتها بسرعة ، فهي عندما كانت تقوم بتقطيع الخيار البحري الى قطع صغيرة ، اخذت تردد مع نفسها اغنية تقليدية يغنيها اهل «ايسبه» جماعياً في تلك الجزيرة اثناء الرقص في «مهرجان الفوانيس» ، لقد تعلمت تلك الاغنية من عمتها قبل يوم واحد :

صناديق النفائس العالية ، الصناديق الطويلة المتنقلة ـ
وبما ان صداقك كبير يا بنيتي ،
يجب ان لا تفكري بالعودة الى هنا ابداً ،
ولكن ، أوه ، يا أماه ، انك تلحفين في السؤال كثيراً ،
عندما يكون الشرق ملبداً بالغيوم ، يقولون :
بأن الريح سوف تهب عاصفة ،
وعندما يكون الغرب ملبداً بها ، يقولون :
بأن المطر سوف يتساقط غزيراً ،
وعندما تتغير الريح الهادئة ـ
هيا !
فسوف تلجأ الى الميناء حتى اكبر السفن حجماً

وعند ذاك قالت السيدة :

أوه ، وهل تعلمت تلك الاغنية يا «هاتسو ـ سان» ؟ ها نحن وقد مرت علينا ثلاث سنوات في هذا المكان ، ومع ذلك فلم احفظها كلها حتى

فاجابتها «هاتسو» :
حسن ، انها تقريباً نفس الاغنية التي اعتدنا على غنائها في «اويزاكي» .

وفي ذلك الوقت سمع في الخارج وقع اقدام وشخص كان يصيح من وسط الظلام :

طاب مساؤكم .

فاجابت السيدة وهي تطل من باب المطبخ :

حسن ، حسن ، سمك رائع مرة اخرى ، شكراً جزيلاً - أبتاه ! لقد جلب لنا «كوبو - سان» مقداراً أخر من السمك .

أما موظف المنار فقد صاح وهو يجلس قريباً من الموقد :

شكراً لك ثانية ، شكراً لك ثانية ، ادخل يا «شنجي» ادخل .

وخلال الفوضى التي علت جراء كلمات الترحيب والشكر ، تبادل «شنجي» النظرات مع «هاتسو» ثم ابتسم الاثنان ، غير ان السيدة حدث أن استدارت فجأة فتلاشت تلك الابتسامة :

اوه - يبدو انكما تعرفان احدكما الاخر قبل الان ، أليس كذلك ؟

هـ .. م ..م ،

ان هذه القرية صغيرة ، ومع ذلك ، فأن هذا الشيء يجعل الامور فيها احسن من غيرها ، ،

حسن ارجوك ان تدخل يا «شنجي - بسان» ، آه ، بالمناسبة ، لقد تسلمنا رسالة من «شيكو» التي تدرس في طوكيو وقد سألت عن «شنجي - سان» على وجه التخصيص . انني لا اظن بان هناك اي شك فيمن تحب «شيكو» من الناس ، أليس هذا صحيحاً ؟ انها سوف تأتي الى هنا حالاً لتقضي عطلتها الربيعية ، وعلى هذا يجب أن تأتي يا «شنجي» لزيارتها .

كان «شنجي» قبل دقيقة على وشك ان يدخل الدار ، لكن هذه الكلمات بدت وكأنها قد لطمته على انفه لتبعده عما كان ينوي أن يفعل . أما «هاتسو» فقد استدارت نحو حوض غسيل الصحون ولم تلتفت ابداً في

وقت تراجع فيه الشاب الى عمق الظلام الذي خيم في الخارج . لقد نادوا عليه مرات عديدة ، لكنه لم يأت . انحنى من مكانه القصي تحية لهم ثم واصل سيره لا يلوي على شيء وعند ذاك ضحكت السيدة ثم قالت :

هذا هو «شنجي ـ سان» ، شاب خجول حقاً ، أليس كذلك يا ابتاه ؟

تردد رجع صدى ضحكتها وحدها في جنبات البيت في وقت لم يبتسم فيه اي من موظف المنار او «هاتسو» .

انتظر «شنجي» عودة الفتاة في الطريق الذي ينعطف حول الموضع المسمى «منحدر المرأة» حيث كان الغسق ، في تلك النقطة من الطريق ، قد احاط بالمنار فلم يسمح إلا لظهور أخر بصيص من الضياء الفاقع الذي هو كل ما تبقى من غروب الشمس .

وعلى الرغم من العتمة الشديدة لظلال اشجار الصنوبر ، فقد اكتسى البحر الى الاسفل منها بأخر خيوط ذلك الغسق . وطوال هذا اليوم الذي كانت فيه الريح تهب من جهة البحر وحتى هذه اللحظة التي بدأ الليل فيها يخيم على المنطقة بأكملها لم يشعر المرء ببرودة تلك الريح على جسمه .

وعندما استدار «شنجي» حول منطقة «منحدر المرأة» كانت حتى تلك الريح الضعيفة قد هدأت تماماً ولم يبق في ذلك الظلام من شيء سوى خيوط ساكنة من شعاع الشمس تنساب الى الاسفل من خلل الغيوم السابحة في ألسماء .

واثناء ما كان «شنجي» ينظر الى الاسفل شاهد رعن الجبل الصغير الذي امتد بارزاً في داخل البحر من الطرف البعيد لميناء «اوتا ـ جيما» ، ومن وقت لاخر كانت قمة ذلك الرعن تهز اكتافها الصخرية استخفافاً بكل شيء فتمزق الامواج المزبدة ارباً وتحملها على الابتعاد الواحدة عن

الاخرى . كانت المنطقة المجاورة لذلك الرعن على وجه التخصيص متألقة وقد انتصبت فوق قمة ذلك الرعن شجرة صنوبر حمراء وحيدة استحم جذعها في شعاع الغسق الاحمر فبدت شديدة الوضوح لعيني الشاب الحادتين . وفجأة فقد الجذع أخر بصيص من ذلك الضياء الباهت واستحالت الغيوم في السماء الى لون قاتم واخذت النجوم تتلألأ فوق جبل «هيكاشي» .

وضع «شنجي» اذنه على صخرة ناتئة في الطريق فسمع وقع خطوات قصيرة سريعة تقترب على امتداد الطريق المرصوف بقطع الصخر ، ذلك الطريق الذي يهبط من اعلى الدرجات الصخرية القريبة من مدخل المسكن المجاور للمنار .

قرر «شنجي» ان يختبيء في هذا الموضع من الطريق ليفاجيء «هاتسو» ويثير الخوف في قلبها عند اقترابها منه على سبيل المزاح ، غير ان اقتراب تلك الخطوات بوقعها الجميل جعله يخجل من فكرة اخافتها ، فهو ، بدلاً من ذلك ، جعلها تعرف عن عمد المكان الذي اختبأ فيه بواسطة صفير من بين شفتيه يساير لحن بعض مقاطع اغنية الكورس لجزيرة «ايسه» ، تلك الاغنية التي كانت «هاتسو» ترددها :

عندما يكون الشرق ملبداً بالغيوم ، يقولون :
بأن الريح سوف تهب عاصفة ،
وعندما يكون الغرب ملبداً بها ، يقولون ،
بأن المطر سوف يتساقط غزيراً ،
وحتى اكبر السفن حجماً ....

استدارت «هاتسو» حول الطريق الذي يدعى بـ «منحدر المرأة» ولم تتوقف خطواتها . سارت بمحاذاة المنحدر كما لو انها كانت تجهل وجود «شنجي» هناك فصاح الشاب :

هاي ! هاي !

ومع ذلك فلم تلتفت «هاتسو» مما حدا بـ «شنجي» ان لا يفعل شيئاً

سوى السير خلفها بكل هدوء . اصبح الطريق ، وهما يدخلان اجمة الصنوبر المظلمة ، كثير الانحدار ، وكانت الفتاة تحمل في يدها مصباحاً يساعدها على انارة الطريق ، غير ان خطواتها اخذت بالتباطؤ بعد ذلك فتقدم «شنجي» أمامها دون ان تدرك جلية الأمر .

وفجأة اطلقت الفتاة صرخة قصيرة فارتفع ضوء المصباح من يدها محوماً في الهواء إبتداءً من اسفل اشجار الصنوبر حتى اعلى غصن فيها كطير افزع على حين غرة .

التفت الشاب بسرعة فوضع ذراعيه حول جسد الفتاة التي سقطت عل الارض في ارباك وفوضى فانهضها على قدميها .

بعد ان اعانها على النهوض ، تذكر «شنجي» بشيء من الخجل كيف انه كان مستلقياً على الارض ينتظر وصولها الى ذلك المكان منذ فترة قصيرة وكيف اخذ يصفر وسار خلفها بعد ذلك وعلى الرغم من ان الظروف وحدها هي التي جعلت كل ما قام به «شنجي» يجري بسرعة ، الا ان ذلك بدا له وكأنه علامة من علامات الشر المشؤومة . ومن غير ان يقوم باي حركة تعيد صور ما حدث بينهما من عناق وملاطفة في اليوم السابق ، مسح الشاب بيده الاوساخ من على ملابسها برقة وهدوء كما لو كان اخاها الكبير . اكثر التراب الذي علق على ملابسها كان من الرمل الجاف الذي ازيل بسرعة كما ان «هاتسو» لم تصب ، لحسن الحظ ، بأي اذى ظاهر . وقفت كالطفل لا تتحرك وبعد ذلك اراحت يدها على كتف «شنجي» القوية اثناء مسح التراب عن ملابسها . نظرت حواليها بحثاً عن المصباح الذي سقط من يدها واستقر خلفها وهو لا يزال يرسل اشعته الخابية على شكل مروحة يدوية فظهرت للعيان ارض غطيت باوراق الصنوبر المنشارية . تركز ضوء الغسق الثقيل على هذا الموضع من الجزيرة بينما اكتست بقية المنطقة بضوء ضعيف .

وبعد قليل قالت «هاتسو» بصوت ضاحك بهيج :

ارجو ان تبحث عن المكان الذي استقر فيه المصباح . لا بد انني قد رميت به الى الخلف عندما وقعت على الارض .

ترى ، ما الذي جعلك في هذا الوضع الجنوني ؟

قال «شنجي» ذلك وهو ينظر متفرساً في وجهها .

ذلك الحديث الذي دار عنك وعن «شيكو ـ سان» .

هراء !

اذن لا شيء هناك على الاطلاق .

على الاطلاق .

سار الاثنان جنباً الى جنب وقد حمل «شنجي» بيده المصباح يرشد «هاتسو» في ذلك الطريق الصعب كما لو كان رباناً في سفينة .

لم يكن هناك ما يتحدثان به على وجه التحديد ، ولذا فقد بدأ «شنجي» الذي اعتاد على الصمت حديثاً متعثراً لمجرد ان يكسر حاجز ذلك الصمت ليس غير .

وبالنسبة إلي ، فانني ارغب ان أشتري يوماً سفينة شحن خاصة بالسواحل بالنقود التي حصلت عليها من عملي وادخرتها ومن ثم اتجه كلياً الى اعمال الشحن مع اخي : نحمل فيها قطع الاخشاب المنشورة من «كيشو» والفحم من «كيوشو» . واسعى بعد ذلك في ان إجعل امي تعيش بسعادة بقية عمرها ، وعندما ابلغ سن الشيخوخة سوف اعود الى احضان هذه الجزيرة لأخلد الى الراحة ايضاً ... لا يمكن ان انسى هذه الجزيرة مهما كان المكان الذي ابحر فيه .... ان هذه الجزيرة تحتوي على اكثر المناظر جمالاً في طول اليابان وعرضها كما ان كل فرد فيها على يقين من هذا الامر ـ على هذا النحو سوف ابذل كل ما استطيع لجعل الحياة في جزيرتنا اكثر هدوءاً وأمناً مما هي عليه في أي مكان أخر ... اننا اذا لم نفعل ذلك فان كل مواطن فيها سوف ينساها ويبعد عن ذهنه فكرة العودة اليها . ومهما تغيرت الظروف فلابد ان تتغير الصور البائسة والاساليب الرديئة كلها قبل ان تتمكن من الرسوخ في جزيرتنا هذه ....

البحر وحده هو الذي سيجلب الخير الذي تحتاجه الجزيرة ..... وسوف يحتفظ هذا البحر بالاشياء الصالحة التي سبق وان كانت موجودة هنا ... ولعل هذا هو السبب في عدم وجود اللصوص في الجزيرة كلها - لا شيء فيها سوى اهلها المتصفين بالشجاعة والرجولة - اولئك الناس الذين يحتفظون على الدوام بارادة حقيقية للعمل والاستعداد لكل طارىء - الناس الذين لا ينافقون في حبهم - الطاهرون في كل ما يحيط بهم وفي كل مكان يحلون فيه .....» وبالطبع ، لم يكن الشاب واضحاً بما فيه الكفاية ، ثم ان اسلوبه في الحديث كان مضطرباً وغير مترابط احياناً ، لكن هذا هو تقريباً ما اخبر به «هاتسو» في تلك اللحظة من طلاقة اللسان النادرة .

لم تحاول «هاتسو» مقاطعته ، بل كانت تومي برأسها اشارة على موافقتها في كل ما كان يقول . لم يبد عليها الضجر ابداً فقد امتلأ وجهها بتعبير يدل على التعاطف الحقيقي والثقة اللتين ملأتا قلب «شنجي» بفيض من البهجة والفرح .

لم يرغب «شنجي» في ان يجعلها تظن بانه كان عابثاً يتلاعب بالالفاظ ، فهو بعد الانتهاء من حديثه الجاد هذا ، حذف عن قصد منه الأمل الهام الاخير الذي تضمنته صلاته الى إله البحر قبل ليالٍ قليلة .

لم يكن هناك ما يعيق سيرهما فقد راح الطريق يعمل على اخفائهما واضفاء ستار من التخفي عليهما بواسطة الظلال الكثيفة للاشجار .

ولم يعد «شنجي» في هذا الوقت يمسك حتى بيد «هاتسو» او يحلم على الاقل بتقبيلها مرة اخرى . ان ما حدث في الليلة الماضية على الشاطىء الذي غشيه الظلام بدا وكأنه قد حدث على غير ارادة منهما ، شيء لا يمكن تصوره حتى في الحلم . لقد تم ذلك بفعل قوة خارجة عن النفس وهو بالتالي شيء يمثل سراً غامضاً بالنسبة الى كليهما .

اما في هذه اللحظات فلم يقوما بشيء سوى الاتفاق على موعد للقاء

ثانية في برج المراقبة في عصر يوم لا تخرج فيه القوارب للصيد .

عندما ظهرا من خلف مقام «يا شيرو» المقدس ، اطلقت «هاتسو» لهاثاً يدل على الاستحسان وتوقفت عن السير فتوقف «شنجي» هو الاخر .

وهناك ، على حين غرة ، توهجت امامهما القرية باضواء ساطعة وكأنها تفتح بذلك أحد المهرجانات الصامتة التي تتسم بالابهة والفخامة . لقد اضيئت كل نافذة من نوافذ القرية بمصباح لا سبيل الى حجب ضوئه كما لا يمكن تشبيهه بضوء المصباح النفطي المليء بالدخان .

بدت لهما القرية وكأنها قد اعيدت الى الحياة من جديد تطفو فوق ليل حالك ... لقد تم اصلاح المولد الكهربائي بعد ان ظل عاطلاً عن العمل فترة طويلة .

اتخذا في مشارف القرية طريقين مختلفين . نزلت «هاتسو» بمفردها اسفل الدرجات الصخرية واتجهت نحو القرية التي تلألأت ، بعد فترة طويلة من الوقت ، بمصابيح الشوارع الزاهية .

- الفصـــل الســابع -

حل اليوم الذي قام فيه الأخ الصغير «هيروشي» برحلته المدرسـية . وبموجب ذلك تقرر ان يتجول الطلاب في ارجاء «كيوتو - او سـاكا» لفترة ستة أيام ، يقضون خمس ليالٍ فيها بعيداً عن بيوتهم . هذه هي الطريقـة التي اعتاد بها شباب «اوتا - جيما» ممن لم يسـبق لهـم مغـادرة الجـزيرة ، مشاهدة مظاهر العـالم الواسـع لأول مرة ليتعلموا ، دفعـة واحـدة ، كل مايعنيهـم في الحياة . وبنفس هذا الاسـلوب ، كان الطلاب من الاجيال السابقة قد عبروا البحـر الى اليابسـة بواسـطة الزوارق ونظروا ، لاول مرة ، بعيون تدور محـاجرها عجباً ودهشـة الى تلك الحـافلة التي تسـحبها الخيول وقد علا صراخهم :

- انظروا انظروا ، كلب ضخم يسحب عربة خاصة .

استق اطفال القـرية معلوماتهـم فيما يخص العـالم الخـارجي من خلل الصـور وصـفحات الكتب اكثر مما كانوا يسـتقونها عن طـريق الحياة الواقعية ، وكم كان صـعباً عليهـم ادراك تلك الاشـياء عن طـريق ملكة الخيال القوية - اشـياء من قبيل عربات الترام والبنايات الشـاهقة ودور السـينما وانفـاق الطرق . ومع ذلك ، فهـم ، عندما يرون الاشــياء على

حقيقتها تتبدد أمام عيونهم الدهشة فيدركون انذاك كم كان عبثاً اطلاق العنان لخيالهم فيما يخصها ، لانهم ، وحتى نهاية العمر الذي ينقضي في تلك الجزيرة ، لم يعد بامكانهم تصور اشياء مثل عربات الترام التي تبعث الصخب والرنين أثناء رواحها وغدوها عبر شوارع المدينة .

تزدهر الحياة ، قبل كل سفرة مدرسية ، في مقام «شيرو» المقدس ، حيث يتمثل ذلك في كثرة الطلاسم والتعاويذ التي تجلب الخير وتطرد الشر . ان تعريض اجساد نساء القرية في حياتهن اليومية الى مخاطر الموت الذي يترصدهن في البحر ، يعتبر نتيجة طبيعية تخضع لمنطق معقول ، أما القيام بالرحلات الى المدن الكبيرة التي لم يحدث ان شاهدنها فهو شيء تشعر الامهات من خلاله بان اولادهن انما يقومون بمغامرات كبيرة لا تخلو من تحد للموت .

اشترت أم «هيروشي» بيضتين بثمن مرتفع وهيأت له وجبة غداء من بيض مقلي كثير الملح ودست في داخل حقيبته بعض قطع الكراميل والفاكهة بمكان لا يمكن ان يجدها بسرعة ويسر .

في ذلك اليوم فقط غادرت المعبرة «كاميكازي ـ مارو» جزيرة «اوتا جيما» في ساعة غير معتادة وهي الواحدة بعد الظهر . وقبل ذلك ، كان ربان ذلك المركب البخاري البطيء الذي تبلغ حمولته أقل من عشرين طناً ، الربان العنيد المتمسك بالتقاليد القديمة ، قد رفض بكراهية أية مخالفة لجدول المواعيد المثبتة .

ولكن ، فيما بعد ، اختلف الأمر عندما حلت السنة التي قام فيها ابنه بالذات بسفرة مدرسية فأدرك منذ ذلك الوقت وحتى الآن ، ما كان الناس يعنون بقولهم من أن الاطفال لابد أن يبذروا نقودهم اذا ما وصل ذلك المركب الى «توبا» مبكراً كثيراً عن موعد مغادرة القطار الذي يقلهم من المحطة ، وهو ، على هذا الاساس ، وافق ولكن على مضض مع ادارات المدارس على ماكانوا يرتأون بخصوص المواعيد الثابتة .

ازدحمت القمرة في المعبرة «كاميكازي ـ مارو» وكذلك سطحها بحشود الطلاب وحقائبهم وحافظات الماء والطعام التي تعلق على الصدور عادة وقد اصاب المعلمين هلع كبير وهم يرون جموع الامهات اللواتي وقفن على الحاجز في الميناء .

جرت العادة في «اوتا ـ جيما» أن يعتمد مركز المعلم ووضعه على مزاج الامهات وميولهن ، فقد سبق واتهم أحد اولئك المعلمين بانتمائه لأحد الاحزاب المحظورة من قبل النسوة فطرد من الجزيرة كلها ، بينما كان الأخر مرضياً عنه على الرغم من فساد اخلاقه ـ فهو ما يزال موجوداً في تلك الجزيرة حتى الان ، وقد نال من الالطاف ماجعله معاوناً للمدير .

الوقت هو الساعات الاولى من عصر يوم ربيعي حقيقي ، وعندما ابحرت المعبرة اخذت كل أم تصرخ باسم ابنها ، أما الاولاد فقد انتظروا وقد ثبتت سيور قبعاتهم الجلدية تحت احناكهم ، وبعد ان تأكد لديهم بأن وجوههم لم تعد تميز من قبل امهاتهم على الشاطيء ، بدأو يتصايحون ويزعقون باصوات عالية ساخرة : ـ وداعاً ايتها الغبيات ـ هاي ! ايتها الوزات العجائز .....الى الجحيم جميعكن ! بدأت المعبرة ، وقد حشرت فيها ملابس الطلاب السود الخاصة كعلب السردين ، في عكس السطوح الصقيلة المعدنية للعلامات الموجودة في قبعات الطلاب وازرار ملابسهم الى الشاطيء إلى ان اصبحت تلك المعبرة على مسافة بعيدة في عرض البحر . عندما عادت الأم الى البيت وجلست على حصير القش كئيبة وساكنة سكون الاموات حتى وهي في النهار ، اخذت في النحيب حيث مر بخاطرها اليوم الذي لابد ان ولديها سوف يتركانها فيه نهائياً في أخر الأمر ليتخذا البحر مورداً لعيشهما ورزقاً .

انزلت المعبرة «كاميكازي ـ مارو» جموع الطلاب على رصيف الميناء المقابل الى «جزيرة اللؤلؤ» في «ميكيموتو» وبعد ان مرت بطبيعة العمل

اليومي الاعتيادي الذي يخضع فيه السفر الى المصادفة فيما بين الأرياف ، تهيأت المعبرة للقيام برحلة العودة الى «أوتا ـ جيما» . وبالنظر الى ان أحد الدلاء قد علق فوق مدخنتها القديمة ، فقد تراقصت اشعاعات الماء المنعكسة عليه وعلى الجانب السفلي لمقدم المعبرة اضافة الى السلال الكبيرة المعلقة اسفل رصيف الميناء الذي أنتصب فوقه مستودع البضائع الرمادي ليطل على البحر وقد رسم على أحد جوانبه رمز كبير ابيض اللون يدل على منطقة «ايسه» .

كانت «شيوكو» ابنة موظف المنار تقف في الطرف البعيد من رصيف الميناء تحمل حقيبة كبيرة في طريقها الى البيت . فتاة منطوية على نفسها ، وتعود الان الى الجزيرة بعد غياب طويل وتأنف حتى من تحية القرويين لها او التحدث معها . ليس في وجه «شيوكو» ويء من المساحيق ، كما لم يكن وجهها واضح القسمات خاصة وهي تبس بدلة بنية غامقة اللون تخلو من النقوش ، وهناك ما يجعل الطريقة التي تآلفت فيها قسمات وجهها الكئيبة ، الوجه الذي لا يخلو من لمحات مرح سريعة عفوية ، تتسم ببعض مظاهر الاغراء . ومع ذلك فأن وجهها الذي تعلوه غلالة من تعبيرات متجهمة عابسة على الدوام اضافة الى ما تتبعه من اساليب عنيدة مشاكسة طوال حياتها ، جعلها تصر هي بالذات على التفكير بانها لا يمكن ان تتصف باي جاذبية تذكر . هذا هو الان اكثر ما يمكن ملاحظته من شيء بغض النظر عما اعتادت ان تتعلمه من الاشياء الرقيقة الحسنة في جامعة طوكيو . ومن الممكن اعتبار طريقتها السوداوية في التفكير ، تلك الطريقة التي كانت تنظر فيها الى وجهها المألوف على انه مجرد وجه بشع لا يثير في نفسها سوى التقزز والكراهية ، فيها من الجرأة في ابداء الرأي حول بشاعتها تماماً كالجرأة التي يمكن أن تبديها فيما اذا كانت لديها القناعة بانها قطعة من الجمال المطلق مثلاً .

أن والد «شيوكو» الطيب قد ساهم هو الآخر بطريقة بعيدة عن الدراية والذكاء في أمر هذا التفكير السوداوي الذي سيطر عليها .

كانت كثيرة الشكوى والتبرم على الدوام ، وبصراحة كبيرة كانت تردد بانها قد ورثت البشاعة عن ابيها لدرجة انها ، وهي في الغرفة المجاورة ، كانت تسمع اباها المعروف بصراحته يتذمر امام ضيوفه قائلاً !

ـ حسن ، لاشك في ان ابنتي الشابة هذه غير جميلة ، وهو في الحقيقة شيء يسبب لي الاسى والحزن . انني شخصياً غير وسيم لدرجة اظن فيها بانني أنا الملوم في كل ذلك ، لكنني ، من الناحية الاخرى ، اعتقد بان هذا هو قدر لابد منه .

ربت أحد الاشخاص على كتف «شيوكو» فالتفتت حواليها . انه «ياسو ـ كاواموتو» رئيس «جمعية الشباب» . وقف الى جوارها يضحك وقد توهجت سترته الجلدية تحت اشعة الشمس القوية .

ـ هوه ، اهلاً بك في بيتك لاشك بانها العطلة الربيعية ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فقد انتهت الامتحانات يوم أمس .

ـ وهكذاعدنا لنرضع من حليب الأم ثانية .

في اليوم السابق كان والد «ياسو» قد ارسل ابنه ليشرف على بعض الاعمال التي تخص التعاونية مع السلطات الادارية في «تسو» حيث قضى ليلته في فندق صغير يديره أحد اقربائه في «توبا» . انه الان على ظهر المعبرة في طريق عودته لاهله . كان يتباهى كثيراً في الظهور أمام هذه الفتاة القادمة من طوكيو على انه محدث لبق يستعمل كلمات ليس فيها ما يشير الى لهجة القرويين في جزيرته . أما «شيوكو» ، فقد كانت تدرك مقدار المرح الرجولي الذي يتصف به هذا الشاب الذي له نفس عمرها . ان خبرته في الناس والحياة لاشك تقول «انني على يقين بان خيال هذه الفتاة يتجه نحوي» .

لقد جعلها شعور كهذا في اسوء ماتكون من مزاج ، واخيرا قالت لنفسها : «هذه هي الحال مرة اخرى» .

كانت «شيوكو » واقعة تحت تأثير وضعها الطبيعي في الريف من جهة ، وتحت تأثير الافلام التي اعتادت مشاهدتها والروايات التي قرأتها في طوكيو من الجهة الاخرى .

كانت على الدوام ترغب في ان ينظر نحوها ، ولو مرة على الاقل ، بعيون تقول ! «احبك» بدلاً من «انك تحبينني» . لقد تأكدت بانها لا يمكن ان تمر بتجربة مثل هذه طوال حياتها كلها .

انطلق فيما بعد صوت حاد خشن من المعبرة «كاميكازي ـ مارو» يقول !

ـ هاي ! اين الاغطية البيض ؟ يجب ان يجلبها احدكم .

وفي الحال جاء أحد الرجال يحمل رزمة كبيرة من اللحف ، مزينة على طريقة الزخرفة العربية ، فوق كتفيه . كانت تلك الشحنة ملقاة على رصيف الميناء نصف محتجبة في ظل مستودع البضائع

قال «ياسو» :

ـ ان المعبرة على وشك الابحار .

ثم اخذ «ياسو» ، وهما يقفزان من الرصيف على سطح تلك المعبرة ، بيد «شيوكو» فساعدها بذلك على الاجتياز . كانت «شيوكو» تفكر بالفارق الكبير مابين يده الصلبة التي تشبه قطعة من الحديد وبين ايدي الرجال في طوكيو ، غير ان خيالها اوحى لها بان ماكانت تتحسسها انما هي يد «شنجي» ـ تلك اليد التي لم يحدث ان صافحتها ابداً .

عند النظر الى الاسفل من خلل الباب الصغير الذي يفضي الى عنبر المسافرين ، بدا ذلك العنبر لعيونهما ، التي تعودت على النظر في ضوء النهار ، وكأنه قطعة من ظلام هامد .

كان من الصعب عليهما التمييز ، من بين المناشف البيض الملفوفة

حول رقاب المسافرين وانعكاس الاضـواء المترجـرجة عن النظارات بين حين وآخر ، بين اجسام اولئك الناس الذين جلسو ا بكسـل وتراخ فوق حصير القش .

ـ لعـل الوقوف في السـطح افضــل من الجلوس في هذا العنبر على الرغم من برودة الجـو . وهكذا التجـأ الاثنان وراء غرفة المركب أتقـاءاً من الريح الباردة ثم جلسا بعـد ذلك على ربطة من حبال ملفـوفة ، لكن مساعد ربان المركب ، وهو شاب نزق ، جاء بعد قليل ليقول :

ـ هاي ! ماذا عن الانتقال بـ «حماريكما» الى مكان آخر ولو دقيقـة واحـدة ؟ قال ذلك وقد شرع ليسـحب من تحتهما لوحـاً خشــبياً مما اضطرهما للجلوس على الباب المستعمل لغلق عنبر المسافرين . وفي اعلى غرفة الدفة حيث كان الطلاء الرخيص المقشـور قد كشـف عن نصــف سطح الخشب الموجود تحته ، دق الربان جرس المعبرة ... معلناً بانهـا قد اتخذت الان طريقها في عرض البحر .

اخذ كل من «ياسو وشيوكو» بعد ان اسـلما جسـديهما الى اهتزازات تلك الماكنة القـديمة ، يحـدقان في ميناء «ثوبا» الذي بدأ بالتراجــع الى الوراء خلفهما . كان «ياسـو» شــديد الرغبة في ان يلمح للفتاة كيف انه قام في الليلة الماضية بتغيير ملابسـه ليخـرج فيشـتري لنفســه قنينة من الخمر ، لكنه قرر بان من الافضل له ان لا يتحدث بشيء كهذا ، فهـو لو كان واحداً من سكان قرية عادية تعيش على الزراعة والصـيد فقـط لاصبحت طريقة تعـامله بذلك الشكل مدعاة للتباهي والفخـر ، أما وأنه واحـد من الذين يعيشـون في «اوتا ـ جيما» التي يسـود الاحتشـام والحياء حياتها ، فلابد والحـالة هذه ان يلوذ بالصـمت المطبق . لقـد ادرك على الرغم من صغر سنه كيف يقوم بدور الرجل المنافق .

راهنت «شيوكو» نفسها سراً على اللحـظة التي سـيحلق فيهـا أحـد طيور النورس في الجـو الى نقـطة تكون اعلى من البرج الفـولاذي ذي

السلك المعدني الغليظ الذي يرتفع الى اعلى الجبل خلف محطة «توبا» ، ان هذه الفتاة ، انطلاقاً من صفة الخجل التي تلازمها ، لم تقم باي نوع من المغامرات في طوكيو ، وهي لهذا كانت تأمل اثناء عودتها الى الجزيرة ان يحدث لها شيء مثير ربما يغير صورة العالم الذي تعيش فيه تماماً .

عندما يكون المركب على مسافة معقولة من ميناء «توبا» ، يبدو من السهل حتى على اقل طيور النورس ارتفاعاً في الجو أن تظهر وكأنها أعلى من ذلك البرج الفولاذي الذي يزداد ارتداداً الى الخلف ، ومع ذلك فقد كان البرج ، حتى هذه اللحظة ، ما يزال عالياً جداً في السماء .

نظرت «شيوكو» بامعان في ساعة معصمها القديمة المثبتة بقطعة جلد حمراء وهي تقول في سرها ، «اذا ارتفع أحد طيور النورس الى اعلى من ذلك البرج في حدود ثلاثين ثانية من الوقت ، فذلك يعني بان شيئاً مدهشاً ينتظرني بكل تأكيد» .

مرت خمس ثوان ..... وفجأة ارتفع في الهواء طائر النورس الذي كان يتعقب المعبرة .

صفق بجناحيه ليرتفع الى أعلى من البرج!

«شيوكو» - وهي تخشى ان يلاحظ الشاب الواقف الى جنبها الابتسامة التي إرتسمت على شفتيها ، كسرت جدار الصمت الذي ران عليهما بالسؤال التالي !

- هل من اخبار جديدة في الجزيرة ؟

كانت المعبرة تبحر محاذاة جزيرة «ساكيت» باتجاه الميناء ، وفي ذلك الوقت اصبحت سيجارة «ياسو» صغيرة لدرجة انها اخذت تحرق شفتيه فسحق عقبها على سطح المركب ثم اجاب !

- لا شيء على وجه التحديد ... أوه ، نعم ، لقد تعطل المولد الكهربائي ولم يتم اصلاحه إلا قبل عشرة أيام فقط . لقد اضطرت القرية انذاك الى استعمال المصابيح النفطية حتى اعيد لها التيار ثانية» .

- نعم ، لقد كتبت أمي عن ذلك .

ـ اوه ـ هل اخــبرتك امك حقــاً ؟حسن ، أما عن الاخبار الاخرى ....

ضيق «ياسو» فتحـتي عينيه بسـبب وهج البحـر الذي غمر بضــوء الربيع السـاطع وبمحـاذاتهم مر الزورق المخصص لملاحقـة التهــريب «هيودوري ـ مارو» على مسافة عشر ياردات متوجهاً نحو «توبا» .

ـ اوه ، لقد نسيت . العم «تيرو» استدعى ابنته للعودة الى البيت . اسمها «هاتسو»» . انها قطعة من جمال حقيقي .

ـ هكذا ؟

مرت على وجه «شيوكو» غمامة وهي تسـمع كلمة «جمال» . ان مجـرد ذكر الكلمة يبدو انتقاداً ضمنياً لملامح وجهها .

ـ انني أثير جداً عند ابنة العم «تيرو ـ مياتا» . هذا هو الواقع . ان اخـي الكبير هوالذي يهـتم بشـؤون عائلتنا ، ولذا فان كل فرد من أهل القرية يقـول بان من المؤكد ان يقـع الاختيار عليّ للزواج من «هاتسـو» ولأكون الابن المتبنىً في عائلتها .

وفجأة لاحـت جـزيرة «سـوكا» الى يمين المركب «كاميكازي ـ مارو» وجزيرة «توشي » الى يسارها ، وبغض النظر عن اعتدال الجـو وهدوئه ، فانه اذا مرت اي سـفينة خـارج نطاق تلكمـا الجـزيرتين فلا بد ان تبعث الامواج السريعة في اخشـاب تلك السـفينة المبحـرة صريراً يخشىٰ عليهـا منه . ومن هذا المكان والى مدى بعيدٍ منه شاهدا كثيراً من طيور الغـاق تطفو في الاغوار الطويلة الضيقة مابين الامواج وعلى مسافة نائية داخـل البحر كما شاهدا صخور «اوكي شالوز» تعلو فوق سطح الماء بوضوح .

عقد «ياسو» حاجبيه وحول بصره عن «اوكي شالوز» ، ذلك الموضع الذي يذكر الانسـان بالاذلال الذي اصـاب «اوتا ـ جيما» إثناء المنازعات القـديمة ، ان حقـوق الصـيد في هذه المياه الضـحلة قد اعيدت الآن الى جزيرة «توشي» .

نهض كل من «ياسو وشيوكو» وهما ينظران باتجاه غرفة دفة المركب المنخفضة في انتظار معالم جزيرة ستظهر في الحال داخل المحيط امامهما .... وكما هي الحال باستمرار ، برزت «اوتا ـ جيما» من اعماق البحر تشبه خوذة غير منتظمة يكتنفها الغموض ، ثم راحت المعبرة تميل فبدت الخوذة وكأنها تميل معها هي الاخرى .

ـ الفصل الثامن ـ

ان يوماً من الراحة يقضيه المرء بعيداً عن متاعب الصيد يبدو أمراً صعباً . واخيراً ، بعد يومين من غياب «هيروشي» في السفرة المدرسية ، ضربت الجزيرة عاصفة هوجاء لدرجة لم تستطع الزوارق فيها من الابحار للصيد ، وبدا كذلك بانه مامن برعم من براعم اشجار الكرز الهزيلة التي بدأت بالتفتح تواً ، امكنه تلافي الهلاك والسقوط .

هبت في اليوم السابق ريح صرصر في غير موسمها طوقت الاشرعة والتصقت بها التصاقاً ثم انتشر في الماء عند مغيب الشمس شعاع غريب . اقتحمت المنطقة فيما بعد موجات الاعماق العريضة فتعالى الزئير عند الشاطيء نتيجة لتلك الامواج القادمة مما اضطر قمل البحر والبعوض للاسراع في تسلق ارض الشاطيء العالية .

وفي الليل هبت ريح عاتية مصحوبة بمطر مدرار شديد فامتلأت السماء والارض باصوات تشبه الزعيق البشري وآلات الناي الحادة .

سمع «شنجي » عويل الريح المدوي وهو مستلق على فراشه القش ، فكان هذا ايذاناً بان زوارق الصيد سوف لاتبحر في ذلك اليوم ، كما ان ذلك اليوم العاصف سيجعل جدل الحبال ولفها عسيراً وسيجعل اصلاح

حبال الاشرعة والصواري امراً في غاية الصعوبة ، اضافة الى انه سيكون من العسير بالنسبة الى «جمعية الشباب» القيام بمشروعها في القضاء على الفئران .

«شنجي» ، وبلا رغبة منه في ايقاظ امه التي اوحىٰ له تنفسها بأنها لاتزال نائمة ، ركن الى هدوء يغلفه تفكير عميق في انتظار تباشير الفجر الرمادية من خلل النافذة بشغف كبير . اهتز البيت بعنف وانبعث من النوافذ صليل لا يخلو من اضطراب ، ثم سقطت صفيحة في مكان ما مصحوبة بضجيج غير قليل .

ان البيوت الكبيرة في «اوتا ـ جيما» اضافة الى البيوت الصغيرة ذات الطابق الواحد مثل بيت «شنجي» ، كانت كلها ذات بناء متشابه ـ مدخل يفضي الى غرفة الاعمال البيتية ذات الأرضية القذرة التي يحيط بها التواليت من اليسار والمطبخ من اليمين ، وفي الوقت الذي ثارت فيه العاصفة قبل انبلاج الفجر ، سادت البيت كله رائحة واحدة لاغير ظلت تحوم بهدوء في هواء البيت في الداخل . تلك هي الرائحة الباردة الكئيبة التي كانت تتسلل من غرفة التواليت . أما النافذة التي كانت تواجه جدار غرفة المخزن المجاور للبيت ، فقد استحال لونها الى لون رمادي بالتدريج .

نظر «شنجي» الى المطر الغزير وهو يضرب افريز النافذة بعنف لينتشر فوق الواحها الزجاجية المخضلة . لقد كان فيما سبق يكره الأيام التي لا يخرج فيها للصيد ـ تلك الأيام التي تمنع عنه متعة العمل وكسب الرزق ـ أما الان فان توقع مثل هذه الأيام بداله وكأنه توقع أيام مهرجان رائعة ، رائعة ليس بسبب زرقة السماء وصفائها او بسبب رفيف الأعلام على قضبان تعلو رؤوسها كرات ذهبية جميلة ، انما هي رائعة بسبب تلك العواصف العاتية والبحار الغاضبة والرياح المندفعة بعنف خلل رؤوس الاشجار التى اصابها القهر والاحباط .

وبعـد ان ادرك بان الأنتظار أمر لا يطاق فعـلاً ، قفـز من فراشـه ولبس على عجل سرواله وبلوزة سـوداء مما يلبسـها البحـارة عادة كثيرة الثقوب . وفيما بعد استيقظت امه لترى ظـلاً اسـود لرجــل يقف امام النافذة التي غمرها الفجـر بضـياء باهت فصرخت : ـ

ـ هاي ـ من هناك ؟

ـ أنا .

ـ أوه ، لا تحاول اخافتي بهذا الشكل ! اليوم ! في مثل هذا الجو ! هل أنت ذاهب للصيد ؟

ـ سوف لا تخرج الزوارق للصيد ، لكن .....

ـ حسـن اذن ، لم لم تسـتلق في فراشـك فترة اطــول ؟ ماهذا ؟ حسبت ان رجلاً غريباً يقف امام النافذة !

لم تكن الام على خـطأ في اعتقـادها ذاك وهي تفتح عينهــا ، لان ابنهـا ، في الواقع كان غريب الاطـوار صـباح هذا اليوم ، فهــا هو «شنجي» ، الشخص الذي لم يتعود على فتح فمه تقـريباً ، تشـاهده اليوم يغني باعلى صوته ويقوم بحركات جمناستيكية يتأرجح من خـلالها من عتبة الباب العـالية . أما امه ، وهي التي لم تعـرف سـبباً لتصرفات ابنهــا الغريبة ، وامام الخوف الذي اصابها من احتمال انهدام البيت على رأسـها قالت بتذمر :

ـ اذا كانت العــاصفة تدوي في الخـــارج ، قل لي ، ماهذا الذي يجري في داخل البيت ؟

اخـذ «شـنجي» ينظر مرات لا حصر لهـا في السـاعة التي يعلوها السخام فوق الحائط ، وبذهن لا يساوره الشك لم يكلف الشـاب نفسـه عناء السـؤال عما اذا كانت تلك الفتاة وهي تخشى مثل هذه العــاصفة سوف لا تلتزم بموعد لقائهما المرتقب . لم يكن «شنجي» يعرف شـيئاً عن تلك الطريقـة التي تبعث على الضـيق والتأثر المفـرط فيما يخص قضـاء

الوقت في الانتظار ـ تلك الحالة المتأتية عن طريق المبالغة في مشاعره ومحاولة تعقيدها ، سواءاً كانت تلك المشاعر مشاعر سعادة او قلق بالنسبة اليه .

وعندما لم يعد باستطاعته تحمل فكرة الانتظار اكثر من ذلك ، لبس ، على عجل ، معطف المطر المطاطي ونزل لاستقبال البحر حيث بدا له بان البحر وحده سيسبغ عليه ولا شك ما يكفي من العطف للاجابة على حديثه الصامت ومناجاة نفسه الخفية .

ارتفعت امواج البحر الغاضبة الى ما فوق جدار الحاجز في الميناء واطلقت زئيراً هائلاً ثم اندفعت لتغوص الى الاعماق ثانية .

وبسبب نذر العاصفة التي ظهرت في الليلة الماضية ، سحب أخر زوارق الصيد الى اعلى مكان من الشاطيء خلافاً للعادة . وعندما كانت الامواج العملاقة تتراجع ، يميل سطح الماء بانحدار شديد ، فيبدو تقريباً وكأن قاع البحر عند ورش الميناء على وشك الظهور للعيان .

ضرب رذاذ الامواج التي رافقها مطر غزير وجه «شنجي» فانحدرت الموجة الرطبة الى اسفل خديه المتوردين وانفه فتذكر طعم القبلة التي طبعها على شفتي «هاتسو» .

كانت السحب تتحرك بسرعة وانتشر ، حتى في تلك السماء المعتمة ، مايشبه التموج متمثلاً بتعاقب موجات من الضوء والظلام ، ولم يكد «شنجي» يلمح في اعماق السماء غيوماً يغمرها ضوء أكمد كدلالات على ان فرصاً من الصحو في طريقها للظهور ، حتى يختفي كل شيء في الحال .

كان «شنجي» معنياً بالنظر الى السماء لدرجة ان احدى الموجات ، وهو لا يدري ، شقت طريقها نحو المكان الذي كان يقف فيه فغمرت السيور الجلدية لقبقابه الخشبي بالماء . واستقرت تحت اقدامه صدفة وردية صغيرة يبدو انها قد غسلت لتوها بنفس تلك الموجة العاتية .التقط

تلك الصدفة ثم فحصها . كانت منتظمة الشكل ليس في حافتها الرقيقة التي تشبه حافة الورقة ما يدل على كسر او تشقق ، وبعد ان قرر مع نفسه بان تلك الصدفة لابد ان تكون هدية رائعة الى «هاتسو» ، دسها في جيبه وانصرف .

بعد طعام الغذاء استعد «شنجي » للخروج ثانية . توقفت أمه ، وهي تراه يخرج في قلب العاصفة للمرة الثانية ، عن عملها قرب حوض الغسيل لتنظر خلفه بكل تركيز . لم تجروً ان تسأله عن الجهة التي كان يقصدها : فهناك شيء في حركة ابنها وتنقلاته ماكان يجبرها على ان تلوذ بالصمت ، ولكم شعرت بالحزن والأسى أنها لم ترزق ببنت واحدة على الاقل حتى تكون في البيت على الدوام تساعدها في اعمال ذلك البيت وتدبير شؤونه ...

اعتاد الرجال في تلك الجزيرة على الخروج أما للصيد او للعمل على سفن الشحن التجارية لنقل البضائع الى مختلف الموانيء ، اما النساء اللواتي لم يستطعن ولوج ذلك العالم الفسيح ، فقد انصرفن الى طبخ الرز وسحب الماء بالدلاء وجمع الاعشاب البحرية .

وعندما يحل الصيف تقوم تلك النسوة بالغطس الى اغوار البحر العميقة ، وحتى بالنسبة الى أم «شنجي» والتي تعتبر من الممارسات العريقات بين النساء الغواصات ، يبقىٰ عالم اغوار البحر المجهول هو عالم النساء فقط .....

كانت الام تدرك كل شيء ـ فالجزء الداخلي من بيتها الذي يغلفه الظلام حتى في الظهيرة والإم المخاض المهلكة التي مرت بها اثناء الولادة ، اضافة الى الظلام الحالك الذي يسود قاع البحر ، كانت كلها سلاسل من عوالم متداخلة عاشت ظروفها .

لقد تذكرت الأم في الصيف ما قبل الماضي كيف أن ارملة مثلها ـ امرأة هزيلة الجسم ما زالت تحمل طفلها الرضيع ـ خرجت من عملية

غوص تبحث فيه عن اذن البحر (حيوان بحري من الرخويات) فوقعت في الحال فاقدة الوعي اثناء وقوفها أمام النار التي توقد للتدفئة والتجفيف . لقد استحالت عينا تلك المرأة الى بياض فقط ثم عضت على شفتيها الزرقاوين وسقطت على الارض ميتة ، وبالتالي ، عندما احرقت جثتها عند الفجر في غابة الصنوبر القريبة ، اصاب النسوة كرب عظيم لدرجة لم يستطعن معه الوقوف على اقدامهن بل جثمن على الارض يجهشن بالبكاء .

لقد رويت عن تلك الحادثة قصة غريبة جعلت بعض النسوة يخشين من الغوص ثانية . قيل بان تلك المرأة انما عوقبت بالموت لانها رأت شيئاً فظيعاً في قاع البحر ، شيئاً ينبغي على الانسان ان لا يراه ابداً . أما أم «شنجي» فقد سخرت من هذه القصة فغطست الى مسافات اعمق فاعمق لتجلب من هناك اكثر صيد ممكن في ذلك الموسم .

كانت امرأة لا تهتم كثيراً بالاشياء المجهولة .

لم تترك مثل هذه الذكريات المؤلمة اثراً في مرحها الطبيعي ، فقد كانت تتباهى بصحتها الممتازة ، كما عززت تلك العاصفة المدوية خارج البيت شعورها بالسعادة مثل «شنجي» تماماً .

بعد ان قامت بغسل الصحون ، فتحت الاجزاء السفلى من ثوبها الكيمونو وجلست على الارض ، ثم مدت ساقيها الى الأمام وراحت تحدق فيهما كثيراً من خلال الضوء الذي تسرب من النوافذ التي لم ينقطع الصرير فيها . لم يظهر على فخذيها المكتنزين اللذين حرقتهما الشمس اي تغضن بالمرة ، فقد كان اللحم المكور الصقيل فيهما يشع بلون كأنه الكهرمان مما حدا بها ان تقول في سرها : هكذا ـ لا يزال بامكاني الان انجاب اربعة او خمسة اطفال آخرين .

ولمجرد ان مرت بها مثل هذه الفكرة امتلأ قلبها الطاهر العفيف بندم عميق . رتبت وضع ملابسها بسرعة وانحنت أمام لوحة زوجها التذكارية كمن يطلب الغفران .

الطريق التي سلكها الشاب الى المنار تحولت الى سيل جارف من المطر مسح آثار اقدامه تماماً ، وكانت اعالي اشجار الصنوبر تعوي بفعل الريح العاصفة كما جعلت الجزمة المطاطية سيره في غاية الصعوبة ، وبما انه لم يكن يحمل مظلة فوق رأسه فقد شعر بالمطر يجري في شعره القصير جداً لينزل داخل ياقته . لم تظهر عليه نزعة في تحدي الطبيعة ، على العكس ، فهو تماماً كما اعتاد ان يشعر بالسعادة حينما يحيطه هدوء الطبيعة من حواليه ، بدت مشاعره في ذلك الوقت في غاية الانسجام والتناغم اثناء سيره وسط تلك الطبيعة الغاضبة .

نظر من خلل أكمة الصنوبر باتجاه البحر حيث كانت اعداد لا تحصى من الامواج المزبدة تتدفق بعنف كبير ، ومن وقت لآخر تعرضت حتى اعلى الصخور الموجودة في اعلى قمة الجبل الداخل في البحر لطغيان تلك الامواج العاتية الصاخبة .

استطاع «شنجي» اثناء اجتيازه «منحدر المرأة» ان يشاهد المسكن ذا الطابق الواحد المجاور للمنار متخاذلاً أمام جبروت العاصفة وقد اغلقت كل نوافذه واسدلت الستائر عليها باحكام ، ثم استمر في الصعود على السلم الصخري باتجاه المنار نفسه .

ليس للحارس اثر في برج المراقبة الذي اغلقت ابوابه بقوة ، وفي داخل الابواب الزجاجية التي جرى فيها المطر غزيراً واضطربت بصليل لا ينقطع ، انتصب جهاز التلسكوب ، الذي خلا من كل تعبير مميز ، في مواجهة النوافذ الموصدة .

ومن فوق طاولة هناك تطايرت اوراق كثيرة بفعل تيارات الهواء واستقر عليها غليون وقبعة عادية مما يلبسها حراس الساحل ، وفوق الحائط علق تقويم لشركة سفن تظهر عليه صورة لسفينة حديثة زوقت بما يدل على ذوق سليم ، ومن فوق نفس الحائط قريباً من ذلك التقويم تدلى بلا اكتراث من أحد المسامير مثلثان يستعملان لوضع التخطيطات التي تخص المنار .

وصل «شنجي» الى برج المراقبة القديم مبللاً حتى العظم . كانت العاصفة رهيبة تبث الرعب على اشد ما يكون في مثل هذا المكان المهجور . وهنا ، في اعلى ذروة من الجزيرة تقريباً ، بدت العاصفة وكأنها قد احكمت قبضتها على المكان بشكل لا يخلو من الخطر .

البناية الخربة ، وقد فتحت النوافذ فيها على مصاريعها في الجهات الثلاث ، لم توفر للمرء أقل حماية أمام تلك الريح الغاضبة ، فهي ، على العكس ، كانت كمن يدعو تلك العاصفة للدخول في غرفها لتصخب وتعربد على هواها . لقد قل تأثير المنظر الهائل للمحيط الاطلسي واتساع مداه عند النظر اليه من خلل نوافذ الطابق الثاني وذلك بفعل الغيوم المحملة بالمطر ، ومع ذلك ، فان الطريقة التي كانت بها الامواج تنفث بغضب كل ما تحتويه في داخلها من زبد ابيض في كل مكان والذي بهت لونه وسط تلك الغيوم السوداء المحمومة ، قد جعلت ذلك الامتداد الهائج بكل عنف وتمرد يبدو كأنه امتداد لا حدود له مطلقاً .

عاد الشاب فنزل من السلم في الخارج ثم أطل في داخل الغرفة الموجودة في الطابق الارضي حيث سبق له المجيء قبل الان لأخذ الحطب الذي اوصت به أمه . كانت الغرفة ، على مايبدو ، تستعمل في الاساس مخزناً وكانت نوافذها صغيرة لدرجة أن واحدة منها فقط هي التي تعرضت للكسر ، وانذاك شعر «شنجي » بأن تلك الغرفة يمكن ان توفر له الحماية في مثل ذلك الطقس ـ وعلى مايبدو ، فان الجبل الهائل من اوراق الصنوبر الابرية الذي كان موجوداً هناك قبل الان قد حمل كومة فكومة حتى لم يعد موجوداً منه الان سوى اربع اكوام مركونة في احدى زوايا الغرفة البعيدة . «ان المكان شبيه بالسجن» ، قال ذلك «شنجي» في سره وهو يشم رائحة العفونة التي سادت المكان ، ولم يكد يلتجيء من تلك العاصفة حتى أحس فجأة بسريان البرد والرطوبة في جسمه فأخذ يعطس بعنف . خلع معطف المطر ثم تحسس جيوب سرواله بحثاً عن علبة الكبريت التي علمته حياة البحار ان يحملها معه على الدوام . وقبل

ان يلمس علبة الكبريت لمست اصابعه الصدفة التي التقطها على شاطيء البحر صباح ذلك اليوم فاخرجها بين اضابعه أمام الضوء الذي تسرب من النافذة . كانت الصدفة الصقيلة ذات بريق شديد كما لو انها ما تزال مخضلة بماء البحر ، وبعد ان امعن النظر فيها ، وضعها في جيبه مرة اخرى وقد امتلأ قلبه بسعادة غامرة .

جمع «شنجي» اوراق الصنوبر الجافة وبعض الاغصان من احدى الاكوام المحلولة وجعلها في كومة واحدة فوق ارض الغرفة الاسمنتيه ، ونجح بعد جهد في اشعال عود من اعواد الكبريت الرطبة . امتلأت الغرفة ، لفترة من الوقت ، بدخان كثيف ثم تحول ذلك الحطب الداخن الى لهبة نار صغيرة متقطعة .

خلع الشاب سرواله المبلل فعلقه قريباً من النار ليجف ، ثم جلس أمام النار وقد عقد ركبتيه ولم يعد هناك من شيء يقوم به سوى الأنتظار .

انتظر «شنجي» ومن غير ان يبدو عليه اقل اضطراب راح يقتل الوقت بوضع رؤوس اصابعه في الثقوب الموجودة في بلوزته السوداء الأمر الذي جعل تلك الثقوب تتسع اكثر فاكثر ثم فكر فيما يشبه الحيرة في مشاعر جسده الذي سرى الدفء في اوصاله ، ووسط عويل الريح في خارج الغرفة وزمجرتها ، استسلم الى سورة من شعور دافق تولد عنده نتيجة لاخلاصه وحبه الشديدين ، شعور ان دل على شيء فانما يدل على تفان صادق - لم يهتم اطلاقاً بحقيقة هي انه ربما كان بحاجة الى تصور كافة انواع المعوقات التي ربما تحول دون مجيء الفتاة في موعدها المحدد . وهكذا وضع رأسه على ركبتيه واستسلم للنوم .

عندما فتح عينيه كانت النار امامه مانزال تشتعل ساطعة كما تركها وبدا كأنه قد اغمض عينيه منذ لحظة ليس غير . ولكن ، هناك امامه انتصب ظل غريب لم يستطع تمييزه عبر النار فتساءل في نفسه ما اذا كان يحلم أم لا ... كانت هناك فتاة عارية تقف وقد انحنى رأسها الى الاسفل

قليلاً وتدلى من يديها قميص ابيض (مجسد) مما تلبسه النساء تحاول تجفيفه على النار . واثناء وقوفهـا بذلك الشكل والقميص منسساب من كلتا يديها ، كشفت عن كل النصف الاعلى من جسمها .

وحينما ادرك «شنجي» بان ما يحدث امامه ليس حلماً كما كان يظن ، طرأت في ذهنه فكرة هي ان يقوم بنوع من التحايل كأن يتظاهر بانه لا يزال نائماً فيمكنه انذاك مراقبتها بعينين نصف مغمضتين ، ومع ذلك ففقد كان جسدها من الجمال بحيث يمكن مراقبته بوضوح دون القيام بأية حركة على الاطلاق .

اعتادت كل النساء الغواصات ان يجففن اجسامهن قرب النار عند خروجهن من الماء مباشرة ، ولذا فهي ، بكل وضوح ، لم تعر قضية عريها شيئاً من التفكير ولو لثانية واحدة اثناء قيامها بما ينبغي في تلك اللحظة . كل ما في الأمر هي أن «هاتسو» ، وهي تصل الى المكان الذي اتفق عليه ، وجدت ناراً متقدة وشاباً مستسلماً لنوم عميق . وهكذا ، فهي بعد أن تعجلت في اتخاذ القرار كما يفعل الاطفال عادة ، قررت على ما يبدو ، بانها يجب ان تستغل الوقت لتجفيف ملابسها المبللة وجسدها الندي اثناء استغراق الشاب في نومه . وبالاختصار ، ان مسألة خلع ملابسها أمام رجل غريب لم تطرأ على تفكيرها مطلقاً . كل ما في الأمر انها ارادت بكل بساطة ان تخلع ملابسها أمام نار متقدة لا غير - ولعل السبب هو ان النار كانت النار الوحيدة الموجودة في المكان ، ثم ان جسدها كان ندياً ......

لو كانت تجارب «شنجي » مع النساء كثيرة ، وهو ينظر الى «هاتسو» التي تقف عارية أمامه عبر النار داخل البناية الخراب التي احاطت بها العاصفة من كل مكان ، لرأى من غير شك بان جسمها هو جسم فتاة عذراء . ان بشرتها ، وهي أبعد ماتكون شقراء صافية بفعل الاستحمام الكثير في ماء البحر ، ذات انبساط ونعومة ، وهناك ، فوق الصدر الواسع الذي اعتاد على الغوص كثيراً ، برز ثديان صغيران اشاحا

بوجهيهما الواحد عن الآخر كما لوكانا خجلين ، ومع ذلك ، فقد رفعا الى الاعلى برعمين ورديين في غاية الجمال .

أما «شنجي» ،وهو الذي كان يخشى من افتضاح امره ، فقد فتح عينيه بالكاد ليرى بان معالم جسمها لم تزل غير واضحة ، ولكنه عندما امعن النظر من خلل وهج النار المشتعلة نحو السقف الكونكريتي ، لم يعد بامكانه تمييز جسمها ابداً وذلك نتيجة لاهتزازات اللهب المستمرة . وحدث ، فيما بعد ، أن أخذ الشاب يرمش عينيه لفترة من الوقت فتحركت ظلال اهدابه التي اتسعت بواسطة الضوء المنبعث من النار وارتسمت فوق خديه ، وهنا فقط اخفت الفتاة كلمح البصر صدرها بقميصها الابيض الذي مازال مبللاً حتى هذه اللحظة وصرخت :

ـ اغمض عينيك !

وفي الحال اغمض الشاب الشريف عينيه باحكام ، ولكن بعد ان فكر بكل ماجرى ، اصبح من غير المعقول التظاهر بانه لا يزال نائماً .... ومع ذلك ، هل كان «شنجي» على خطأ عند ما قرر الاستيقاظ ؟ ، وبكل الجرأة التي ظهرت عليه نتيجة لهذا الاستنتاج الصائب ، فتح عينيه السوداوين الجميلتين مرة ثانية . أما الفتاة ، وهي في حيرة تامة حول ما كان يجب عليها القيام به في مثل هذا الموقف ، لم يعد لديها مايكفي من الوقت حتى لارتداء قميصها مما حدا بها ان تصرخ مرة اخرى :

ـ اغمض عينيك !

لكن الشاب لم يعد يتظاهر ولو قليلا بانه مغمض العينين ، فهو بقدر ماكانت تسعفه ذاكرته كان معتاداً على مشاهدة النساء العاريات في تلك الجزيرة التي تعيش على صيد السمك والغوص ، ولاول مرة ، يرى الفتاة التي احبها عارية امامه . ولم يستطع «شنجي» ان يدرك ، مع كل ذلك لماذا ، لمجرد انها عارية ، يجب ان يرتفع فيما بينهما حاجز يجعل الممارسات اليومية في الجزيرة وصور الحرية في عرض الاجسام العارية أمراً في غاية الصعوبة ؟ .

وهكذا ، نهض «شنجي» على قدمية بكل ما يتصف به من استقامة وشرف . تقابل الشاب والفتاة وجهاً لوجه ولم تفصل بينهما سوى توهجات اللهيب المستعر . تحرك نحو اليمين قليلاً فانسحبت الفتاة إلى اليمين كذلك . لقد حالت النار فيما بينهما الى الأبد وأصرت بعناد أن تقي جسدها بذلك القميص المكور .

كانت الكلمات التي نطقت بها «هاتسو» بعد ذلك موزونة تتسم بمعايير من العفة والفضيلة . قالت :

ـ ان هذا لأمر فظيع !فظيع! .... من الخطأ أن تقوم فتاة بشيء مثل هذا قبل ان تتزوج .

ـ او تشعرين حقاً بان هذا شيء غير لائق ؟

ـ نعم ، انه شيء غير لأئق .

استطاعت الفتاة عندما اغمضت عينيها ان تتحدث بلا تردد وبنبرة صوت تدل على التأنيب والاقناع في آن واحد ، ثم قالت !

ـ نعم ، ان ذلك شيء غير صحيح في الوقت الحاضر لانني قررت بانك الشخص الوحيد الذي سوف اتزوجه ، وحتى يحين ذلك اليوم فكل ماعداه شيء باطل بالمرة .

كان «شنجي» يتصف بنوع من الاحترام العفوي لمعايير الاخلاق السائدة ، اضف الى ذلك انه لم يتعرف على أية فتاة معينة حتى الان . لقد اعتقد بانه قد ادرك الان جوهر الميزة الاخلاقية في بناء المرأة ، وعلى هذا ، فهو لم يصر على التمادي في اللعبة اكثر من ذلك ـ .

مازالت ذراعا الشاب تطوقان الفتاة بحيث كان بوسع كل منهما سماع خفقات قلب الآخر دون ان تحول الملابس فيما بينهما . التهبت فيما بعد عواطف الشاب المشوق بقبلة حارة طويلة ، ومن ثم استحال عذاب الموقف هذا الى لحظة من النشوة غريبة .

كانت النار ، بين فترة واخرى ، ترسل اصواتاً ذات فرقعة . سمعا

تلك الاصوات كما سمعا ، اضافة الي ذلك ، صفير الريح المارة بمحاذاة النوافذ العليا فاختلط كل ذلك مع ضربات قلبيهما العنيفة . بدا الأمر بالنسبة الى «شنجي» وكأن ذلك الشعور بالعاطفة االدافقة اضافة الى الصوت الهادر لذلك البحر المضطرب في الخارج وعويل الريح في اعالي الاشجار في ذلك الوقت ، انما تعزف لحناً صاخباً من الحان الطبيعة الثائرة . انِ الشعور الابدي بالسعادة النقية المقدسة كان جزءاً من عاطفته الخاصة .

أبعد جسده عن جسدها قليلاً ثم تحدث بنبرة رجولية رصينة :

- وجدت في هذا اليوم على شاطيء البحر صدفة رائعة فجلبتها اليك .

- اوه - شكراً ، دعني اراها .

نهض «شنجي» ثم ذهب الى المكان الذي رميت فيه ملابسه ، بدأ يلبس ، وفي نفس الوقت لبست «هاتسو» قميصها برقة ثم لبست بقية ملابسها . وعندما انتهيا من اللبس تماماً ، جلب الشاب تلك الصدفة الى المكان الذي تجلس فيه .

- هل هي لي ؟ انها رائعة حقاً !

اخذت الفتاة ، وقد طغى عليها فرح غامر ، تتملى توهج اللهيب الذي انعكس على السطح الصقيل لتلك الصدفة ، ومن ثم رفعتها أمام شعرها وقالت :

- تبدو كأنها قطعة من المرجان ، أليس كذلك ؟ انني اتساءل ما اذا ستصلح حتى كحليةٍ لتزيين الشعر .

جلس «شنجي» الى جوارها على الارض وبما انهما قد اصبحا الان في كامل ملابسهما فقد صار بامكانهما تقبيل احدهما الآخر بكل اطمئنان . وبعد ذلك ، عندما شرعا بالعودة الى البيت ، لم تكن الريح قد هدأت بعد ، ولذا فلم يفترق عنها «شنجي» عند المنار ولم يتخذ طريقا

مغايراً لطريقها تحسباً لما يمكن ان يفكر به اولئك الذين يسكنون المنار . لقد سلكا ، بدلاً من ذلك ، الطريق الاكثر سهولة الى الاسفل بمحاذاة الجهة الخلفية من المنار ، ثم اخذا ، بعد ذلك ، بالنزول يدا بيد على السلم الصخري الذي يبدأ من المنار بمحاذاة المسكن الذي يعيش فيه موظف المنار نفسه .

عادت «شيوكو» الى البيت فاستولى عليها الضجر في اليوم التالي مباشرة ، ولم يأت لزيارتها حتى «شنجي» نفسه . واخيراً اجتمعت فتيات القرية في البيت لحضور درس «الاتكيت» المنتظم .

كان بين الفتيات وجه غير مألوف فادركت «شيوكو» في الحال بان هذه الفتاة لابد أن تكون «هاتسو» التي سبق وان تحدث عنها «ياسو» . لقد اكتشفت بان قسمات «هاتسو» الريفية البسيطة كانت أجمل بكثير مما كان يتحدث عنها اهل تلك الجزيرة . هذا ما كانت تتصف به «شيوكو» من فضيلة غريبة الاطوار : فعلى الرغم من ان أية امرأة اخرى اقل ثقة بالنفس منها سوف لا تحجم عن الاشارة الى نقائص المرأة الثانية نرى بان «شيوكو» كانت اكثر اماناً حتى من الرجل في كونها كثيراً ما تدرك كل ما هو جميل في أية أمرأة غيرها ـ عدا نفسها طبعاً .

بدأت «شيوكو» ، فيما تظن بانه افضل شيء تقوم به ، في دراسة الادب الانكليزي . لقد شرعت في استظهار اسماء مجموعة من شاعرات العصر الفكتوري دون أن تعرف شيئاً عما قمن به من اعمال ادبية ـ شاعرات من امثال «كرستينا جورجينا روزيتي وأدليد آن بروكتر وجان انجيلو وأجستا ويبستر» تماماً كما كانت تستظهر مقاطع من اقوال «بوذا» . كانت «شيوكو» تتميز بقابلية الاستظهار الذي لا يدل على فهم عميق ، فهي مثلاً اعتادت أن تدون في كراسها حتى الفترات التي يعطس فيها الاستاذ اثناء القاء المحاضرة .

اعتادت أمها الجلوس الى جوارها باستمرار تحدوها الرغبة في استيعاب أي معرفة جديدة عن طريق ابنتها . كان دخول الجامعة الشيء

الأول الذي فكرت به «شيوكو» ، وقد كان لمساندة امها المتحمسة تأثير كبير في التغلب على معارضة ابيها واشمئزازه من تلك الفكرة . والأم ، في تعطشها للمعرفة التي شحذتها حياة التنقل من منار الى منار ومن جزيرة قصية الى اخرى ، قد تصورت بان الحياة التي تعيشها ابنتها انما هي حلم مثالي رائع . ولم يحدث قط ان ادركت عينا تلك الأم بعض صور التعاسة الداخلية التي تنطوي عليها حياة ابنتها

في صباح يوم العاصفة بقيت الأم وابنتها في الفراش الى ساعة متأخرة من النهار . كانت العاصفة قد بدأت في الليلة التي سبقت ذلك اليوم مما حدا بهما ان تبقيا ساهرتين الى وقت متأخر من الليل مع موظف المنار الذي مارس مسؤولياته في تلك الاثناء بكل جدية . وعلى خلاف المعتاد ، فقد تناولوا في ذلك اليوم العاصف طعام الغذاء الذي كان افطاراً في نفس الوقت . وبعد ان رفعت الصحون من على المائدة ، امضى الثلاثة ما بقي من الوقت داخل البيت نتيجة لتلك العاصفة التي احتجزتهم . ازداد حنين «شيوكو» الى مدينة طوكيو ، اشتاقت اليها لانها حتى في مثل هذا اليوم العاصف ، كانت السيارات فيها تروح وتغدو كالمعتاد وكذلك المصاعد تعلو وتهبط وعربات الترام تنطلق في الشوارع بكل صخب واهتياج . كانت الطبيعة في تلك المدينة تسيرً وفق نظام ونسق رائعين ، أما الباقي القليل من طاقة تلك الطبيعة فهو العدو الحقيقي . أما في هذه الجزيرة فالأمر على النقيض ، لان اهلها ، على أية حال ، يندمجون بحماسة كبيرة مع تلك الطبيعة الثائرة فيهبونها كل ما يملكون من طاقة .

«شيوكو» ، وقد سأمت من كثرة المطالعة ، وضعت وجهها على زجاج النافذة وراحت تتطلع في تلك العاصفة التي ابقتها حبيسة الدار . كانت العاصفة اطراداً رتيباً من الكآبة وقد استمر هدير الامواج باصرار كثرثرة سكير متواصلة . ولسبب من الاسباب استعادت «شيوكو» الى ذاكرتها الاشاعة التي انتشرت حول احدى زميلاتها التي اغواها الرجل

الذي كانت تحبه . لقد احبت الفتاة رقة ذلك الرجل ودماثة اخلاقه واعتادت ان تصرح بذلك علانية أمام الجميع - أما بعد تلك الليلة فقد اعجبت به ، كما تقول القصة ، للعنف والصلابة المعاندة التي اتصف بهما - وهو شيء لم تبح به لاي أحد ابداً .

لمحت «شيوكو» في هذه اللحظة بالذات «شنجي» وهو ينزل من السلم الصخري الذي احاطته العاصفة بعنفها وقد سارت «هاتسو» ملتصقة به طلباً للدفء والحماية .

اقتنعت «شيوكو» بفوائد الوجه القبيح الذي اعتبرته وجهها بالذات - لان مثل ذلك الوجه بقالبه المتجمد الصلب يستطيع ان يخفي العواطف باسلوب ذكي اكثر مما يستطيع الوجه الجميل القيام به - ان ما كانت تعتبره قبحاً ، على اي حال ، ما هو في الواقع إلا قناع من قالب جصي تكمن في داخله ملامح النفس العذرية . اشاحت «شيوكو» بوجهها عن النافذة ، والى جوار المدفأة المحفورة في الجدار كانت أمها منهمكة في خياطة شيء بينما كان ابوها يدخن بكل هدوء . استمرت العاصفة تدوي في الخارج بينما ساد في داخل البيت هدوء الحياة العائلية ، ومع ذلك فلم يكن هناك من يهتم بتعاسة «شيوكو» او يتعقب اسباب تلك التعاسة . عادت «شيوكو» الى مكتبتها وفتحت كتاباً باللغة الانكليزية ، لكن الكلمات فقدت معانيها ، ولم تكن هناك غير سطور مطبوعة تتسارع نحو اسفل الصفحة حيث تتراقص في عينها مابين تلك السطور صور لطيور تقضي الوقت بالطيران صعوداً ونزولاً . انها طيور النورس البحرية . وانذاك قالت «شيوكو» في نفسها ، عندما عدت الى الجزيرة وراهنت مع نفسي حول طائر النورس الذي كان يحوم فوق برج «توبا» - ان ماأراه الآن هو ما كانت تعنيه تلك العلامة .

- الفصل التاسع -

وصلت رسالة - بوست كارد - من «هيروشي» وهو لما يزل في تلك السفرة المدرسية . ظهر على بطاقة البريد تلك معبد «شميزو» في «كيوتو» وقد ختمت بختم تذكاري كبير ارجواني اللون . ولو حدث أن أرسل «هيروشي» تلك البطاقة بالبريد الاعتيادي ، لكان قد عاد الى الجزيرة قبل موعد وصولها إلى هناك . لقد غضبت الأم حتى قبل ان يقرأ «شنجي» مضمون تلك البطاقة لان «هيروشي» ، كما تظن ، كان مبذراً في دفع اجرة البريد السريع الاضافية ، وأخذت بالتالي تشكو من أن الأطفال في هذه الايام لا يعرفون قيمة النقود كما ينبغي . كانت كل كلمات «هيروشي» المزدحمة هي حول مشاهدة أول فيلم سينمائي في حياته اضافة الى كلمات قليلة حول المشاهد الطبيعية والتأريخية التي رآها ، فقد كتب يقول «في الليلة الاولى من وصولنا الى «كيوتو» سمحوا لنا بالقيام بما نريد ، وعلى هذا فقد ذهبنا - سوشان وكاتشان وأنا - الى دار السينما القريبة مباشرة . كانت البناية شامخة كأنها قصر كبير ، غير ان الكراسي كانت ضيقة وصلبة بشكل مخيف . عندما حاولنا الجلوس عليها وجدنا انفسنا وكأننا نجلس فوق مجثم للدجاج تماماً . شعرنا بألم في اسفل اجسامنا ولم يكن الأمر مريحاً على الاطلاق .

وبعـد دقائق صرخ الرجـل الذي يجلس خلفنا «انزلوا ، انتم في الأمام ، انزلوا» كنا جـالسين ، وهكذا فقـد فكرنا بأن أمر ذلك الرجـل لابد ان يكون مضحكاً ، ومع ذلك فقـد اوضـح لنا الرجـل بكل رقة ما يجب عمله ، لقد أشار بان تلك المقاعد يمكن قلبها وبأننا لو قمنا بقلبها الى الأسفل فانها لا شك ستصبح مقاعد جلوس مريحة . اخذنا نحك رؤوسنا خجلاً لاننا قد اقترفنا خطأً سخيفاً . عندما انزلنا المقـاعد ظهـرت بانهـا مقاعد ناعمة تصلح حتى لجلوس الامبراطور نفسه . ولقـد حـدثت نفسي كم أود لو كانت أمي تجلس على واحد منها ايضاً» .

عندما كان «شـنجي» يقـرأ البطاقة عالياً ، جعلت تلك العبارة الاخيرة دموع أمه تتسـاقط من عينيهـا . وضـعت الأم بطاقة ابنهـا على الرف المخصص للعبادة ثم طلبت من «شنجي» ان يركع معها ليتلوا صلاة للشكر من ان العاصفة التي هبت قبل يومين لم يكن لهـا تأثير على الرحلة التي قام بهـا «هيروشي» وبأنهما يرجـوان أن لا يحـدث له أي ســوء قبل وصوله الى البيت في اليوم ما بعد الغد . وبعد دقيقـة ، كما لو أن الفكرة جاءتها على عجل ، اخذت الأم في كيل الانتقادات الى «شـنجي» حـول اسـلوبه الردىء في القـراءة والكتابة بالمقـارنة مع براعة «هيروشي» الذي هو افضـل منه في ذلك . ولعـل ما كانت تدعوه ببراعة «هيروشي» ، هو على وجه التقريب قابليته في التأثير عليها ونثر دموع الفرح من عينيها .

لم تضيّع الأم وقتها سدى ، فقـد اسرعت بعـرض بطاقة البريد تلك على ذوي صـديقي «هيروشي» ـ سـوشان وكاتشـان ـ وفيما بعـد ، عندما ذهبت هي وابنها «شـنجي» الى الحمام العـام مسـاء ذلك اليوم ، التقـت بزوجة موظف البريد فركعت احتراماً على ركبتيها العاريتين أمامها وسط البخار المتصاعد وقدمت لهـا الشكر فيما يخص البريد السريع الذي يعمل بذلك النظام الرائع .

انهى «شنجي» استحمامه بسرعة ثم انتظر امام مدخـل الحمام خـروج أمه من القسم الذي أعد للنساء . كان لون الخشب الذي اكتسى بالطلاء

والنقوش تحت افريز باب الحمام باهتاً فظهرت القشور على الاماكن المعرضة للبخار اثناء اندفاعه الى الخارج ملتفاً بتلك الطريقة اللولبية المنسابة . كانت الليلة دافئة والبحر هادئاً .

وهناك لاحظ «شنجي» بان أحد الاشخاص كان يقف على مسافة بضع ياردات في الشارع وقد ادار ظهره اليه يتفحص ، على ما يبدو ، افريز أحد البيوت . وقف الرجل واضعاً كلتا يديه في جيبه ثم راح يتخطى بانتظام فوق بلاط الشارع وكأنه يقوم بحساب ذلك البلاط بواسطة قبقابه الخشبي ، وبعد ذلك استطاع «شنجي» ان يلاحظ في ذلك الغسق بان الرجل كان يرتدي سترة من الجلد بنية اللون وبالطبع ليس بامكان اي شخص في «اوتارجيما» ارتداء مثل تلك السترة الجلدية ، وعلى هذا فقد تأكد «شنجي» بان ذلك الشخص لابد أن يكون «ياسو» .

وتماماً ، عندما اوشك «شنجي» على مناداته ، استدار «ياسو» فابتسم له الشاب . لم يفعل «ياسو» شيئاً سوى النظر نحو «شنجي» دون ان تتغير نظرته الخالية من اي تعبير على وجهه ، ومن ثم اشاح بوجهه بعيداً عنه مرة أخرى . لم يعتبر «شنجي» ذلك مجرد تجاهل حسب ، بل اعتبره شيئاً يبعث على الغرابة قليلاً ، واثناء ذلك خرجت امه من الحمام ، فسار معها الى البيت صامتاً كالمعتاد .

وأمس ، بعد ان عادت الزوارق من الصيد اليومي في ذلك الجو الرائع الذي ساد المنطقة بعد العاصفة ، خرجت «شيوكو» للقاء «ياسو» . لقد إدعت بأنها إنما جاءت الى القرية لشراء بعض الحاجيات فقط ، غير انها قامت ، اثناء ذلك الوقت ، بتلك الزيارة عرضاً ، ثم اشارت الى سبب مجيئها الى «ياسو» لوحدها بقولها بأنها انتهزت تلك الفرصة لأن أمها كانت تقوم بزيارة بيت رئيس الجمعية التعاونية القريب من هناك .

لم يكن في حكاية «شيوكو» المحورة عن كيفية مشاهدة «شنجي وياسو» وهما يهبطان سوية من اعلى الجبل المعزول وقد التصق احدهما بالآخر ، ما يجعل تلك الحادثة أقل تعرضاً للشبهة ، ولذا بدت حكايتها

تلك بمثابة ضربة قاصمة لكبرياء «ياسو» ورجولته .

فكر «ياسو» بذلك الأمر طوال الليل ، وفي الليلة الثانية عندما رآه «شنجي» عرضاً قريباً من الحمام ، كان «ياسو» في الواقع يقرأ قائمة الاسماء المعروضة تحت افريز باب أحد البيوت الذي يقع على جانب الشارع المنحدر الذي يمر مخترقاً القرية من وسطها .

كان تجهيز الماء في «أوتاجيما» ضئيلاً ، فقد كان يبلغ اقل مستوى فيه حوالي رأس السنة بموجب التقويم القديم ، الأمر الذي يؤدي الى منازعات لا نهاية لها بخصوص حق الحصول عليه . والمصدر الوحيد للماء كان جدولاً ضيقاً يمر بمحاذاة الشارع المرصوف بطريقة خرقاء حيث كثرت فيه العثرات وكثرت كذلك سلالم الدرجات التي تؤدي اليه نازلة من وسط القرية .

يصبح الجدول الصغير في موسم الامطار او حتى بعد زخة مطر ثقيلة ، سيلاً جارفاً كثير الوحل تغسل النساء على ضفافه أكداساً من الملابس فتعلو اصواتهن بالضجيج والثرثرة . وهناك لابد أن يشارك الاطفال في انزال سفنهم الحربية المنقوشة باليد في ذلك الجدول وفق اساليب استعراضية تقليدية . أما في موسم الجفاف فان ذلك الجدول يستحيل الى مجرد مستنقع جاف ليس فيه من القدرة على جرف حتى قطعة صغيرة من الأزبال .

يغذي ذلك الجدول ينبوع ماء تترشح فيه المياه نتيجةً لتساقط الامطار الغزيرة على قمم الجبال في الجزيرة ، ومهما كان السبب فذلك الينبوع هو مصدر الماء الوحيد هناك . لقد مضى على السلطة في تلك الجزيرة زمن طويل حتى امكنها فرض تنظيم خاص يتعين على القرويين بموجبه سحب ما يحتاجون اليه من الماء فعلياً ، وبالطبع فقد كان ذلك التنظيم عرضة للتغيير بطريقة تناوبية كل اسبوع ، أما المنار فهو وحده الذي كان يقوم بترشيح ماء المطر والاحتفاظ به في خزان كبير خاص به .

اعتادت بيوت القرية كلها الاعتماد على ذلك الينبوع فقط ، وقد اضطرت كل عائلة ، عن طريق المناوبة ، أن تتحمل مشقة تخصيص ساعات منتصف الليل لسحبُ الماء منه ، ولكن جدول المناوبة ذلك يزحف تدريجياً في ظرف اسابيع من منتصف الليل الى ساعات الصباح الباكرة المناسبة ، كما ان سحب الماء من ذلك الينبوع يقع على عاتق النساء فقط .

وهكذا ، فقد كان «ياسو» يتفحص جدول مناوبات سحب الماء الذي يثبت عادة في مكان يمر به الناس كثيراً . وجد اسم «مياتا» مكتوباً تحت عمود الساعة الثانية صباحاً بالضبط ، وهذا هو دور «هاتسو» في الحصول على الماء .

اخذ «ياسو» يطقطق بلسانه من شدة الفرح ، وكم تمنى لو ان فصل صيد الاخطبوط استمر فترة اطول حتى لا تخرج الزوارق مبكرة في كل صباح .

في خلال موسم صيد الحبّار (سمك من الرخويات) ، الذي حلّ الان ، يتعين على الزوارق الوصول الى مناطق الصيد في قنال «ايراكو» عند انبلاج الفجر ، وانذاك تقوم كل عائلة في تلك القرية بتهيئة الفطور قبل الساعة الثالثة صباحاً على اقل تقدير ، كما أن هناك بعض العوائل المتعجلة ، من تطلق دخان نيران الطبخ في بيوتها حتى قبل ذلك الوقت بكثير ، ومع ذلك فان هذا الوقت يناسب ما سوف يحدث في الاسبوع القادم عندما يحل دور «هاتسو» في الساعة الثالثة صباحاً .... لقد أقسم «ياسو» مع نفسه بان سوف يطال «هاتسو» قبل ان تبحر زوارق الصيد صباح ذلك اليوم .

واثناء ما كان يقف «ياسو» يتفحص جدول المناوبات بعد ان اتخذ مثل ذلك القرار الحاسم ، شاهد «شنجي» واقفاً أمام مدخل حمام الرجال . لقد ضايقه منظر «شنجي» لدرجة نسي معها التزامه بالشكليات الاعتيادية تماماً ، فقد ادار ظهره واسرع الخطى نحو بيته .

عندما وصل «ياسو» الى بيته نظر من خلال زاوية عينه الى غرفة الجلوس حيث كان يجلس ابوه واخوه يتبادلان شراب الساكي المعتاد في كل ليلة ويستمعان الى مغن يردد اغنية شعبية في جهاز الراديو الذي علا ضجيجه في ارجاء البيت . ذهب «ياسو» الى غرفته في الطابق الثاني مباشرة ثم تناول سيجارة واخذ ينفث دخانها في كل انحاء الغرفة .

نظر«ياسو» بسبب خبرته وطريقة تفكيره الى مجمل القضية على النحو التالي : «بما ان «شنجي» قام باغراء «هاتسو» فلابد ان يكون هو نفسه غير عفيف بكل تأكيد ، فهو طوال الوقت الذي يحضر فيه اجتماعات «جمعية الشباب» ، يجلس بوداعة بعد ان يشبك ركبتيه ثم يأخذ بالابتسام مصغياً بانتباه الى احاديث الآخرين وقد ارتسمت على وجهه ملامح طفولية ساذجة . ان له ولا شك علاقات خفية بالنساء . ياله من ثعلب صغير لعين !»

ومع ذلك ، فان «ياسو» وهو يلاحظ مسحة الشرف التي تكسو وجه «شنجي» ، لم يستطع بكل بساطة تصديق أن يكون ذلك الشخص قد استطاع فعلاً اغواء الفتاة عن طريق المكر والخديعة . الاستنتاج الحتمي اذن ، وهذا هو اكثر كل الافكار التي لا يمكن تصديقها هو أن يكون «شنجي» قد تصرف مع تلك الفتاة بكل لياقة وشرف أو بامانة تامة .

استمر «ياسو» ، وهو مستلق على فراشه في تلك الليلة ، يقرص فخذيه حتى الألم لكي لا يستسلم للنوم ، غير ان هذا لم يكن في حقيقة الأمر ضرورياً : ان الحقد الذي كان يشعر به نحو «شنجي» والغيرة التي كانت تأكل قلبه نتيجة لاستحواذ «شنجي» على تلك الفتاة وكسبه قصب السبق في هذا الميدان تكفي وحدها للسهر وطرد النوم من عينيه :

كثيراً ما كان «ياسو» يتباهى بامتلاكه ساعة ذات قرص مضيء لماع ولذا فقد ترك في تلك الليلة ساعته تستقر على رسغه ثم اندس في فراشه دون ان يخلع سترته او سرواله ، واستمر ، من وقت لآخر ، في وضع الساعة على اذنه والنظر الى قرصها المشع لانه كان يظن بان مجرد

الحصول على مثل هذه الساعة المدهشة يمهد له الطريق في ان يكون اثيراً عند النساء .

تسلل «ياسو» في الساعة الواحدة والثلث من البيت واستطاع ، في سكون ذلك الليل ، ان يسمع بوضوح هدير الامواج ويرى القمر متلألأً في السماء ، وقد اطبق السكون على ارجاء القرية كلها .

في تلك القرية اربعة مصابيح تتوزع شوارعها ـ ينتصب احدها عند حاجز الماء قريباً من مرسى السفن وينتصب اثنان آخران على امتداد الشارع المنحدر وسط القرية ، أما الرابع فهو موجود على الهضبة الى جوار ينبوع الماء . لم يكن هناك من شيء سوى المعبرة وزوارق الصيد في المرسى ولذا فلا يوجد ما يشبر الى مصابيح صواري السفن الكبيرة التي تبعث الحياة في هدوء الليل وسكونه . لقد انطفأ الآن آخر مصابيح البيوت في تلك القرية ، اضف الى ذلك ، ان في قرية صيد السمك تلك حيث تبنى البيوت فيها من القرميد او الحديد المغلون ، لا توجد صفوف من السطوح الداكنة السميكة التي تظهر ببروز في اثناء الليل كما هي الحال في القرى الزراعية ، كما لا توجد فيها تلك الهيبة القدسية التي تتمثل في بناء السقف المبني من القش ـ ذلك الصرح الذي يشمخ في جوف الليل عالياً فيتحدى ظلامه الكثيف .

اسرع «ياسو» الى اعلى الشارع الذي ينحدر يميناً فلم يسمع حتى وقع قدميه اللذين انتعلا حذاءً خفيفاً من القماش ، ثم اجتاز ساحة المدرسة الابتدائية التي احيطت بصفوف من اشجار الكرز ذات الازهار نصف المفتحة . الحقت الساحة الى تلك المدرسة في الفترة الاخيرة ونقلت اليها اشجار الكرز من الجبال المجاورة غير أن العاصفة العاتية اقتلعت احدى تلك الاشجار الفتية فظهر جذعها الاسود الفاحم واضحاً بالمقارنة مع الرمل الذي التمع حواليها تحت ضياء القمر المنير .

صعد «ياسو» الى اعلى السلم الصخري الذي ارتفع بجانب الجدول الصغير حتى وصل الى موضع امكنه فيه من سماع خرير الماء في ذلك

الينبوع ، واستطاع كذلك من خلل ضوء مصباح الشارع الوحيد ، مشاهدة حدود ذلك الينبوع ومعالمه . تحدر الماء الرقراق بين الصخور المغطاة بالطحالب ليصب في حوض صخري ومن ثم ليطفح من أحد جوانب ذلك الحوض . لقد اكتسى الصخر هناك بطحلب لماع صقيل وبدا يأن الماء لم يكن هو الذي ينحدر فوق الطحلب ، بل ان الطحلب هو الذي اكتسى بطبقة سميكة من زخارف شفيفة جميلة .

صاحت من مكان ما من الأجمة حول الينبوع بومة فاخفى «ياسو» نفسه وراء عمود الكهرباء ثم ساد المكان بعد ذلك رفيف خفيف لاجنحة صغيرة تطير فاتكأ «ياسو» على جذع شجرة من اشجار الزان وانتظر محاولاً التحديق في ساعته المضيئة . لمح «ياسو» في الساعة الثانية صباحاً تلك الفتاة وهي تجتاز ساحة المدرسة تحمل دلواً للماء في كل طرف من عمود خشبي وضعته على كتفيها وقد تحددت ملامح جسمها في ضياء القمر الساطع .

وعلى الرغم من ان جسم المرأة لا يصلح عادة للقيام باي مجهود في منتصف الليل ، فان الرجال والنساء في قرية «اوتاجيما» ، الثري منهم والفقير على حد سواء ، ينبغي عليهم انجاز الاعمال التي تخصهم . و«هاتسو» ، الفتاة القوية التي تصلب عودها من خلال عملها في الغوص ، كانت قد صعدت الى اعلى الدرجات الصخرية دون أية صعوبة وهي تؤرجح الدلوين الفارغين الى الامام والى الخلف فتعطي بذلك صورة بهيجة نوعاً ما لما تتمتع به من قوة لانجاز العمل مبكراً بالقياس الى بقية النساء .

وفي الاخير وضعت «هاتسو» ذلكما الدلوين على الارض قريباً من الينبوع ، وانذاك اراد «ياسو» ان يقفز عليها ، لكنه تردد ثم قرر ان يكبح جماح نفسه حتى تنتهي من سحب الماء . وفي اللحظة التي تهيأ للقفز نحوها ، امتدت يده اليسرى فمسكت غصناً عالياً ثم وقف هادئاً لفترة قصيرة من الوقت كأنه تمثال من الصخر تماماً .

وعندما رأى «ياسو» يدي الفتاة القويتين الحمراوين من شدة البرد عند ملأ الدلوين وقد تطاير الماء من حواليها بصوت مسموع ، اندفع خياله في رسم صور شهوانية جميلة لجسدها الفتي المليء بالصحة والقوة . وطوال ذلك الوقت ، كانت الساعة المضيئة ، وهو موضع فخر واعتزاز «ياسو» ، تستقر على يده التي تشبثت بغصن شجر الزان وترسل ضوءاً فسفورياً متوهجاً وتطلق دقات واهنة واضحة تدل على مرور الثواني تباعاً . لقد أثار كل هذا مجموعة من الدبابير أقامت خليتها ، ويا للمصادفة الغريبة ، فوق ذلك الغصن نفسه فازداد انفعالها وفضولها .

طار أحد تلك الدبابير محوماً من الخوف نحو تلك الساعة ليجد بان تلك «الخنفساء الغريبة» التي كانت ترسل ضوءاً براقاً وتسقسق برتابة ، انما كانت تحتمي داخل وقاء زجاجي أملس كثير البرودة ، ولابد ان ذلك الدبور ، وقد خاب امله ، ادار ابرته اللاسعة الى رسغ «ياسو» فغرزها في جلده . صرخ «ياسو» من الألم فانتصبت «هاتسو» وادارت وجهها نحوه ، ولكن دون ان تلجأ للصراخ او الاستغاثة . لقد اسرعت ، بدلاً من ذلك ، فانتزعت الحبال من العمود الحامل للدلوين ومسكت به بطريقة مائلة أمام جسمها في وضع دفاعي راسخ مما اضطر «ياسو» على الاعتراف بان منظره كان مما يرثى له تماماً أمام عينيها . تراجعت امامه خطوة او خطوتين مع الحفاظ على نفس ذلك الوضع الدفاعي . وعند ذاك قرر «ياسو» ان يحيل المسألة كلها الى مجرد دعابة ، وعلى هذا فقط انفجر ضاحكاً ببلادة وقال :

- هاي ! اظن بانني قد ارعبتك قليلاً ، لابد انك ظننت بانني غول أوجني - ؟ .

- من ؟ الأخ «ياسو» ؟

- لقد فكرت في مجرد الاختباء هنا لأبث الرعب فيك .

- ولكن في مثل هذه الساعة من الليل ؟

لم تدرك الفتاة حتى الان كم كانت جذابة رائعة ، وربما ادركت ذلك

لو انها فكرت بالامر بما يكفي من الجدية والعمق ومع ذلك فقد تقبلت التفسير الذي اورده «ياسو» عن اختبائه هناك لا لشيء آخر غير اخافتها .

وبعد فترة من الوقت ، عندما استغل «ياسو» ثقتها اختطف العمود من يديها ومسكها من رسغها الايمن بقوة . كانت سترته الجلدية تبعث اصواتاً ذات صرير واخيراً ، بعد ان استعاد «ياسو» وضعه الطبيعي ، وقف يحدق فيها . انه الآن رابط الجأش ، ومن ثم ، بعد ان صمم على استمالة الفتاة بعض الشيء ، سلك ، بلا وعي منه ، الاسلوب العلني الذي تصور بان «شنجي» قد قام به في مناسبة مماثلة ، فقال لها بطريقة تبدو منطقية :

ـ حسن ، هل ستصغين الى ما يجب أن أقوله لك الآن ؟ ... لا شك بانك ستندمين كثيراً إن لم تفعلي ذلك ـ اذن ، الافضل لك أن تصغي جيداً هذا بالطبع اذا لم ترغبي في ان يعرف كل واحد في القرية ما حدث بينك وبين «شنجي» . احمر وجه «هاتسو» واخذت تتنفس بصعوبة .

ـ اترك ذراعي ! ماذا تعني بـ «ما حدث بيني وبين «شنجي»»! .

ـ لا تمثلي دور الحمل الوديع وكأنك لم تفعلي شيئاً مع «شنجي» . لقد فضلت في الحقيقة شخصاً آخر عليَّ .

ـ كفي ترديد هذه الكلمات المضحكة . انني لم افعل شيئاً على الاطلاق .

ـ أما أنا فاعرف كل شيء عن ذلك ، والان أخبريني ، ماذا كنت تفعلين مع «شنجي» فوق الهضبة قبل أيام اثناء العاصفة ؟ هاي ، انظر الى الخجل الذي يعلو وجهها ! ..... اذن ، لابد ان تفعلي نفس مافعلت في السابق ... ولكن معي ... هيا].

عند ذاك اخذت «هاتسو» بالصراخ وهي تجاهد محاولة الهروب .

لم يشأ «ياسو» أن يتركها تهرب منه ، فهي ولاشك ستخبر اباها ان هي هربت منه الان قبل ان يتم كل شيء ، أما اذا انتهى كل شيء فلا شك بانها سوف لاتخبر احداً على الاطلاق . لقد اعتاد «ياسو» على قراءة المجلات المثيرة التي ترد الى القرية من المدينة حيث يجد المرء فيها اعترافات كثيرة لفتيات كن عرضةً لاغواء الشباب . وياله من شعور عظيم سيكون بالنسبة للمرء حينما يتحقق له مايريد من شيء مع فتاة يشتهيها وهو على يقين من انها سوف لا تخبر اي شخص عن ذلك .

واخيراً أجبر «ياسو» تلك الفتاة على الجلوس على الارض الى جوار الينبوع ، ثم رفس أحدُ الدلوين فاندلق الماء على الارض المكسوة بالطحالب . أما مصباح الشارع فقد اظهر منخريّ «هاتسو» يرتجفان وعينيها المفتوحتين يتطاير منها بريق حاد واظهر نصف شعرها مغموراً بالماء الذي انسكب على الارض . زمت «هاتسو» شفتيها على نحو مفاجيء ثم بصقت على حنك «ياسو» مما اثار غضبه اكثر فاكثر ، وبعد ان تحسس ثدييها النافرين تحت جسمه ، أخذ يضغط بوجهه على خدها بقوة .

ويا للمصادفة ، ففي تلك اللحظة بالذات انطلقت منه صرخة عالية فنهض على قدميه ، الدبور ، مرة اخرى ، في هذه المرة لسعه في القسم الخلفي من رقبته ، وبغضب يفوق طاقة الانسان وتحمله ، حاول بجنون مسك ذلك الدبور ، ولكن ، بينما كان يتراقص حواليه ، اسرعت «هاتسو» نحو السلم الصخري . كان «ياسو» في حالة يائسة من شدة الاضطراب ، لانه انشغل تماماً بذلك الدبور الذي استحوذ عليه ، ومع ذلك فقد استطاع ان يرضي نزعته في السيطرة على «هاتسو» غير انه ، من لحظة الى اخرى ، لم تكن قد تبلورت لديه فكرة عن العمل الذي يجب القيام به ولا السلوك الذي تتحقق من خلاله تلك الفكرة . وهكذا مسك بالفتاة مرة اخرى . ولم يكد يلقي بجسمها البض فوق الطحالب حتى ظهر الدبور المعاند يسطع في الظلام ثانية . في هذه المرة حام فوق

المنطقة الخلفية لسروال «ياسو» ثم غرز ابرته اللاسعة بعمق في لحمه . لقد اكتسبت «هاتسو» خبرة في فن المراوغة والهروب ، وهكذا فانه عندما قفز من شدة الألم هربت هذه المرة الى الطرف البعيد من الينبوع . وعندما دخلت بين الاحراش العالية واسرعت لتختفي وراء مجموعة من نباتات السرخس ، رأت صخرة كبيرة ، وبعد ان رفعت الصخرة بيديها الى اعلى رأسها ، استطاعت في آخر الأمر أن تستعيد انفاسها وتنظر الى الاسفل عبر الينبوع .

والحقيقة ، ان «هاتسو» لم تدرك ، حتى تلك اللحظة ، أية عناية الهية جاءت لانقاذها ، غير انها الان ، وهي ترى بارتياب قفزات «ياسو» الجنونية في الطرف الآخر من الينبوع ، ادركت بان ذلك كله هو من تدبير دبور حاذق . تشبثت يدا «ياسو» بالهواء واستطاعت عيناه أن ترى على اطراف اصابعه تماماً ، تحت ضوء مصباح الشارع ، بريق جناحين ذهبيين صغيرين .

واخيراً ، حينما ادرك «ياسو» بانه قد تخلص من الدبور تماماً ، وقف ينظر وقد اكتسى وجهه بالشحوب ثم أخذ يمسح العرق المتصبب على وجهه باردان قميصه . ومع كل ذلك فقد استمر في البحث عن «هاتسو» حواليه ، ولكنه عندما لم يجد لها اثراً عمل من يديه بوقاً ينادي من خلله بعصبية بالغة اسمها ولكن بصوت خفيض . أما «هاتسو» فقد حركت عن قصد منها بعض شجيرات السرخس باصبع قدمها الكبير فصاح «ياسو» :

- انزلي من ذلك المرتفع ، ألا تريدين النزول ؟ أعدك بان لا افعل اي شيء آخر على الاطلاق ... هيا انزلي !

- كلا - لا انزل .

- انزلي ، ارجوك .

ثم اخذ يصعد نحوها فلوحت «هاتسو» بالصخرة . تراجع الى الخلف .

ـ هاي ، ماذا تفعلين ؟ حــذار أن تفعلي شـيئاً فالأمر بالغ الخطورة ... ترى ، ، ماذا يجب عليّ ان أفعل لكي تنزلي ؟ كان «ياسـو» يرغب في الهروب من ذلك الموقف الشـائك دون أن يفعـل شـيئاً ، ولكن خوفه من اخبار ابيها سمرَه في مكانه فأخذ يتملقها ليكسب ودها !

ـ .... ارجوك ، سأفعل كل ماتريدين ، انزلي فقطْ ... انك ، على ما اظن ، سوف تخبرين اباك عني أليس كذلك ؟

لم يكن هناك جواب على تساؤلاته ، ومع ذلك فقد قال .

ـ ارجوك أن تنزلي ، لا تخـبري اباك ... ارجـوك ... سـأقوم بكل ماتطلبين شرط أن لا تخبري أباك .... ماذا تريدين مني أفعل ؟

ـ حســن ، إلا اذا ســحبت لي الماء وحملته الطريق كله الى البيت .....

ـ حقاً ؟

ـ نعم .

ـ حســن ، ســأفعل ذلك بالتأكيد ، فالعـم «تيرو» انسـان يُخشى منه بكل تأكيد . شرع «ياسـو» بعـد ذلك في القيام بالعمل ـ بكل حماســة وصـدق مضـفياً على الموقف شـيئاً لا يخلو من طــرافة . ملأ الدلوين المقلوبين على الارض ثم وضـع طـرفي حبل الدلوين على العمود الخشـبي ووضع العمود ، بعد ذلك ، على كتفيه وبدأ في السير ... وبعد لحظة نظر الى الخلف فرأى «هاتســو» وقد هبطت من الأجمة دون ان يشــعر هو بذلك . هي الان تسير وراءه على مسافة ياردتين ولم تشأ حتى ان تبتسـم لذلك المنظر المضـحك . توقفـت عندما لاحـظت بانه قد توقف ، وحينما رأته ينزل من السلم الصخري نزلت هي الاخرى .

كانت القـرية انذاك لا تزال مسـتغرقة في نوم عميق وقد ســبحت سـطوح البيوت فيهـا بضـوء القمر المنير ، غير انها عندما هبطا من ذلك السلم الصخري واتجها نحو القـرية ، تناهى الى سمعها بالتدريج صـياح الديكة في كل الارجاء ـ صياحُ يشير الى ان ظهور الفجر باتَ وشيكاً .

ـ الفصـــل العـاشر ـ

عاد «هيروشي» الى الجـزيرة من الرحلة المدرسـية . كانت الامهـات ينتظرن على مرسى السفن للترحيب بابنائهن العـائدين في وقت كان المطر ينزل رذاذاً والبحر غير واضـح الرؤية . كانت المعـبرة على مسـافة مائة يـاردة من المرسى عندما لاح هيكلهـا من خلل الضـباب الكثيف ، وفي وقت واحـد نادت كل أم على ابنهـا حيث امكن الان مشـاهدة قبعـات الاولاد ومناديل التلويح بايديهم على سـطح ذلك المركب الكبير . رسـت المعبرة ، غير ان اولئك الاولاد - طلاب المرحلة المتوسـطة - حـتى وهم يقفون على الشاطيء يقابلون امهاتهم وجهاً لوجـه بعـد طـول غياب ، لم يفعلوا شيئاً سوى الابتسام فقط ، وبعد ذلك راحوا يلعبون فيما بينهـم بلا اكتراث . لعل كل واحد منهم كان يكره ان يظهر عواطفـه الحقيقية نحـو أمه امام زملائه من الطلاب .ظل انفعال «هيروشي» ، حـتى بعـد وصـوله الى البيت مفرطاً بحيث لم يسـمح له بالاسـتقرار والهـدوء . ومن بين كل ماستطاع التحـدث عنه خـلال رحلته كانت حـوادث تافهـة مثل ذلك الصياح الذي شعر فيه بحاجة كبيرة للنوم لان احـد أصـدقائه كان يخشى الذهاب الى دورة المياه بمفرده في الليلة السابقة مما حـدا به ان يربت على

«هيروشي» مرارا ليوقظه في منتصف تلك الليلة لكي يذهب معه الى هناك . لم يتحدث «هيروشي» حتى ولا بكلمة واحدة عن الاماكن التأريخية الشهيرة التي قاموا بزيارتها .

لا شك بان «هيروشي» قد عاد بانطباعات مثيرة عن تلك الرحلة ، غير انه لم يعرف كيف يعبر عنها بالكلمات . لقد حاول التفكير بما يريد ان يقول ، ولكن كل ما استطاع ان يتذكر كان شيئاً من قبيل ذلك الحدث الذي مضت عليه سنة او اكثر عندما اعتاد القيام ببعض مشاكساته الطريفة كأن يدهن ارضية الممر الداخلي للمدرسة بالشمع ليرى كيف ان احدى المدرسات كانت تتزحلق فتقع على الارض . اما عربات الترام المتوهجة ليلاً والسيارات التي فاجأته على حين غرة في تلك السفرة ، فقد ومضت في حياته واختفت كما اختفت معها تلك البنايات الشاهقة ومصابيح النيون التي ادهشته - ترى ، اين هي الان ؟ .

أما هنا في البيت ، فقد بقي كل شيء فيه على حاله تماماً قبل ان يقوم بتلك الرحلة المثيرة - نفس خزانة الملابس القديمة والساعة المعلقة على الحائط ومحراب بوذا الصغير ومائدة الطعام وخوان الزينة - ونفس تلك الأم العجوز ، واضافة الى ذلك ، هناك نفس فرن الطبخ وحصران القش التي تعلوها الاوساخ . ان هذه الاشياء كلها يمكن ان تعطف عليه وتفهم كل شيء عنه حتى دون ان يتفوه باي كلمات . ومع ذلك ، فان تلك الاشياء وبضمنها امه نفسها ، لابد ان يسرد عليها انباء رحلته تلك .

وأخيراً ، استقرت حال «هيروشي» وهدأت ثائرة مزاجه في الوقت الذي جاء فيه «شنجي» من رحلة التعب في الصيد اليومي

فتح «هيروشي» بعد تناول العشاء دفتر المذكرات عن تلك الرحلة فقدم لامه واخيه تقريراً عادياً عنها ، وبعد ان ارضي فضولها واقتنعا بكل شيء توقفا عن طرح الاسئلة حول تلك الرحلة .

عاد كل شيء الى سابق عهده عادياً تماماً ، كما ان حياته عادت هي الاخرى الى ماكان يعرفه عنها دون اللجوء الى التصريح عنها بالكلمات . و«هيروشي»،بعد ان احتضنته الاذرع الحانية الأليفة-نفس خزانة الملابس، والساعة المعلقة على الحائط ، امه واخوه والفرن الذي يعلوه السخام اضافة الى هدير البحر الذي لا ينقطع - استسلم الى نوم عميق حالم .

اقتربت عطلة «هيروشي» الصيفية من نهايتها ، وعلى هذا ، فهو في كل يوم ، من اللحظة التي ينهض فيها من الفراش حتى يأوى اليه ثانية ، كان يلعب بكل ماأوتي من طاقة .

كانت الجزيرة تحتوي على اماكن لعب كثيرة ، وبما ان «هيروشي» واصدقاءه قد شاهدوا الكثير من الافلام الاجنبية التي كانوا يسمعون عنها فقط ، فقد اصبح موضوع رعاة البقر والهنود الحمر اللعبة الاثيرة عندهم . لقد ذكرهم ، بما لا يقبل الشك ، منظر الدخان المتصاعد من نار الغابة الموجودة حول «موتورا» في شبه جزيرة «شيما» عبر البحر ، بالنيران التحذيرية المتصاعدة من بعض قلاع الهنود وحصونهم .

ان طيور الغاق في «أوتا - جيما» من الطيور المهاجرة ، وقد بدأت في هذا الوقت من السنة بالاختفاء الواحد بعد الآخر ، غير ان غناء العنادل الان كان يسمع باستمرار في كل انحاء الجزيرة . كان الطريق الذي ينحدر نحو المدرسة المتوسطة يعرف باسم «طريق الانف الاحمر» لكثرة ماتتأثر به انوف المارة اثناء الشتاء بسبب عواصف الريح الشديدة فيه ، لكن نسماته الان ، على الرغم من برودة الجو في النهار ، لا يمكنها صبغ الانف باللون الأحمر مطلقاً .

لقد هيأ رعن جبل «بنتن» ، في الطرف الجنوبي من الجزيرة ، مكاناً للأولاد يصلح ان يكون موضعاً لالعابهم التي اكتسبوها من مشاهدة الافلام الاجنبية . كان القسم الغربي من ذلك الرعن مغطى بحجر الكلس ويفضي الى مدخل كهف موجود في تلك الناحية . ذلك الكهف هو أحد اكثر الاماكن غموضاً في «اوتا - جيما» يبلغ عرض مدخل

الكهف الصغير حوالي الباردة والنصف ويبلغ ارتفاعه قدمين ، غير ان الطريق المتعرجة التي تؤدي الى ذلك الكهف تبدأ بالتوسع تدريجياً لتتفرع الى ثلاثة كهوف كبيرة . والطريق ، حتى تلك النقطة ، حالكة السواد تماماً ، غير ان تلك العتمة لاتلبث ان تبدأ بالارتعاش والتذبذب في داخل الكهف ، وذلك لان الكهف ، في واقع الحال ، كان ينفذ الى داخل رعن الجبل تماماً عند فتحة لا يمكن رؤيتها تقع في الجهة الشرقية يدخل منها البحر ، وهو في حالة من الارتفاع والانخفاض ، الى ممر صخري عميق .

دخل الاطفال ذلك الكهف وقد حملوا الشموع في ايديهم ودعا كل منهم رفيقيه بان يحترسا ثم اخذوا بعد ذلك بالزحف متسللين خلل الطريق الذي ساده الظلام . استطاع كل منهم ان يرى وجهي صديقيه يطفوان وقد علاهما لون خفيف يثير الاشمئزاز بفعل الضوء المرتعش الذي ينبعث من الشموع . لقد فكروا بالدهشة التي سيصابون بها تحت هذا الضوء فيما لو كانت لحاهم قد ارسلت طويلة كتلك اللحى التي تميز اولئك الشباب الشقاة الذين شاهدوهم في الافلام . تتألف تلك العصبة من «هيروشي» وسوشان وكاتشان» ، وهم في طريقهم الى اكتشاف «الكنز الهندي» عميقاً في الاطراف البعيدة المعزولة من ذلك الكهف . سار «سوشان» في المقدمة ، وحينما اصبحوا في داخل الكهف تماماً بحيث امكنهم الوقوف باعتدال في آخر الأمر شوهد «سوشان» وقد اكتسى رأسه كله بانسجة العناكب الكثيفة مما حدا برفيقيه ان يصيحا :

ـ هاي ! انظر الى نفسك ! ان الزخرفة تعلو شعرك ، وعلى هذا فانت تصلح ان تكون زعيم القبيلة حقاً .

وضعوا شموعهم الى اسفل كتابة سنسكريتية حفرها ، منذ أمد طويل ، شخص مجهول على أحد الجدران المكسوة بالطحالب .

اخذ البحر ، وهو ينحدر في الممر الصخري الضيق في الجهة الشرقية من الكهف ، يهدر بقوة اثناء اندفاعه الجارف نحو الصخور .

كان صوت الامواج الهادرة في داخل الكهف يختلف عما الفوه من اصوات خارج الكهف . انه صوت عنيف يتردد صداه القوي على جدران الكهف الكلسية ومن ثم تتداخل تلك الانعكاسات الصوتية فيما بينها لتحيل الكهف الى مسرح صاخب يبدو متأرجحاً بين الصعود والنزول بشكل لا يمكن تصديقه . لقد تذكروا ، وهم في سورة من الخوف والاضطراب ، الاسطورة التي تقول بأن ما بين اليوم السادس عشر والثامن عشر من القمر السادس يفترض ان تظهر سبع من اسماك القرش ذات لون ابيض ناصع من مكان مجهول عند ذلك الممر الصخري من البحر .

في تلك اللعبة ، قام الاولاد بتغيير ادوارهم وفق هواهم بحيث كانوا يتبادلون ادوار الاعداء والاصدقاء دون أن يعتريهم اي ارباك . قام «سوشان» بدور زعيم القبيلة بسبب نسيج العنكبوت الذي كسى رأسه تماماً ، أما الآخران فقد قاما بدور حارسي حدود الاعداء الالداء لجميع الهنود ، والان ، بعد أن الحت عليهم الرغبة في سؤال ذلك الزعيم عن السبب الذي انعكست فيه اصوات الامواج الهادرة بذلك الشكل الرهيب داخل الكهف ، اصبحا ، على حين غره ، نصيرين قويين لذلك الزعيم .

ادرك «سوشان» ذلك التغيير فاسرع بالجلوس على صخرة اسفل الشموع المتقدة تعلو وجهه سيماء من الهيبة والوقار .

ـ نرجوك ايها الزعيم ، ألا تخبرنا سبب هذا الصوت الفظيع الذي نسمعه ؟

ـ فأجابهما «سوشان» بنبرات صوت تدل على الوقار والاحتشام :

ـ هذا يا اولادي ـ هذا هو الغضب الذي يريد الله أن يظهره لنا .

وعند ذاك سأله «هيروشي» :

ـ وماذا نستطيع ان نفعل لتهدئة مثل هذا الغضب ياسيدي ؟

ـ حسن ، دعوني ارَ الان مايجب فعله ... نعم ، الشيء الوحيد الذي يجب القيام به هو تقديم القربان الى الله ثم نقوم بعد ذلك بترتيل الصلاة .

وعلى هذا ، فقد اخرجوا قطع الحلوى المصنوعة من الرز وقطع الكيك المصنوع من مربى اللوبياء التي اخذوها من امهاتهم أو سرقوها من البيت خلسة ، ثم وضعوا كل ذلك على ورقة صحيفة وبكل وقار وضعوا كل شيء على صخرة تشرف على الممر الصخري الضيق من البحر .

اخذ «سوشان» يسير مابين البطلين ثم تقدم عليهما بعظمة وخيلاء متجهاً نحو المذبح المقدس حيث رتل ، بعد ان جثا على الارض الجيرية ورفع ذراعيه عالياً ، تعويذة مرتجلة غريبة ثم صلى وهو يحني القسم الاعلى من جسمه الى الأمام مرة والى الخلف مرة اخرى . أما«هيروشي وكاتشان» فقد قاما ، الى الخلف من الزعيم ، بالركوع على الارض تعبداً واحتراماً لدرجة سرت برودة الأرض الصخرية من خلل قماش سراويلهما لتصل الى رضفاتهما .

لقد شعر «هيروشي» اضافة الى صديقيه الاخرين بانهم شخصيات حقيقية يؤدون دورهم في فيلم سينمي .

ويبدو ـ لحسن الحظ ـ ان سخط الاله قد خف كما هدأ هدير الامواج قليلاً ، وهكذا جلسوا متحلقين وتناولوا القرابين من حلوى الرز والكيك المصنوع من مربى اللوبياء من المذبح المقدس . كان طعم القرابين اشهى بعشرات من الطعام المعتاد الذي يتناولونه في بيوتهم .

تناهى الى سمعهم في ذلك الوقت بالذات هدير اكثر هولاً فتطاير رذاذ الماء بقوة من ذلك الممر الصخري حيث اتخذ ذلك الرذاذ من خلال العتمة شكل شبح وهمي شديد البياض واشاعت المياه المتلاطمة دمدمة في الكهف وتأرجحاً عنيفاً وبدا بان ذلك البحر انما كان يبحث عن فرصة لاختطاف اولئك الهنود الثلاثة المتحلقين تحت تلك القبة الصخرية الهائلة وابتلاعهم داخل اغواره البعيدة . وعلى الرغم منهم فقد استولى على

الثلاثة ذعر كبير ، وعندما هبت نفحة ريح شديدة ضآلة لم يعرف مصدرها وجعلت لهيب الشموع الموضوعة الى اسفل الكتابة السنسكريتية يهتز مضطرباً ثم لتطفيء واحدة منها في آخر الأمر ، ازداد الذعر في قلوب اولئك الاولاد اكثر فاكثر . ومع ذلك ، فقد حاول كل واحد منهم باستمرار ان يفوق الاخرين فيما يظهر من جرأة ، وهكذا ، ونتيجة لما يتمتع به الاولاد عادة من قدرات طبيعية مرحة ، فقد سارعوا لاخفاء ذلك الخوف الذي استولى عليهم تحت ستار من اللعب والمرح .

انقلب ، بعد ذلك ، كل من «هيروشي وكاتشان» الى بطلين هنديين خائفين فبدآ يرتجفان ، ومن ثم قال «هيروشي» بجزع كبير :

ـ اوه ! اوه ! انني خائف ! خائف ايها الزعيم ، يبدو ان الآله ما يزال غاضباً ، ترى مالذي أثار غضبه الى هذا الحد ؟ اخبرنا ، ايها الزعيم ، ارجوك ، اخبرنا !

جلس «سوشان» على الكرسي الصخري يرتجف ويهتز بعظمة وكبرياء كما لو كان زعيماً حقاً ، وبينما راح يضغط على مافي ذهنه من أفكار من أجل الاجابة ، استعاد «سوشان» الى ذاكرته تلك الاشاعة التي تناقلها الناس سراً وتهامسوا بها في ارجاء الجزيرة خلال الايام القليلة الماضية ، وبلا قصد سيء منه ، قرر أن يستغل تلك الاشاعة في الجواب على ذلك السؤال ، وهكذا تنحنح ثم قال : «السبب هو ذلك العمل اللااخلاقي ، ان ذلك يعزي الى المسألة التي ينقصها الصواب» . وعند ذاك سأل «هيروشي» :

ـ العمل اللاأخلاقي ؟ ماذا تعني ؟

ـ الا تعلم يا «هيروشي» ؟ أعني ماقام به اخوك «شنجي» من عمل مشين مع ابنة «مياتا» ـ «هاتسو» ، اعني اغواءها ... هذا ماأعنيه . ان هذا الشيء هو الذي أثار غضب الرب .

«هيروشي» ، وهو يسمع اسم اخيه يذكر على هذا النحو المشين ، ادرك بان شيئاً بذيئاً لابد وأن تناقلته الالسن عنه ، وعلى هذا ، فقد

انفجر غاضباً بوجه الزعيم واستولى عليه اضطراب شديد :

ـ ماهو الشيء الذي فعله اخي مع الاخت «هاتسو» ؟ ثم ماذا تعني بالاغواء ؟

ـ ألا تعرف حتى ذلك الشيء ؟ اعني ان ينام الفتى مع الفتاة .

وفي الواقع ان «سوشان» نفسه لا يعرف شيئاً عن معنى تلك الكلمة اكثر من ذلك ، لكنه كان يعرف كيف يضفي على تفسيره الكامل صوراً تحمل الاهانة والتقريع ، وعلى هذا فقد اندفع «هيروشي» بنوبة من غضب جارف نحو «سوشان» . وقبل ان يدرك «سوشان» جلية الأمر ، شعر بان هناك من كان يمسك بكتفيه ويصفعه على خده ، لكن الشجار أنتهى بسرعة وعلى نحو مخيب للآمال ، لانه في الوقت الذي دفع فيه «سوشان» على الحائط ، سقطت الشمعتان الباقيتان على الارض فانطفأتا .

لم يكن في الكهف شيء سوى ضوء معتم يكفي فقط ليرى احدهم وجه الآخر من غير وضوح . لم يزل «هيروشي وسوشان» يواجه احدهما الآخر وقد ضاقت انفاسهما ، لكنهما ادركا بالتدريج مدى خطورة مايسعيان اليه من شجار في مثل هذا المكان . واخيراً تدخل «كاتشان» ليقول :

ـ كفى شجاراً ، ألا تريان بان من الخطورة القيام بذلك هنا ؟

وهكذا اشعلوا عيدان الثقاب ثم التقطوا الشموع وتسللوا زحفاً خارج الكهف ولم يقولوا شيئاً ، بعد ذلك ، ابداً ....

وفي الوقت الذي اندفعوا فيه الى اعلى الجرف الصخري وغمرت اجسامهم بضوء النهار الرائق خارج الكهف ، وبعد ان وصلوا الى حافة الهضبة العليا ، عادوا الى سابق مودتهم وصداقتهم وبدوا كأنهم قد نسوا تماماً كل شيء عن ذلك الشجار قبل قليل . سارعوا عبر الممر الضيق على امتداد حافة رعن تلك الهضبة وهم يغنون :

على امتداد ساحل ((بنتن هاشيجو)) بفراسخه الخمسة
وعلى امتداد الساحل المليء بالجنائن ....

ان ساحل الفراسخ الخمسة يمثل اكثر المناطق الساحلية جمالاً وروعة في جزيرة «اوتا - جيما» وهو يمتد على طول الجهة الغربية من رعن جبل «بنتن» ، وترتفع في البحر ، في منتصف ذلك الساحل ، صخرة هائلة تدعى« جزيرة هاشيجو» ، وهي بحجم بيت ذي طابقين وتوجد ، في هذا الوقت بالذات ، فيما بين صفوف الكروم النامية فوق قمة تلك الصخرة ، اربعة او خمسة قنافذ بحرية لعوب تحرك ايديها وتتصايح فيما بينها حول أمور غير معروفة .

لوح الاولاد بايديهم لتلك القنافذ بالمقابل ثم واصلوا سيرهم على امتداد ذلك الممر حيث انشرت هنا وهناك في الحشائش الطرية بين اشجار الصنوبر قطع من الارض تحتوي على نباتات البيقة التي ظهرت ازهارها الحمر الجميلة .

وبعد قليل من الوقت ، اشار «كاتشان» الى البحر بعيداً من الشاطيء الشرقي لذلك الجبل بقوله :

- انظرا الى مراكب الصيد وشباكها الضخمة !

في ذلك الشاطيء كان الساحل الاخضر يحتضن خليجاً صغيراً تطفو على فمه ثلاثة زوارق صيد لم تتحرك انتظاراً لقدوم المد . تلك هي الزوارق التي كانت تستعمل شباك الصيد بطريقة بارعة حيث من المعتاد ان ترمى تلك الشباك الى قاع المحيط ثم تسحب بواسطة سفن صيد كبيرة .

وبعد ذلك صاح «هيروشي» بدوره انظرا !» ثم شارك صديقيه في مراقبة تلك البقعة المثيرة من البحر شزراً ، ومع ذلك فان الكلمات التي قالها «سوشان» له قبل قليل مازالت تضغط على صدره بكل ثقلها ويبدو ان ثقلها قد ازداد اكثر فاكثر بمرور الوقت .

عاد «هيروشي» الى بيته عند العشاء ومعدته خاوية ، أما «شنجي»

فهو لم يعد بعد . كانت امه لوحدها في البيت منهمكة في وضع الاغصان اليابسة في الموقد حيث امكنه سماع صوت تلك الاغصان المستعرة في الموقد الشبيه بصوت الريح . وحينذاك فقط كانت الروائح الطيبة تنتشر بدلاً من الروائح النتنة التي تنبعث من دورة المياه في ذلك البيت .

ـ اماه !

قال «هيروشي» ذلك وقد استلقى على الارض باسطاً ذراعيه ورجليه .

ـ ماذا تريد ؟

ـ ما معنى كلمة «اغواء» ؟ لقد قال احدهم بان ذلك ماقام به «شنجي» مع «هاتسو» ، ماذا يقصدون بذلك ؟

وقبل ان يدرك «هيروشي» معنى تلك الكلمة ، غادرت الأم مكانها عند الموقد وجلست مباشرة الى جواره وهو مستلق على الارض . كانت عيناها تتقدان ببريق غريب من خلل خصل شعرها المسدل الذي اضفى على تلكما العينين منظراً مرعباً .

ـ «هيروشي» ـ أنت ! اين سمعت ذلك ؟ من قال مثل هذا الشيء ؟

ـ « سوشان » .

ـ لا تردد مثل هذا الشيء مرة اخرى ، كما يجب ان لا تقول ذلك حتى لاخيك ، أما اذا فعلت ذلك فانني سوف امنع عنك الأكل أياماً طويلة . أتسمع ما اقول ؟

كانت الام بطبيعتها تغض الطرف عن شؤون الشباب الغرامية ولا تعيرها اهتماماً كبيراً ، فهي حتى في موسم الغوص ، عندما تقف كل واحدة من النسوة حول النار وتبدأ بترديد الاشاعات ، كانت تلوذ بالصمت ، لكن ، عندما تكون للاشاعة الماكرة الحقود صلة بابنها ، فلابد ان تقوم ، في هذه الحالة ، بما ينبغي عليها من واجب تجاه هذه القضية .

في تلك الليلة ، بعد ان استلم «هيروشي» للنوم ، اقتربت الأم من ابنها «شنجي» وهمست في اذنه بصوت خفيض حازم :

ـ هل تدري بان الناس ينشرون الاقاويل عنك وعن «هاتسو» ؟
هز «شنجي» رأسه واحمر وجهه خجلاً فتضايقت الأم بدورها ، لكنها اصرت على تلك النقطة بصراحة لا تعرف الاضطراب او الخشية :
ـ هل نمت معها حقاً ؟
ومرة اخرى هز «شنجي» رأسه .
ـ اذن انت لم تفعل شيئاً يستحق ان يتحدث عنه الناس . أهذه هي الحقيقة ؟
ـ نعم ، انها الحقيقة .
ـ حسن ، اذن ليس عندي مااقوله في هذه الحال ، ولكن حذار ، فالناس يتدخلون باستمرار في شؤون غيرهم .
ومع ذلك فلم تتخذ تلك القضية مساراً افضل ، ففي الليلة التالية ذهبت الأم الى الاجتماع في النادي الوحيد الموجود للنساء في تلك الجزيرة ، وفي اللحظة التي اطلت فيها توقف الجميع عن مواصلة الحديث كأن شيئاً قد شل عزائمهن . لا شك بانهن كن يرددن الاشاعات وينشرن الاقاويل عن هذا وذاك .
وفي الليلة التالية عندما ذهب «شنجي» الى «جمعية الشباب» حيث كان قد فاجأ الجميع بفتح الباب بقوة كما يحدث ذلك بصورة عفوية على الدوام ، وجد مجموعة من الشباب متحلقين حول احدى الطاولات يتناقشون بحماسة كبيرة حول موضوع معين تحت ضياء المصباح الكهربائي الخالي من غطاء ، ولكنهم حالما وقع نظرهم عليه لاذوا بالصمت لفترة من الوقت لم يسمع خلالها شيء غير صوت البحر الذي ملأ ارجاء الغرفة المعرضة للريح القارسة والتي خلت من كل أثر للحياة . جلس «شنجي» كالمعتاد متكئاً على الحائط ثم عقد ذراعيه حول ركبتيه ولم يتفوه بكلمة ، وبعد ذلك انطلق كل واحد من اولئك الشباب في التحدث على التو بطريقته الاعتيادية الملأى بالضجيج حول موضوع مختلف تماماً ، أما رئيس الجمعية ـ ياسو ـ الذي حضر الاجتماع مبكراً على غير المعتاد

هذا اليوم ، فقد القى بالتحية الى «شـنجي» عبر الطاولة التي يجلس اليهـا بطريقـة ودية . رد «شـنجي» على تحيته بتحية مماثلة اقترنت بابتسـامة مخلصة .

وبعد أيام ، بينما كان الثلاثة يتناولون طعام الغذاء على ظهر زورق الصيد «تايهي ـ مارو» وينالون قسطاً من الر احـة بعـد فترة الصـيد ، تحـدث «ريوجي» كما لو انه لم يعد يستطيع السيطرة على مشاعره :

ـ ايها الأخ «شـنجي» ان ما يجعـل دمي يفـور هو الاسـلوب الذي يتخذه «ياسو» في ترديد الاشاعات السيئة عنك .

ابتسم «شنجي» ثم لاذ بصمت رجولي بعد ان قال :

ـ حقاً ؟

كان الزورق ينزلق برقة وهدوء فوق الامواج الربيعية ، غير ان «جوكيجي» وهو المعروف بقلة الكلام انفجر يقول بسرعة :

ـ أنا أعرف ، اعرف بأن «ياسو» يشـعر بالغـيرة . ان هذا الشـاب المشاكس لا يتعدى ان يكون معتوهاً كبيراً . انه يدس بانفـه في كل شيء بسـبب مركز ابيه . شـخص يبعث على الضـجر ، ونظراً الى ان «شنجي» ، قد اصبح الآن محط انظار النسـاء فقـد التهـب قلبه بالحسـد والغيرة . انت يا «شـنجي» لا تعـر اهتماماً لما يقـول ، أما اذا حـدث في الموقف اي اضطراب او مشاكل فسوف اكون الى جانبك بالتاكيد .

وهكذا تحولت الاشـاعة التي اطلقتهـا «شـيوكو» ونشرها «ياسـو» الى موضوع يهمس به الناس باصرار في جميع مفـترقات الطرق في القـرية ، ومع ذلك فلم تصل تلك الاشاعة الى والد «هاتسـو» . في احـدى الليالي حدثت في القرية حـادثة لم يشـعر اهل القـرية بالملل في ترديدها لشـهور طويلة فيما بعد . كان ذلك الشيء قد حدث في الحمام العام .

لا توجد حمامات حتى في اكثر بيوت القرية ثراءاً ، وهكذا فقد ذهب والد «هاتسو» تيرو كيجي مياتا ـ في تلك الليلة الى الحمام العام كالمعتاد . اندفع من خلل السـتارة المسـدلة في المدخـل برأس مرفوع يملؤه الغـرور

والعجرفة ، وبعد ذلك اخذ يخلع ملابسه من على جسمه بقوة مثلما يسلخ لحم طير معد للأكل ويريها في سلة مجدولة من اغصان صغيرة عدا قميصه وحزامه ، فهما لم يدخلا السلة بل تبعثرا على الارض .

التقطهما باصابع قدمه ورماها في السلة مرة اخرى في لحظة لم ينقطع فيها لسانه عن الدمدمة وعدم الرضى . كان المنظر مرعباً بالنسبة لمن شاهده من الناس غير ان تلك كانت واحدة من بعض الفرص التي اتيحت لوالد «هاتسو» في اظهار الدليل العلني على انه ، وعلى الرغم من كونه عجوزاً ، ذو قوة مازالت في اوج عظمتها . كان منظره ، في الواقع ، وهو عار لما يثير الدهشة في عين كل من رآه . لم يظهر على اطرافه ذات اللون النحاسي الضارب الى الذهب ، مايدل على الكسل او التراخي وانتصب ، فوق عينيه الحادتين وجبهته المعاندة الشموخ ، شعر رأسه الابيض باضطراب كما ينتصب الشعر في رقبة الأسد . كان صدره أحمر متورداً نتيجة لما كان يتناول من شراب ثقيل لسنوات طويلة . لقد اضفى ذلك الصدر نوعاً من التباين المثير مع شعر رأسه الابيض . أما عضلاته النافرة فقد تصلبت نتيجة لاهمالها وهي بالتالي تشبه جرفاً صخرياً شديد الانحدار يمكن ادراكه بسهولة تحت ضربات الامواج المتلاطمة الهادرة .

والافضل ان يقول المرء بان «تيرو كيجي» ماهو إلا تجسيد لكفاح قرية «اوتا ـ جيما» وكدها وتصميمها وطموحها وقوتها . انه بقوته التي تبعث على الدهشة نوعاً ما ، كان رجلاً عظيماً رفع مركز عائلته من العدم الى الثراء في فترة جيل واحد ، وفي الوقت نفسه كان ضيق الافق لدرجة لم يرغب في قبول اي وظيفة عامة في تلك القرية ، وقد جعلته تلك الحقيقة موضع احترام كبير عند اهل القرية البارزين . ان قابلية التنبؤ الغريبة التي تتسم بالدقة فيما يخص المناخ عند ذلك الرجل وكذلك خبرته التي لا نظير لها في قضايا الصيد والابحار اضافة الى اعتزازه الكبير في معرفته بتاريخ وتقاليد الجزيرة ، ماهي الاّ نوع من الموازنة تقف امام

عناده الصلب وذرائعه التي تبعث على السخرية وميله للشجار والمشاكسة - تلك الامور التي لم يخف غلواؤها ولو مثقال ذرة طوال السنين الماضية . وعلى أية حال ، فان هذا العجوز يصلح ، على العموم ، ان يكون تمثالاً برونزياً يقام احياءاً لذكراه - على الرغم من انه لا يزال على قيد الحياة - دون ان يبدو ذلك مثاراً للضحك أو السخرية .

فتح العجوز الباب الزجاجي الذي يفصل مابين غرفة الملابس والحمام المزدحم بالناس ، ومن خلل طبقات البخار المتصاعد ظهرت معالم الناس الباهته وهي تتحرك في هذا المكان وذاك . ازدحم سقف الحمام بصدى الاصوات المنعكسة للماء المراق وضجيج الضربات الخفيفة للاحواض الخشبية والاحاديث الضاحكة . كانت قاعة الاستحمام ملأى بماء حار وفير ويسود المستحمين فيها شعور بالراحة والاسترخاء بعد يوم من العمل الشاق .

لم يبلل «تيرو كجي» جسمه قبل ان يدخل حوض الاستحمام كما هي العادة ، فهو الان ، كما اعتاد على ذلك باستمرار ، يسير بخطىً طويلة مهيبة من الباب الى الحوض مباشرة ، ومن دون ضجة يضع ساقيه في ذلك الماء الحار .

لم يهتم كثيراً بحرارة الماء ، فان اهتمامه بأمور من مثل تأثير الماء وما يمكن ان يفعل ذلك على قلبه أو الاوعية الدموية في دماغه ، لا يتعدى اهتمامه ، قل ، بما يستعمل من عطور أو ربطة عنق .

عندما شعر المستحمون ، وان كانت وجوههم مخضلة بالماء ، بان «تيرو كيجي» يقف امامهم ، حنوا رؤوسهم له بكل احترام ورقة ، وعند ذاك غطس العجوز حتى حنكه الذي اتسم بالزهو والغطرسة .

وهناك ، حدث ان كان صيادان شابان يغتسلان الى جوار الحوض لم يلحظا وصول «تيرو كيجي» ، وعلى هذا فقد استمرا في الحديث بشكل مباشر وباصوات مرتفعة عن تلك الاشاعة التي انتشرت حوله كثيراً :

ـ لابد ان العم «تيرو مياتا» هو الآن في دور طفولته الثانية ، فهو في وضع لم يعرف بان ابنته قد استحالت الى ابريق مهشم .

وعند ذاك علق صديقه بقوله :

ـ ذلك الشاب «شنجي كوبو» ، ألم يكن قد قام بخطوة متعجلة جريئة ؟ بينما يظن كل فرد منا بانه لا يزال طفلاً . ها هو ، كما ترى ، قد تجاوز كل شيء ليسرقها من تحت انف العم «تيرو» مباشرة .

استولى القلق على من كان يستحم في داخل الحوض ، فقد حولوا نظراتهم بعيداً عن «تيرو كيجي» .

احمر وجه «تيرو كيجي» وهو يغلي غضباً ، ومع ذلك فقد احتفظ ذلك الوجه بالهدوء ورباطة الجأش في الظاهر اثناء خروجه من الحوض . تناول حوضاً خشبياً صغيراً في كل يد ثم ذهب وملأهما من ماء الحوض البارد ، وبعد ذلك سار نحو الشابين فسكب الماء البارد الجليدي على رأسيهما دون سابق انذار واخذ فيما بعد ذلك يرفسهما على ظهريهما .

تهيأ الشابان ، بعيون نصف مغمضة بفعل الصابون ، في محاولة للرد على الضرب بالمثل ، ولكنهما عندما ادركا بانهما انما يقفان أمام «تيرو كيجي» نفسه ترددا عن القيام باي شيء .

قام العجوز بعد ذلك بمسك الشابين من مؤخرة عنق كل منهما وسحبهما ، بالرغم من البشرة الزلقة الملأى بالصابون تحت اصابعه ، الى حافة الحوض ، وهناك اغطس رأسيهما بعنف داخل الماء الحار . واثناء استمرار العجوز في مسك رقبتيها بقوة في يديه الضخمتين ، هز رأسيهما في داخل الماء وضرب رأس احدهما بالآخر تماماً مثلما يجفف قطع الغسيل .

وبلغ الأمر ذروته بعد ذلك حينما سار «تيرو كيجي» من غير ان يستحم ، الى خارج قاعة الاستحمام بخطىً واسعة دون ان يعير أدنى اهتمام لظهور المستحمين الذين وقفوا وقد تركهم ، بعد خروجه ، ينظر الواحد منهم في وجه الآخر بذهول خال من اي تعبير .

ـ الفصل الحادي عشر ـ

اثناء تناول طعام الغذاء على سطح زورق الصيد في اليوم التالي فتح الربان كيس التنباك فاخرج منه قطعة من الورق مطوية قدمها الى«شنجي» وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة ، ولكن حينما مد الشاب يده نحوها قال «جوكيجي» :

ـ اصغ الى ماأقول ، اذا اعطيتك هذه الورقة ، هل تعدني بانك سوف لا تلف وتدور في اقوالك بعد قراءتها .

وعند ذاك اجاب «شنجي» حول تلك النقطة بكل وضوح :

ـ أنا لست من ذلك النوع من الرجال .

ـ حسن ، انه عهد رجل اذن .... في صباح هذا اليوم وبينما كنت اسير بالقرب من بيت العم «تيرو» اسرعت «هاتسو» في اعقابي ثم دست هذه الورقة بقوة في يدي ولم تتفوه بكلمة . وبعد ان قامت بذلك عادت الى البيت . شعرت بوخز خفيف يدب في اوصالي وانا افكر في الحصول على مثل هذه الرسالة الغرامية في مثل عمري . فتحتها بعد ذلك ولكن ، كيف يمكن ان تبدأ الرسالة بعبارة ـ عزيزي «شنجي» ! ـ وعند ذاك قلت في نفسي : «ايها العجوز الأبله» ، كنت على وشك ان امزقها

وارميهـا في ماء المحيط ، غير انني فكرت في نفسي بان ذلك شيء معيب ، وهكذا جلبتها اليك مباشرة .

اخـذ «شـنجي» تلك الورقة بينما استغرق كل من الربان والشـاب «ريوجـي» بالضـحك عالياً . كانت الورقة مطوية عدة طيات حـتى استحالت الى كرة صغيرة . فتحها «شنجي» بكل حذر متحـاشياً تمزيقهـا باصابعه الضخمة الملأى بالعقد البارزة فتطاير التنباك الموجـود بين طيات الورقة على يديه . بدأت «هاتسو» الكتابة بالحبر ولكن بعد اسطر قليلة ، بدا واضحاً أن مداد الحبر في قلمهـا قد جف ولذا اضـطرت للكتابة بقلم رصاص رفيع ، وبيد تبدو طفولية . كانت الرسالة تقول .

« في الليلة الماضية سمع أبي وهو يغتسل في الحمام العام اشـاعة خبيثة تدور حولنا فاستشاط غضباً لذلك وأمرني بـأنه يتعين علي ان لا التقي بـ « شنجي » مرة اخرى ومهما حاولت من جهـد لتوضـيح الامر ، غير ان ذلك لم يجد . ان الامر ليس سهلاً مع رجل مثل أبي . لقـد طلب مني ان لا أخـرج من البيت ابتداءاً من الوقت الذي تصـل فيه زوارق الصـيد عصراً وحتى موعد مغـادرتها في صـباح اليوم التالي ، ثم قال بانه سـوف يطلب من السـيدة التي تسكن الى جـوارنا جلب الماء الينا عندما يأتي دورنا . وهكذا ، ليس هناك ماأستطيع القيام به . انني تعيسـة ، تعيسـة جداً لانني لا استطيع تحمل هذا . ولقد قال أبي ايضـاً بانه في الأيام التي لا تغـادر فيه الزوارق للصـيد ، سـيبقى الى جـانبي في البيت بحيث لا تفارقني عيناه ابداً . والان ، كيف يتسنى لي أن ارى «شـنجي ـ سـان» مرة اخرى ؟ ارجوك ان تفكر بطريقة نستطيع بها اللقاء ، ثم انني اخشى على كلينا مغبة ارسال الرسـائل عن طـريق البريد لان مأمور البريد ولا شك سيعرف كل شيء عنها . وعلى هذا فسوف اكتب رسـالة في كل يوم ثم اضعها تحت الغطاء الخشبي لزير الماء أمام مطبخنا ، كما انني ارجو ان تضـع انت الآخـر الجـواب على رسـالتي في نفس هذا المكان . وبما ان المجيء هنا لالتقاط الرسائل أمر لا يخلو من خطورة عليك لذا ارجوك ان

تطلب من صـديق لك تثق به للقيام بذلك لانني جئت الى الجـزيرة منذ فترة قصيرة وليس عندي والحال هذه من صديق يمكنني الوثوق به .

أوه ! «شنجي ـ سان» فلنستمر بهـذه العـلاقة بكل صـدق وبقلوب عامرة بالحب ، كما انني سوف اصلي في كل يوم أمام اللوحـين التذكارين لامي واخـي المتوفيين لكي لا يحـدث شيء لك بالمرة . انني على ثقـة بانهما ، وهما في السماء بسيعرفان حقيقة شعوري .»

عندما كان «شنجي» يقـرأ تلك الرسـالة ، ارتسـم على وجهـه تعبير يتراوح ما بين الشروق مرة والعتمة مرة اخـرى ، أو ما بين الاسى لافتراقه عن «هاتسـو» وما بين الفـرح الطاغي لما قدمته من دليل على حبها وتعلقهـا به . وحينما انتهـى «شـنجي» من القـراءة ، اختطف «جوكيجي» تلك الرسالة من يده كما لو كان ذلك حقـاً مفـترضاً يتمتع به حامل الرسائل الغرامية ، ومن ثم قرأها كلها . لم يقرأ تلك الرسـالة من أجل «ريوجي» حسـب ، بل كان يقـرأ بطريقته الغنائية الفـريدة . كان «شنجي» يعرف بأن «جـوكيجي» اعتاد على قراءة الجـريدة عالياً وبنفس هذه الطريقة الترتيلية وبانه يقوم الان بقـراءة الرسـالة من غير حقـد او قصد سيء ، ومع ذلك فقد تألم «شنجي» ان تقرأ تلك الكلمات الجادة التي كتبتها حبيبته بهذا الاسلوب الساخر .

لقد تأثر «جوكيجي» ، في حقيقة الامر ، بصدق تلك الرسالة ، فهو اثناء القـراءة كان يطلق الاهات الطويلة والاصـوات التي تدل على الدهشة او الانفعال . وعندما انتهى من القراءة ، اعطى رأيه بنفس نبرة الصـوت القـوي الذي كان يسـتعمله في اعطاء الأوامر اثناء الصـيد ـ الصـوت الذي أخـذ الان يدوي في فترة الظهـيرة الهـادئة وينتشر الى ما يساوي نصـف قطر من مائة ياردة في كل جهـة من البحـر . وبعـد ذلك قال :

ـ ان النساء يتسمن بالحكمة والتدبير حقاً ، اليس كذلك ؟

لم يكن في الزورق غير هذين الرجلين اللذين يثق بهما «شـنجي»

كثيراً ، وعلى هذا ، وبناءاً على الحاح من «جوكيجي» استطاع «شـنجي» ان يأتمن بالتدريج هذين الصديقين على كل اسراره .

كانت طريقته في سرد ما حدث له مع «هاتسو» طريقة خرقاء تنقصها البراعة وحيث كانت الاحداث تسرد بتسلسل غير قويم مما فسح له المجال بترك الكثير من النقاط الهامة . ان اعطاء صـورة مختصرة للحـدث كان يستغرق لديه وقتاً طويلاً ، غير انه استطاع في آخـر الأمر أن يصـل الى قلب الحقيقة وجوهر القضية المطروحة ، فقـد سرد عليهـم كيف انه ، في ذلك اليوم العـاصف وعلى الرغم من انهما كانا عاريين تماماً وقد احتضـن احدهما الآخر ، لم يفعل اي شيء على الاطلاق .

وفي هذه النقطة من الحديث ، لم يستطع «جوكيجي» ، وهو الذي ما اعتاد حتى على الابتسام تقريباً ، كبح نفسـه من اطـلاق ضـحكة مدوية وهو يقول :

ـ لو انني كنت في ذلك الموقف ، مجـرد لو انني كنت في مكانك ، حقاً ! يا للفوضى التي قمت بهـا في كل شيء ، ان هذا ، كما اظـن ، هو نتيجة للطهارة والعفـة اللتين تتصـف بهما ، ثم انني اظـن بان تلك الفتاة لابد وانها كانت ذات قوام مشدود شداً محكماً لدرجة لم تسـتطع السـيطرة عليها ... ومع ذلك فالقصة لا تخلو من طـرافة .. اوه ، لا تهـتم كثيراً ، سيكون الأمر على ما يرام عندما تتزوجها ... لا شـك بانك سـتسعد بهـا كثيراً .

اصغى «ريوجي» الذي كان اصغر من «شنجي» بسـنة واحـدة ، الى هذا الحديث كما لو انه لم يفهم منه إلا نصفه . أما «شـنجي» ، فلم يكن يتصف بالاحساس المفرط او سهولة التعـرض للاذى اللذين يتصـف بهما ابن المدينة في فترة حبه الاول . لقـد كان ما ابداه الربان العجـوز من دعابة سمجـة ، في واقع الحـال ، شـيئاً امكنه تلطيف ما كان يشـعر به «شـنجي» من ألم نفسي وادخـال الطمأنينة الى قلبه اكثر مما كان مصـدراً لازعاجه او اثارة خواطره ، كذلك سـاعدت امواج البحـر الرقيقـة التي

هزت زورقهم على بعث الهدوء في نفسه . أما الان ، وبعد أن اخبرهم «شنجي» بالقصة كلها ، شعر بالراحة والهدوء إضافة الى ان مكان العمل الشاق ذلك قد اصبح بالنسبة اليه مكاناً يكسبه راحة لا مثيل لها . و «ريوجي» الذي اعتاد على المرور بمحاذاة بيت «تيرو كيجي» في طريقه الى الشاطىء ، تبرع بان يقوم بنفسه بالتقاط رسائل «هاتسو» من تحت غطاء زير الماء كل صباح .

- اذن ، ستكون ، اعتباراً من الغد ، ساعي البريد الجديد .

قال «جوكيجي» ذلك كواحدة من نكاته القليلة النادرة .

اصبحت الرسائل اليومية تشكل موضوع المناقشة الرئيسة خلال ساعات تناول الغذاء في الزورق وقد اشترك الثلاثة في تحمل ضروب الحزن والمعاناة والغضب التي كانت محتويات الرسائل تحفل بها على الدوام . لقد أثارت الرسالة الثانية على وجه التخصيص سورة من الغضب الشديد عندهم لان «هاتسو» وصفت في تلك الرسالة كيف أن «ياسو» قد هجم عليها قرب ينبوع الماء في منتصف الليل وكيف أخذ يطلق التهديدات عليها . حافظت «هاتسو» على العهد الذي قطعته على نفسها فلم تخبر به احداً ، ومع ذلك ، فقد انتقم «ياسو» لنفسه وذلك بنشر الاكاذيب عن علاقتها بـ «شنجي» في طول القرية وعرضها . وعندما منعها ابوها من لقاء «شنجي» مرة اخرى ، شرحت التفاصيل بامانة لابيها ثم اخبرته عن تصرف «ياسو» الشائن معها ، غير ان أباها لم يفعل شيئاً بخصوص «ياسو» ، بل بالعكس ، بقي في الحقيقة على نفس العلاقات الودية السابقة مع عائلة «ياسو» واستمر في تبادل الزيارات معها ، أما «هاتسو» فلم يحمل قلبها سوى البغض الشديد لمرأى وجه «ياسو» .

ختمت رسالتها ، بعد ذلك ، مؤكدة له بانها سوف لا تتخلى عنه من أجل «ياسو» ابداً ...ابداً .

اصبح «ريوجي» منفعلاً جداً من أجل صديقه «شنجي» الذي برقت

عيناه في تعبير نادر يحمل في طياته الحقد والغضب ... ومن ثم قال :

ـ ان ذلك كله يحدث لانني فقير .

لم يعتد «شنجي» على ترديد كلمات الشكوى والتذمر ، ولذا فقد شعر بدموع الخجل تخرج من عينيه ، ليس لانه فقير الحال ، بل لانه كان اضعف من ان يستطيع رفع صوته دفاعاً عن تلك الشكوى التي صدرت عن «هاتسو» . وعلى الرغم من ذلك ، فقد امكنه التحكم في تعابير وجهه بكل ما يملك من طاقة متحدياً بذلك الدموع التي تساقطت بلا توقع ، وحاول كذلك تجنب الخجل المضاعف الذي لا شك سيستولي عليه فيما لو رآه الآخرون وهو يبكي . وفي هذه المرة لم يضحك «جوكيجي» .

كان «جوكيجي» يتمتع بالتدخين كثيراً ، وقد اعتاد ، وهو شيء يبعث على الغرابة ، على مناوبة التدخين بين الغليون يوماً والسيجاير يوماً آخر . وفي هذا اليوم كان الدور لتدخين السيجاير ، أما عندما يستعمل الغليون فهو لا ينقطع عن ضرب ذلك الغليون البرونزي الصغير القديم على حافة زورق الصيد ، تلك العادة التي تركت وراءها حفرة صغيرة في مكان محدد من الحافة العليا للزورق ، ونظراً لاعتزازه الكبير بزورقه فقد قرر التوقف عن استعمال ذلك الغليون . صار ، بدلاً من ذلك ، يدخن السيجاير فعمل لنفسه مبسماً للسيجاير منحوتاً من المرجان . اشاح «جوكيجي» بوجهه متحاشياً النظر الى الشابين ، وبعد ان امسك بمبسم السيجاير بين اسنانه أخذ يحدق في المدى الضبابي الواسع لخليج «ايسه» حيث كان رأس «مورو» يشاهد في اعلى نقطة من جبل «جيتا» ، ولكن بلا وضوح نتيجة لذلك الضباب الكثيف .

كان وجه «جوكيجي أوياما» يشبه قطعة من الجلد الاسود بفعل الشمس ، ثم سرى ذلك السواد حتى كاد يصل الى اعماق التجعدات التي تعلو وجهه الذي التمع كأنه الجلد المدهون . امتلأت عيناه الحادتان ببريق من النشاط والحيوية ، لكنهما فقدتا ، مع كل ذلك ، توهج

الشباب فبدتا ، بدلاً من ذلك ، وكأنهما قد صقلتا بما يشبه تلك الغبرة اللزجة العسرة التي صقلت بها بشرته مما جعلتهما تقاومان كل ضياء مهما كان شديداً .

ونظراً لما يتمتع به من عمر مديد وتجربة كبيرة في الصيد ، فقد كان يعرف كيف ينتظر بهدوء وسكينة . وفي تلك اللحظة قال :

ـ انني ادرك تماماً ماتفكران به . انتما ولا شك تخططان لضرب «ياسو» ضرباً مبرحاً ، لكن ، يجب عليكما الاصغاء الى ما اقول اولاً . ان ماتفكران به لا يجدى نفعاً ، فالمجنون يظل مجنوناً ، وعلى هذا يجب ان تتركاه وشأنه . انني اعرف بان الأمر لا يخلو من مرارة بالنسبة الى «شنجي» ، ومع ذلك فان الصبر هو ما يجب ان يتجمل به الانسان في مثل هذه المواقف ، وهو ايضاً ما يتطلبه الأمر بخصوص صيد الاسماك . لا شك ان كل شيء سوف يكون على ما يرام ، وسوف ينتصر الحق في آخر الأمر حتى وان لم يفصح عنه بالقول جهراً . ان العم «تيرو» ليس غبياً كما تظنان ، ثم لا تفكرا بانه لا يمكنه التمييز بين السمكة الجديدة والسمكة العفنة ، اتركا «ياسو» وشأنه فقط ، واعدكما بان الحق لابد أن ينتصر في آخر الأمر .

وعلى الرغم من التأخر المعتاد وهو يوم واحد على الدوام ، فقد سرت الاشاعة من داخل القرية لتصل الى اسماع من يسكن المنار في نفس الوقت الذي يجهز به اولئك الناس بالطعام والبريد . ان خبر منع «تيرو» لابنته «هاتسو» من لقاء «شنجي» أحال قلب «شيوكو» الى قطعة سوداء نتيجة لشعور الذنب الذي استولى عليها ، ومع ذلك فقد هدأت مشاعرها بفكرة هي ان «شنجي» لم يكن يدري بانها مصدر تلك الاشاعة الكاذبة ، وبالرغم من كل ذلك ، فهي لم تستطع التحديق في عيني الشاب عندما زارهم في أحد الأيام يحمل السمك هدية لهم . كانت تشعر بالاحباط تماماً ، لكن ابويها الطيبين ، من الناحية الاخرى ، كانا ،

وهما يجهلان حقيقة الأمر ، في اشد حالات القلق عليها نتيجة لتلك الكآبة التي المت بها .

اقتربت العطلة الربيعية من نهايتها فاقترب اليوم الذي ستعود فيه الى مبنى القسم الداخلي في طوكيو . لم تستطع الفتاة أن تقنع نفسها بفكرة الاعتراف بما قامت به ، ومع ذلك فقد استولى عليها شعور بانها لا يمكنها العودة الى طوكيو مالم تطلب الصفح من «شنجي» أما اذا لم تعترف بذنبها ، فسوف لا يكون هناك من سبب يدعو الى غضب «شنجي» ، ولكنها ، مع ذلك ، كانت تحدوها رغبة ملحة في طلب الصفح منه .

وهكذا سعت الى طريقة تدعى بواسطتها لقضاء ليلة ماقبل السفر الى طوكيو . في بيت مدير دائرة البريد في القرية ، وعلى هذا الاساس خرجت قبل فجر اليوم التالي من بيت مدير البريد بمفردها .

اتخذت ، في ذلك الوقت ، جميع الاستعدادات على الشاطىء للخروج للصيد حيث كان الصيادون منهمكين بتهيئة كل شيء تحت ضوء النجوم . تحركت الزوارق على كرهٍ منها على قطع الاخشاب المخصصة لأنزلاقها باتجاه البحر وتعالت الاصوات الهادرة اثناء اندفاع الزوارق البطيء نحو حافة الماء . لم يكن من الواضح رؤية أي شيء سوى المناشف البيض وقطع القماش التي تستعمل لتجفيف العرق والتي كان الصيادون يشدونها حول رؤوسهم .

غطس القبقاب الذي كانت «شيوكو» تلبسه بالرمل البارد تدريجياً فانزلق الرمل بدوره تحت اقدامها وهو يصدر اصواتاً هامسة ويتطاير بعيداً عن التقوسات الموجودة في قدميها .

انشغل الجميع فلم يلتفت أحد ناحية «شيوكو» التي ادركت من خلال الخجل المفاجىء الذي وافاها ، بان كل فرد من اولئك الناس الموجودين على الشاطىء وهم في تلك الدوامة من العمل الرتيب الجبار من أجل كسب الرزق والذين كانت جميع اجسامهم وارواحهم تحترق على السواء ، لا يمكنه مجاراتها فيما تحمله من سورات العاطفة الجياشة

التي تنوء تحت وطأتها . وعلى الرغم مما كانت تعانيه «شيوكو» فقد حدقت بكل لهفة من خلال عتمة الفجر بحثاً عن «شنجي» . كان الصيادون يلبسون ملابس متشابهة كذلك كان من المتعذر تمييز وجوههم في حمرة الشفق .

واخيراً ، كان أحد زوارق الصيد قد لامس امواج البحر فطاف على الماء كما لو أنه قد تحرر من قيود سجن ضيق . تحركت «شيوكو» غريزياً نحوه ثم اخذت تنادي على شاب اعتمر رأسه بمنشفة بيضاء . كان الشاب على وشك أن يقفز فوق الزورق ، لكنه توقف في تلك اللحظة واستدار . كشف وجهه الباسم عن صفين من اسنان بيض نظيفة ، فادركت «شيوكو» بان ذلك الشخص هو «شنجي» من غير شك .

ـ سوف اسافر في هذا اليوم ولذا اردت توديعك .

ـ اوه ـ سوف تسافرين ؟

ثم لاذ بالصمت ، ومن ثم بصوت ذي نبرة غير طبيعية كما لو كان يحاول البحث عن افضل شيء يجب قوله في هذا الشأن أجاب :

ـ حسن ... وداعاً .

كان الشاب على عجل من امره ، و «شيوكو» بعد ان ادركت هذا ، صارت اكثر منه تعجلاً . يبدو ان الكلمات قد احتبست عن الظهور ، كما ان الاعتراف بما بدر منها كان يبدو اكثر تمنعاً . اغلقت عينيها وهي تتمنى لو ان «شنجي» بقي امامها دقيقة اكثر من ذلك . لقد ادركت في تلك اللحظة بان رغبتها في الصفح عنها لم تكن في الواقع سوى قناع يخفي وراءه شعوراً برغبة طويلة في أن يكون رحيماً بها .

ترى ، ماهو الشيء الذي تريد هذه الفتاة القانعة ببشاعتها الصفح عنها من اجله ؟ لقد طرحت ، بدافع من حراجة الموقف في تلك اللحظة ومن غير وعي منها ، السؤال الذي ظل باستمرار دفيناً في اعماق قلبها ، سؤالاً لا يحتمل أن تسأل به احداً غير «شنجي» :

ـ «شنجي» ، هل أنا قبيحة لدرجة كبيرة ؟

ـ ماذا ؟

سألها الشاب وقد ارتسمت على وجهه نظرة حيرى . وعند ذاك كررت عليه السؤال :

ـ وجهي ـ هل هو قبيح الى درجة كبيرة ؟

تمنت «شيوكو» ان تعلو وجهها عتمة ذلك الفجر لتخفي بعض مافيه ، أو لعلها في تلك الحالة ارادت أن تبدو جميلة ولو بمقدار ضئيل ، لكن البحر من جهة الشرق اخذ يكتسي بالنور في هذا الوقت .

كان جواب «شنجي» » جواباً مباشراً ، فهو بسبب العجلة التي كان فيها ، لم يشأ ان يكون في موقف ربما كان الجواب البطيء فيه ذا تأثير كبير في اعماق قلبها .

ـ ولماذا السؤال ؟ انك لا شك جميلة .

قال ذلك وقد تثبتت احدى يديه على مؤخرة الزورق ، بينما بدأت احدى قدميه تستعد للقفز داخله ، واثناء ذلك قال مرة اخرى :

ـ انك جميلة ـ

وكما يعرف الجميع بان «شنجي» لم يكن مؤهلاً لاظهار ما يدل على النفاق ، أما الان ، في حراجة اللحظة التي وجد نفسه فيها ، فقد اعطى ، بكل بساطة ، جواباً يناسب السؤال الذي طرحته بالحاح .

بدأ الزورق في الابحار فلوح لها «شنجي» بفرح وهو على ظهر الزورق الذي سحبته المياه اليها . أما على الشاطىء فقد وقفت الفتاة هناك وقد امتلأ قلبها بالفرح والبهجة .

جاء ابواها ، في ساعات الصباح المتأخرة ، من المنار لتوديعها . كان وجه الفتاة ممتلئاً بالحيوية والفرح وهي تتجاذب الحديث معها . لقد ادهشتها تلك السعادة الغامرة التي بدت على ابنتها في طريق العودة الى طوكيو . تحركت المعبرة «كاميكازى» ـ مارو من المرسى وكانت «شيوكو» تقف لوحدها على سطح المركب الذي انتشر فيه الدفء . لقد تكامل ، في تلك العزلة ، شعورها بالسعادة التي غمرتها طويلاً صباح ذلك اليوم .

«قال بانني جميلة ، لقد قال بانني جميلة» ، رددت «شيوكو» تلك اللازمة مرات ومرات مع نفسها ، بل مئات من المرات منذ اللحظة التي قيلت فيها . ذاك هو الشيء الذي قاله وهو شيء يكفيني . يجب ان لا أتوقع شيئاً اكثر من ذلك ثم يتعين علي الامتناع وعدم التوقع في ان يقع في حبي . انه ... انه يحب فتاة اخرى ... ياللشيء الفظيع الذي قمت به ! ومع ذلك فقد جازاني على ذلك بقوله ، «إنني جميلة» . لابد ان اقدم له العوض .... على أية حال ، يجب ان اقدم له واستطيع مقابل العطف الذي اسبغه علي .

وفجأة انقطعت احلام اليقظة عندها بغناء غريب تناهى اليها عبر الامواج . وعندما استدارت رأت اسطولاً من الزوارق مكسوة باعلام حمر تبحر من جهة قنال «ايراكو» .

-ترى من اولئك ؟

سألت «شيوكو» مساعد ربان المعبرة ، وهو شاب كان مشغولاً بلف الحبل الضخم الذي تشد به المراكب الى الشاطىء عادة .

- انها زوارق الحج الى مزار «ايسه» . ان الصيادين من جميع انحاء «أنشو ويازو» في ساحل «سوروكا» ترافقهم عائلاتهم في زوارق صيد سمك الاسقمري للذهاب الى منطقة «ثوبا» . ان تلك الاعلام الحمر كلها تحمل في العادة اسماء الزوارق التي ترفرف فوقها ، وعند هؤلاء الناس من الوقت ما يكفي للشراب والغناء ولعب الورق على امتداد الطريق .

اصبحت الاعلام الان اكثر وضوحاً ، وفي الوقت الذي اقتربت فيه زوارق الصيد التي تجوس المحيط ، من المعبرة «كاميكازي ـ مارو» بدت الاصوات التي حملتها الريح اكثر خشونة .

ومرة اخرى رددت «شيوكو» مع نفسها «لقد قال بأنني جميلة» .

- الفصل الثاني عشر -

وهكذا اقترب الربيع من نهايته بينما لم يزل في الوقت متسع فيما يخص المناطق التي ازدهرت فيها الزنابق في الاجراف البحرية من الجهة الشرقية للجزيرة ، اضافة الى ان الحقول هنا وهناك قد تلونت بازهار مختلفة أخرى . عاد الاطفال الى المدارس ثانية ، وقد بدأت بعض النسوة فعلياً بالغوص في الماء البارد بحثاً عن الاعشاب البحرية التي تدعى «الشرائط الناعمة» .

ونتيجة الى ذلك فقد ازدادت البيوت التي يتركها اهلها نهاراً . لقد فتحت الابواب فيها والنوافذ مما أتاح للنحل دخول هذه البيوت بحرية والطيران في جنباتها بمفردها ، وكم كانت تذهل عندما تصطدم رؤوسها بسرعة على المرايا الموجودة هناك .

لم يستطع «شنجي» - وهو الشخص الذي تنقصه المهارة في التخطيط ، ايجاد طريقة يلتقي بها بـ «هاتسو» . وعلى الرغم من ان لقاءاتهم الاولى كانت قليلة وبفترات متباعدة كثيراً ، فان توقع تلك اللقاءات التي تبعث على السعادة جعل الانتظار شيئاً يمكن احتماله . أما

الان وبعد ان عرف بان اللقاء بها اصبح متعذراً ، ازداد اشتياقه لرؤيتها اكثر فاكثر . ومع ذلك فانه نتيجة للعهد الذي قطعه على نفسه أمام «جوكيجي» بعدم التسكع واضاعة الوقت ، كانت مسألة اخذ يوم يتمتع به كأجازة من الصيد امراً مستحيلاً . وعلى هذا ، فلم يعد هناك مايقوم به في كل ليلة ، بعد العودة من الصيد ، سوى الانتظار حتى تخلو الشوارع من المارة ومن ثم يأخذ بالتجول في المنطقة المجاورة لبيت «هاتسو» .

ويحدث في بعض الاحيان أن تفتح احدى نوافذ الطابق الثاني من البيت فتطل «هاتسو» منها وما عدا تلك الليالي التي يتكامل فيها القمر او يسطع بوضوح فان وجهها غالباً ما تغمره الظلال فلا يمكن رؤيته من خللها . ومع ذلك ، فان بصر الشاب الحاد كثيراً ما اعانه على رؤية وجهها بوضوح في كثير من الليالي لدرجة يستطيع فيها مشاهدة حتى عينيها اللتين تبللهما الدموع .

كانت «هاتسو» تلوذ بالصمت خوفاً من الناس المجاورين لها ، كما ان «شنجي» اعتاد ، اثناء وقوفه وراء السياج الصخري لحديقة البيت المزروعة بالخضروات الى الخلف ، أن ينظر الى وجه الفتاة دون أن يتفوه بكلمة واحدة . ولا شك بأن الرسالة التي سيجلبها «ريوجي» في اليوم التالي سوف تسهب كثيراً في وصف الألم الذي يسببه مثل هذا اللقاء الخاطف ، ولا شك كذلك بان «شنجي» وهو يقرأ تلك الكلمات ، سوف يتصور وجه «هاتسو» وصوتها وقد اتحدا في بؤرة واحدة ، وبأن تلك الفتاة الجامدة التي رآها في الليلة الماضية سيتصورها قادمة نحوه بجسد حي تتحدث معه وتتحرك .

ان مثل هذه اللقاءات تعتبر مصدر ألم بالنسبة الى «شنجي» . فهناك اوقات يفضل فيها ، من أجل اراحة عواطفه المكبوتة ، التجول في مناطق من الجزيرة لا يصل اليها اي واحد من اولئك القرويين إلا نادراً ، كما اعتاد في بعض الاحيان الذهاب الى مقبرة الامير «ديكي»

فوق الهضبة الصغيرة . لم تكن حدود الركام الذي يعلو قبر ذلك الامير واضحة ، ولكن توجد في اعلى نقطة من المكان سبع اشجار من الصنوبر وفي وسط تلك الاشجار توجد بوابة معبد وضريح .

اسطورة الامير «ديكي» يكتنفها الغموض حيث لم يعرف شيء حتى عن اصل اسمه الغريب . ومن خلال المهرجان الذي يقام في السنة القمرية الجديدة احتفاءاً بقدسية هذا القبر وقدمه ، يفتح الصندوق الغريب الذي يرقد في ذلك المعبد لفترة وجيزة من الوقت كل سنة فيسمح للازواج والزوجات ممن تجاوزوا سن الستين من القاء نظرة سريعة على ما يحتويه ذلك الصندوق ، الذي يبدو وكأنه شعار من شعارات النبلاء على شكل مروحة ، علماً بانه ليس هناك من يعرف بالضبط مدى العلاقة ما بين هذا الكنز وبين الأمير «ديكي» نفسه . ومنذ اكثر من جيل اعتاد اطفال الجزيرة ان ينادوا امهاتهم بلفظة «أيا» ، حيث يبدو بأن هذه اللفظة قد تبلورت عن الحقيقة التي تشير بان الامير نفسه اعتاد ان يدعو زوجته «هيا» وان ابنه الرضيع كان يخطيء في تلفظ الكلمة فيقول «أيا» عند محاولته تقليد ابيه في ذلك النداء .

ومهما كان الأمر ، فان القصة تلك تذهب شوطاً بعيداً في اعماق الزمن والتي تقول بانه عندما قذفت الامواج السفينة الذهبية التي كان الامير يركب فيها من ارض بعيدة ، رست تلك السفينة في هذه الجزيرة التي تزوج فيها بفتاة . وعندما توفي ذلك الامير دفن في هذا القبر الامبراطوري الفخم . ليس هناك من المعلومات ما يساعد على معرفة حياة الامير الخاصة ، كما ليس هناك ما يدل على صحة القصص الساحرة التي تروىٰ عنه والتي كان مبالغاً فيها من حيث التصاقها بهذه الشخصية الاسطورية ، واذا سلمنا بانه يمكن للاسطورة أن تستند على حقيقة ما فلابد في هذه الحال أن تكون حياة الأمير «ديكي» في «اوتا ـ جيما» حياة تغمرها السعادة والسلام لدرجة لم تترك مجالاً للحديث عن أية حكايات مأساوية اخرى ربما تركت بصماتها عليها .

لعل الامير «ديكي» كان كائناً سماوياً هبط على ارض مجهولة ، وربما عاش سنواته الأرضية تلك دون أن يعرفه أحد ، وهو ، مهما فعل او قام بما تيسر له من الامور ، لم تفارقه ظلال اجنحة السعادة التي رفرفت عليه ولا بركات السماء المعطاء التي نزلت عليه .

ومن يدري ؟ لعل هذا كان هو السبب في دفن رفاته على هذه الرابية التي تطل على ساحل الفراسخ الخمسة الجميل ومنطقة «هاشيجو ايسه» دون أن تقترن بذلك الاختيار أية قصة او حكاية اخرى .

ومع ذلك ، فلم يحصد «شنجي» غير التعاسة وهو يتجول حول ذلك الضريح وقد انهكه التعب . اتخذ مجلسه على الحشائش شارد الذهن وقد عقد ركبتيه وحدق في البحر الذي تألق في ضوء القمر الذي احاطت به هالة تنذر بمطر ربما تساقط في اليوم التالي .

في صباح اليوم التالي ، حينما توقف «ريوجي» عند بيت «هاتسو» لالتقاط الرسالة اليومية ، وجد بان تلك الرسالة قد ظهرت قليلاً من تحت احدى زوايا الغطاء فوق زير الماء الذي غطي ، اضافة الى ذلك ، بطست من المعدن يمنع عنه المطر .

استمر المطر طوال يوم الصيد ، غير ان «شنجي» امكنه قراءة تلك الرسالة خلال فترة الغداء بعد ان كان قد حافظ عليها تحت معطف المطر الذي يرتديه . كان من الصعب قراءة خطها ، ومع ذلك فقد اوضحت بانها كانت تكتب الرسالة في سرير النوم في الصباح الباكر تتلمس طريقها وهي تجوس في الظلام لكي لا تثير شكوك ابيها ان هي اشعلت النور في الغرفة .

اعتادت «هاتسو» ان تكتب رسائلها كيفما اتفق خلال النهار وكانت تضعها في المكان المخصص لها قبل شروع زوارق الصيد بالابحار في اليوم التالي ، غير انها ، في صباح هذا اليوم ، كتبت لانه كان لديها ما تريد قوله فوراً ، وهي ، على هذا الاساس ، مزقت رسالة اليوم السابق وابدلتها بهذه الرسالة الطارئة . واصلت «هاتسو» حديثها قائلة بانها قد

رأت في نومها حلماً جميلاً . لقد اخبرها الأله في ذلك الحلم بان «شنجي» ماهو الا تجسيد للامير «ديكي» ثم قالت بانها و «شنجي» قد تزوجا في غمرة من السعادة ورزقا بطفل كأنه جوهرة جميلة .

كان* «شنجي» يدرك بأن «هاتسو» لم تعرف شيئاً عن زيارته لضريح الأمير «ديكي» قبل ليلة واحدة ولذا فقد تأثر كثيرا بهذا الحدث الغريب لدرجة أراد فيها أن يكتب اليها بالتفصيل عند عودته الى البيت ليلاً وليخبرها عن المدلول العجيب الذي تضمنه حلمها وما كان يحمله من معنى عميق .

في الوقت الذي كان «شنجي» يعمل لاعالة اسرته ، لم يعد ضرورياً بالنسبة للام أن تمارس الغوص اثناء برودة الماء . وهي ، على هذا الاساس ، قررت ان تنتظر حتى حلول شهر حزيران للبدء بذلك الغوص . اعتادت تلك الأم ان تكد على الدوام ، أما الان ، وبعد ان مال الطقس الى الدفء ، لم تكن راضية عن نفسها لانها لم تمارس أي عمل آخر عدا العمل البيتي . وهي ، كلما وجدت نفسها من غير عمل تقوم به ، يستولي عليها ضيق يقترن بشتى انواع الهموم التي لا ضرورة لها .

ان الحزن الذي ألم بابنها سيطر على كل تفكيرها ، فهو الان يختلف تماماً عن ذلك الشخص الذي كان قبل شهور ثلاثة . نعم ، كان صامتاً كالسابق ، غير ان مرح الشباب الذي كان يضيء في وجهه ، حتى في اثناء صمته ، قد انطفأ الان . وفي صباح احد الأيام ، عندما انتهت من رتق بعض الملابس مرت بفترة من الوقت تبعث على الضجر بعد ظهر ذلك اليوم . اخذت تفكر ، وقد تحررت من الارتباط باي عمل معين ، فيما اذا كان بمقدورها القيام بشيء تستطيع بواسطته انتشال ابنها من التعاسة التي استولت عليه . لم يكن بيتهم من تلك البيوت التي تسبح بأشعة الشمس الرائقة ، ولكنها استطاعت ، من فوق سقف غرفة المخزن للبيت المجاور له ، رؤية سماء أواخر الربيع الهادئة .

غادرت البيت بعد ان صممت في داخل نفسها على القيام بشيء معين . اتجهت نحو الحاجز في الميناء مباشرة فوقفت هناك تراقب تكسر الامواج المتلاطمة فوق ذلك الحاجز ، فهي مثل ابنها ، كثيراً ما كانت تستشير البحر عندما يلم بها اي شيء يشغل تفكيرها .

كان الحاجز مغطى بحبال سلال صيد الاخطبوط لكي تجف ، كما انتشرت على الشاطيء ، الذي بدا الان خالياً من زوارق الصيد تقريباً ، شباك الصيد الجافة .

جلب انتباه الأم مشهد فراشة وحيدة تطير بمزاج متقلب لا يعرف الاستقرار من الشباك المنتشرة على الشاطيء حتى الحاجز البحري . كانت فراشة خطافية سوداء جميلة الشكل كبيرة ، لعلها جاءت الى هنا بحثاً عن زهرة جميلة غريبة نبتت فيما بين حبال الاشرعة أو في الرمل او حتى بين شقوق الكونكريت .

ليس في بيت الصيادين ما يمكن ان يسمى حديقة ، انما هناك خطوط من الازهار تمتد بمحاذاة الممرا ت الضيقة المحاطة بسياج من الصخر ، ويبدو واضحاً ، أن تلك الفراشة قد جاءت الى الشاطيء بعد ان أثارت تلك الازهار التافهة اشمئزازها وعدم رضاها .

كانت الامواج ، فيما وراء ذلك الحاجز ، تبعث الاضطراب في قاع البحر فيستحيل الماء ، تبعاً لذلك ، الى صفرة خضراء عكرة ، وحينما تتدفق تلك الامواج يتغير ذلك التوحل الى ما يشبه قطعة قماش تزخرفها اوراق اشجار الخيزران التي تتقاذفها الامواج عادة . رأت الأم ، في تلك اللحظة ، الفراشة وهي تطير فوق الحاجز لتقترب في طيرانها من سطح الماء الموحل حيث ارادت هناك ، على ما يبدو ، إراحة جناحيها لحظة ومن ثم حلقت في الهواء مرة اخرى . لقد قالت الأم في سرها ، «يا لها من فراشة غريبة ، انها في طيرانها هذا تقلد طائر النورس» في تلك اللحظة من التفكير تركز جل اهتمام الأم على الفراشة المحلقة .

كانت الفـراشة ، وهي تحـومَ في السماء ، تحـاول الطيران بعيداً عن الجزيرة . لقد واجهت بذلك نسيم البحـر مباشرة ، وعلى الرغم من رقة ذلك النسيم فقـد اسـتطاع ، على ما يبدو ، ان يدفع بأجنحـة الفـراشة الاكثر رقة داخل البحر . وهكذا ابتعدت الفراشة ، في أخر الأمر ، من تلك الجزيرة على الرغم من محاولات العودة التي قامت بها .

واصلت الأم التحديق فيها الى ان استحالت الى بقعة سوداء صـغيرة في صفحة السماء المتألقة بالضـياء . ظهـر رفيف تلك الفـراشة في زاوية واحـدة من مجـال نظر الأم ، ومن ثم وهي تطير بانخفــاض وتردد فوق سطح الماء ، عادت الى الحاجز ثانية بعـد ان سـحرها البحـر بســعته وألقه ، لانها ولا شك قد استسلمت لليأس بما تصورته من قرب للجزيرة الاخرى في وقت كانت فيه تلك الجزيرة الاخرى على ابعد ما تكون من مسافة .

اراحت جناحيها المتعبين على واحـد من الحبال الموضـوعة للتجفيف فاضافت بذلك على الارض ما يشبه ظل عقدة في ظـل ذلك الحبل الذي وقفت عليه .

لم تكن الأم معتادة على الايمان بالعلامات او الخرافات ، ومع ذلك ، فان المجهود اللا مجدي لتلك الفراشة قد التى بظلاله المجهولة فوق قلبهـا . «يا لها من فراشة حمقاء ! انهـا لو ارادت الانصراف حقـاً ، فان كل ما كان يجب القيام به هو ان تحـط على اي مكان تختاره في المعـبرة وينتهـي الأمر . انها مثل تلك الأم ، فهي ، في الوقت الذي ليس لها بالعـالم اي اهتمام معين خـارج تلك الجـزيرة ، لم تركب في تلك المعـبرة لســنوات طويلة .. طويلة جداً .

تولد في قلب الأم ، اثناء ذلك ولســبب من الاســباب ، اندفاع جـريء لا يخلو من طيش ، وهي على هذا انصرفت بخـطىً ثابتة سريعـة بعيداً عن ذلك الحاجز . بادرتها احـدى النسـاء اللواتي يعملن بالغـوص بالتحية وهي تسير في الطريق ، لكنها دهشـت عندما شـاهدت الأم وهي

تسير بذلك التصميم مستغرقة في تفكير عميق لدرجة انها حتى لم تبادلها التحية او ترد عليها .

كان «تيروكيجي مياتا» واحداً من اثرياء القرية ، وبالطبع ، فان كل ما يمكن قوله عن بيته هو انه كان جديداً اكثر بقليل من بقية البيوت الاخرى في القرية . ومن الناحية الاخرى ، لا يمكن ان يقال عن ذلك البيت بان سطحه الضخم المبني من الآجر يمكن ان يكون اعلى من البيوت المجاورة له ، كما انه ليس له باب خارجي كبير ولا سياج صخري ، اضافة الى انه لا يختلف في تصميمه عن البيوت الاخرى - فحفرة تجمع المياه القذرة تقع الى يسار الباب الرئيس وتقع نافذة المطبخ الى اليمين حيث يتشبث الاثنان بمركزين متساويين من حيث الظهور تماماً مثلما يحتل الوزيران مقعدي الشرف في اليمين واليسار في «مهرجان لعب الاطفال» وبالرغم من كل ذلك ، فقد كان البيت ، الذي بني على ارض منحدرة ، يوحي بالمتانة والرسوخ بسبب القبو الموجود تحت الارض - ذلك البناء الكونكريتي المحكم في ذلك المستوى الخفيض الذي كان منحدر الزقاق خارج البيت يميل عنده . لقد استعمل هذا الجزء من البناء كمخزن وله نوافذ يمكن فتحها على الزقاق الضيق مباشرة.

يوجد الى جوار المطبخ زير ماء كبير يكفي رجلاً كبيراً للزحف داخله . ان غطاءه الخشبي الذي اعتادت «هاتسو» أن تترك رسائلها تحته كل صباح ، كان ذا مظهر خارجي صمم بحيث يمنع تلوث الماء بالغبار او الاوساخ ، ومع ذلك ، فعند حلول الصيف يتعرض الماء في ذلك الزير الى البعوض والحشرات الطيارة الاخرى التي سريعاً ما تشاهد اجسامها الميتة طافية عليه .

ترددت أم «شنجي» فترة من الوقت قبل ان تدخل البيت . ان مجرد حقيقة مجيئها لزيارة بيت «مياتا» ، وهي التي لم تكن على علاقات ودية مع صاحبه ، يكفي لاطلاق السنة القرويين في ترديد الاشاعات والاقاويل الكاذبة . نظرت حواليها فلم تجد في الزقاق اي أثر لانسان ، ولم تكن

هناك سوى بضع دجاجات تنبش الارض بمخالبها وسوى البحر الذي رأته الى الاسفل من بين ازهار شجرة الازالية الهزيلة الموجودة في البيت المجاور ـ ذلك البحر الذي انعكس لونه في عينيها .

وضعت الأم يدها على شعرها تتحسسه ، وبعد ان تأكدت بانه لا يزال مشبوشاً بفعل نسائم البحر ، اخرجت من منطقة صدرها مشطاً أحمر صغيراً من السيللوز تكسرت بعض اسنانه وشرعت ترجل شعرها بسرعة . كانت الام ترتدي ملابس العمل اليومية التي تملؤها الرقع . لقد بدت للعيان ، اسفل وجهها الذي خلا من المساحيق ، منطقة صدرها الذي أحمر بفعل حرارة الشمس ثم سترتها التي تشبه الكيمونو وسروال العمل الفضفاض المزرر عند الكاحل اضافة الى التنورة القصيرة التي تلبس معه . انتعلت في قدميها قبقاباً من الخشب ، غير ان اصابع قدميها قد تورمت بسبب الجروح المتكررة والكدمات التي اصابتها نتيجة لاسلوب الغوص الذي تمارسه النساء حيث اعتدن على الدوام ضرب القاع باقدامهن او رفسه قبل الخروج الى سطح الماء . أما اظافرها فقد كانت سميكة شديدة الالتواء وقدماها ابعد من ان يكونا جميلين ، ومع ذلك ، فان ذلكما القدمين ، عندما يقفان على الارض ، يبدوان متماسكين وعلى قدر كبير من الرسوخ .

فتحت الباب ثم دخلت الى غرفة العمل البيتي الرئيسة . رأت، هناك عدة ازواج من القباقيب ملقاة بلا نظام على ارض الغرفة الترابية وكان واحداً منها مقلوباً الى اعلى . لقد بدا لها بان زوجاً منها كان ذا سيور حمر وقد عاد لتوه من جولة قرب البحر ، وذلك لان الرمال الرطبة التي اتخذت شكل أثار الاقدام مازال قسم منها عالقاً على وجه كل قبقاب .

ساد الصمت ارجاء البيت وانتشرت في الهواء رائحة نتنة انبعثت من التواليت . كانت الغرف المفتوحة ذات الارضيات الترابية معتمة ، لكن جزءاً من ضوء الشمس ، الذي تسرب من خلل نافذة تقع خلف البيت

ولتتكون منه بقعة ساطعة تشبه غطاء من القماش له لون الزعفران ، يقع علي ارضية واحدة من تلك الغرف البعيدة . وهنا صاحت الأم :

ـ طاب يومكم .

انتظرت فترة من الوقت ، ولما لم تسمع جواباً صاحت ثانية .

نزلت «هاتسو » من السلم القائم الى جانب الغرفة ذات الارضية الترابية وقالت بدهشة :

ـ ماذا ؟ خالتي !

كانت تلبس سروالاً ذا لون هاديء وقد ربطت شعرها بشريط اصفر ـ يا له من شريط رائع !

اثنت الأم على ذوق «هاتسو» ، ثم اخذت تتفحص الفتاة ، التي تدله ابنها بحبها ، كلياً اثناء الحديث معها .

بدا وجه «هاتسو » ، وربما كان مجرد تصور من جانبها ، مرهقاً قليلاً وفيه اثر من هزال وذا بشرة شاحبة ، وعلى هذا ، فقد بدت عيناها السوداوان بالصفاء والبريق الظاهرين عليها ، اكثر جحوظاً . أحمر وجه «هاتسو » من الخجل عندما شعرت بانها موضع تفحص الأم وتدقيق نظرها .

كانت الأم في غاية الجرأة ، فهي في طريقها لمقابلة «تيروكيجي» من أجل الدفاع عن ابنها واظهار براءته ومن أجل ان تعرض امامه قلبها العفيف الطاهر ومن أجل ان تهيء بالتالي فرصة لزواج الشابين . أن أفضل حل لذلك الموقف الشائك ، كما ترى ، هو ان يتناقش الابوان وجهاً لوجه ......

ـ هل ابوك في البيت ؟

ـ نعم .

ـ اريد التحدث اليه في أمر هام ، فهل ستخبرينه بذلك من فضلك ؟

ـ نعم ، دقيقة واحدة .

صعدت «هاتسو» على السلم وقد ارتسم على وجهها تعبير لا يخلو من القلق ، أما الأم فقد اتخذت مقعدها على احدى درجات السلم الذي يوصل الغرفة الطينية ببقية اجزاء البيت . انتظرت طويلاً وكم تمنت لو أنها جلبت معها بعض السيجاير ، وشعرت ، اثناء ذلك الانتظار ، بان شجاعتها تخونها ، ومن ثم ادركت مدى الحماقة التي قادها اليها خيالها .

صرت درجات السلم بهدوء عندما شرعت «هاتسو» بالنزول ، لكنها لم تنزل السلم كله فقد صاحت من وسطه وهي تحني جسمها قليلاً . لقد ساد الظلام تلك الدرجات ولم يعد بالامكان رؤية وجهها بوضوح اثناء ما كانت تشخص ببصرها الى الاسفل وهي تقول :

- اوه ، أبي يقول بانه لا يريد مقابلتك .....

- لا يريد مقابلتي !

- نعم ، ولكن ...

انسحقت شجاعة الام تماماً بهذا الجواب فدفعها الشعور بالهوان الى سورة عاطفية متفجرة . لقد استعادت من خلال ومضة ذهنية سريعة شريط حياتها الطويل المليء بالعرق والكد وكل المتاعب التي واجهتها اثناء ترملها . وبنبرة صوت خاصة ، بدت الأم وكانها تبصق في وجه شخص ما ، ثم زعقت ، ولكن ، ليس قبل ان تكون في منتصف مدخل الباب الرئيس ، بأعلى صوتها !

حسن ، أذن انت تقولين بانك لا تريدين رؤية ارملة فقيرة ، ولعلكم كذلك تقصدون بانكم لا تريدون مني اجتياز عتبة باب الدار ثانية ، حسن ، دعيني اذن اقول لك شيئاً ، واخبري اباك بدورك ، اسمعي ! اخبريه انني قلت ذلك لمرة واحدة فقط - انني سوف لا اجتاز ، طوال حياتي ، عتبة داره اللعينة هذه ابداً .

لم تستطع الأم ان تحمل نفسها على اخبار «شنجي» حول الاحباط الذي رافق محاولتها ، وبأنها وهي اثناء البحث عن كبش فداء ، لم تجد غير «هاتسو» تصب عليها جام غضبها وحقدها . رددت الام تلك

الكلمات القاسية الشائنة على مسامع «هاتسـو » ، وهي ، بدلاً من ابداء العون لابنها ، واجهته في البيت بشجار عنيف بعـد تلك المقـابلة دون ان يعرف أيَّ سبب لذلك الشجار .

لم تتحـدث مع ابنهـا يوماً كاملاً ، لكنهما تصـالحا في اليوم التالي . وهكذا ، فقد استحوذت على الأم رغبة مفاجئة في التعاطف مع ابنها ، ثم اخبرته بكل تفـاصيل زيارتهـا التي اخفقـت في بيت «تيروكيجـي» . أما «شـنجي» فقـد عرف كل شيء عن تلك الزيارة من احـدى رسـائل «هاتسو» .

اسـقطت الأم ، في ذلك الاعتراف ، المشـهد الاخـير من الزيارة وكلمات الوداع الغاضبة التي فاضت بها روحها كما ان رسالة «هاتسـو» ، لاعتبارات تخص مشاعر «شنجي» ، لم تتعرض الى تلك الامور ابداً . لم يعـد هناك ما يعلق في ذهن «شـنجي » نتيجـة لكل ما مر سـوى فكرة تكتنفهـا صـور من الظلم والالم الشـديد لما اصـاب أمه من اذلال عندما طـردت من بيت «تيروكيجـي» لقـد قال الشـاب ذو القلب الرقيق في نفسـه ، حـتى وان كان لا يتفـق مع ما قالت امه من كلمات غير لائقـة حول «هاتسو» ، بانه على الرغم من كل ذلك لا يمكن ان يلومهـا في كل ماقالته . انه ، حتى هذه اللحـظة ، لم يحـاول اخفـاء حبه الكبير نحـو «هاتسو» عن أمه ، غير انه قرر من الان فصاعداً ان لا يثق باي انسان عدا ربان الزورق الذي يعمل عليه وزميله «ريوجـي» . لقـد قرر «شنجي » ذلك من خلال حبه الشديد لأمه وتفانيه في سبيلها .

وهكذا مالت الأم ، بعد ان قامت بذلك العمل الكبير وفشلت فيه ، الى عزلة تفوق عزلتها السابقة . من حسن حظ «شنجي» ان ليس هناك يوم راحـة معـين من الصـيد ، لانه لوكان له مثل هذا اليوم ، فلابد ان يكون هذا اليوم مدعاة لاستغاثة «شنجي» من الضجر الذي يسـببه وذلك حينما لا يمكنه الالتقاء بـ «هاتسو» .

وفي أحـد الايام جلب «ريوجـي» بعـد شـهر مايس الذي لم يزل فيه اللقاء بالفتاة غير مسموح به ابداً ، رسـالة جعلت «شـنجي يفقـد اتزانه من شدة الفرح .

كانت الرسالة تقول :

«في ليلة غدٍ» ، يا للدهشـة ! سـيزور أبي بعض الضـيوف . انهـم موظفون من «تسو» ولابد انهم سـيقضون الليلة في بيتنا . ان أبي ، عندما يحـل الضـيوف في دارنا ، يميل الى الافراط في الشرب دائماً ويأوي الى فراشه في ساعة مبكرة نوعاً ما . وعلى هذا الأساس يمكنني التسـلل بكل اطمئنان خارج البيت حـوالي السـاعة الحـادية عشرة ليلاً . أرجـو ان تنتظرني أمام مقام «ياشيرو» ... عندما عاد «شـنجي» من الصـيد في ذلك اليوم ، لبس ثوباً جـديداً ، وجلسـت أمه ، التي لم يخـبرها بما يحـدث ، تحدق فيه بعصبية واهتياج . لقد شـعرت كما لو انهـا تنظر اليه ، وهو في هذه الحـال ، للمرة الثانية ، أما نظرتهـا الأولى ، فقـد كانت اليه عندما خرج في ذلك اليوم العاصف في وقت سابق من الان .

كان «شنجي» يدرك ما فيه الكفاية بخصوص الانتظار وما يسببه من ألم ، وعلى هذا فقـد قرر بان من الافضـل ان يجعـل تلك الفتاة تقـاسي مرارة الأنتظار في هذه المرة ، ومع ذلك فقــد عزَّ عليه القيام بذلك . خـرج من البيت حـالما اسـتسلم كل من أمه واخيه الى النوم . لم يزل الوقت مبكراً ساعتين عن موعد اللقاء .

شـعر بانه يسـتطيع تمضـية وقت الفـراغ هذا بالذهاب الى «جمعية الشباب» ، فقد كان النور ساطعا من نوافذ المقر الذي بني على شـاطيء البحـر ، واسـتطاع كذلك ان يسـمع اصـوات النزلاء في ذلك السكن ، لكن شعوراً اعتراه في أخـر لحـظة هو انهـم ربما كانوا يتهـامسون عنه ويرددون الاشاعات حول قضيته بالذات ، ولذا فقد قرر السير في طريقه لا يلوي على شيء .

أثناء سيره باتجاه الحاجز البحري الملفوع بغلالة من الظلام ، ادار وجهه الى نسائم البحر فاستذكر ، وهو على هذه الحال ، السفينة البيضاء التي رآها تبحر في مكان كانت خلفيتة غيوماً تسبح في الغسق على امتداد الافق في ذلك اليوم الذي عرف فيه كل ما يخص «هاتسو» من معلومات بواسطة «جوكيجي» ، وتذكر كذلك الشعور الذي انتابه وهو يرى السفينة تشق طريقها في عباب البحر . كان ذلك هو «المجهول». وطالما كان يرقب ذلك «المجهول» من تلك المسافة مال قلبه الى الهدوء والسلام ، ومع ذلك ، فهو اذا اراد مرةً ركوب متن ذلك « المجهول » والشروع في الابحار ، فلابد أن تتحد عوامل القلق واليأس والاضطراب والكرب ، فيما بينها لتندفع نحوه بكل ما أوتيت من قوة .

ادرك بانه على علم بالسبب الذي حدا بقلبه ، الذي كان يجب ان يمتليء بالفرح في هذه اللحظة لان يسحق حتى لم يعد قادراً على الحركة . ان «هاتسو» التي سيقابلها في هذه الليلة لابد ان تصر على وضع حل سريع او ما يشبه هذا للمشكلة التي احاطت بهما ... الهروب ؟ لكنهما يعيشان في جزيرة معزولة ، واذا كان عليهما أن يهربا بأحد المراكب ، وبالطبع ، شنجي لا يملك مثل هذا المركب ، ولا يملك ، وهو الاكثر اهمية ، ما يكفي من النقود للقيام بذلك . انتحار ثنائي ؟ وحتى في هذه الجزيرة ، هناك من العشاق من ارتضى بهذا الحل ، غير ان مشاعر الشاب الطيبة قد استنكرت مثل هذه الفكرة ، حيث قال في نفسه بان اولئك المنتحرين انما كانوا انانيين لا يفكرون إلاً بانفسهم . انه لم يفكر بشيء اسمه الموت ، وفوق ذلك ، فهناك عائلة لم تزل بحاجة الى مساعدته .

وبينما كان فكره موزعاً في تقليب هذه الامور ، مضى الوقت على نحو يلفت النظر .

ان هذا الشاب الذي لم يكن حاذقاً في التعمق بالتفكير ، دهش لدى

اكتشافه بان احدى خصائص الاستغراق المتوقعة في التفكير هي فاعليته في تمضية الوقت مهما كان طويلاً وعلى الرغم من كل ذلك فقد ادار الشاب بارادته القوية دفة افكاره بسرعة ، وبغض النظر عن فاعلية التفكير وتأثيره ، فان الشيء الذي استطاع اكتشافه قبل كل شيء ، عدا تلك العادة التي يساعد التفكير من خلالها على قتل الوقت ، هو ان الاستغراق في التفكير ينطوي على خطر واضح كذلك . لم تكن عند «شنجي» ساعة يدوية ، لانه ، في الحقيقة ، لا يحتاج الى مثل هذه الساعة . لقد منح ، بدلا عن ذلك ، مقدرة عجيبة في الاحساس بالوقت فطرياً ليلاً كان ذلك او نهاراً .

تحركات النجوم مثلا ، فهو وان لم يكن خبيراً في قياس مواضعها بشكل دقيق ، الا انه يدرك دوران عجلة الليل الهائلة اضافة الى دوران عجلة النهار العملاقة .

ليس من الغريب بالنسبة لوضع «شنجي» والتصاقه بكل ما يجري في الطبيعة ، ان يفهم النظام الدقيق الذي تسير الطبيعة وفقه .

لكنه ، في الوقع ، حينما كان جالساً على الدرجات المؤدية الى مدخل مكتب مقام «ياشيرو» سمع الساعة قبل ذلك تعلن عن دقة واحدة حيث تشير في هذه الحالة الى نصف ساعة ، فتأكد عند ذاك تماماً بان الوقت قد تجاوز العاشرة والنصف مساءاً . لابد ان الكاهن وعائلته مستغرقون في نوم عميق الان . استرق الشاب السمع وهو يضغط باذنه على مصاريع نوافذ البيت واخذ يعد ، بكل ما كان لجسمه من فاعلية ، الدقات الاحدى عشرة التي اعلنت منفردةً لاحدها من ساعة الحائط الموجودة في الداخل .

نهض الشاب ، وبعد ان مر من خلال الظلال المعتمة لاشجار الصنوبر ، توقف في اعلى درجات السلم الذي يحتوي على مائتي درجة ـ درجات تؤدي ، الى الاسفل منها ، نحو القرية . لم يظهر القمر في السماء بسبب الغيوم الرقيقة ولم تظهر هناك سوى نجمة واحدة تبدو للعيان بين

فترة واخرى . ومع ذلك فان تلك الدرجات الكلسية ، وهي تستقطب كل بصيص اخير من ضوء الليل الباهت ، وبعد ان تبدو تلك الدرجات وكأنها عتمة هائلة ، تنحسر تلك العتمة ، في أخر الأمر ، عن الموضع الذي يقف فيه «شنجي» .

اختفى امتداد خليج «ايسه» الهائل في ظلام الليل ، غير ان الاضواء لا زالت تشاهد على الشواطيء البعيدة متناثرة على امتداد كل من شبه جزيرة «شيتا» وشبه جزيرة «اتسومي» ، ثم تجتمع تلك الاضواء على نحو كثيف لا يخلو من جمال حول جزيرة «اوتا - جيما» .

شعر الشاب باعتزاز كبير وهو يلبس ذلك الثوب الابيض الجديد وكان على يقين من ان بياضه الفريد سيجلب اهتمام «هاتسو» مباشرة ، حتى وهي في اسفل السلم الذي يحتوي على مائتي درجة .

تكور ، بعد حين ، في منتصف المسافة لتلك الدرجات الصخرية ظل اسود لشيء يبدو وكأنه قد انحنى بكل مهانة وخوف . كان سبب زيادة عتمة ذلك الشيء هو اشجار الصنوبر التي استقامت على كلا جانبي السلم في ذلك الموضع ... ثم ظهر بعد ذلك هيكل يبدو ضئيلاً جداً عند اسفل درجات السلم فوثب قلب «شنجي» من شدة الفرح . لم يكن صدى الصوت العالي لذلك القبقاب الخشبي وهو يسرع بكل ثقة نحو اعلى السلم ، متناسباً مع صغر حجم ذلك الشخص . استمرت الخطوات على نحو متواصل لا يعرف التعب ، أما «شنجي» فقد قاوم رغبته في النزول الى الاسفل لمقابلتها ، وفضلاً عن ذلك ، فانه ، نظراً لذلك الانتظار الطويل ، فقد كان يشعر بانه يحق له البقاء هادئاً حيث هو في الاعلى - وعلى اية حال ، فمن المحتمل انه وهي تقترب من النقطة التي تكفي لمشاهدة وجهها ، ادرك بان الطريقة الوحيدة التي كانت تمنع ترديد اسمها بصوت مرتفع هو الاسراع الى الاسفل من أجل لقائها . متى سيمكنه النظر الى وجهها بوضوح ؟ حوالي الدرجة المائة ؟ ماذا ؟ - في

تلك الاثناء سمع «شنجي» هديراً غريباً يدل على الغضب من الاسفل . كان الصوت ، بكل تأكيد ، ينادي «هاتسو» باسمها . تلعثمت الفتاة على حين غرة وترددت من هول الموقف الذي واجهته في الدرجة المائة من ذلك السلم ـ تلك الدرجة التي كانت اوسع قليلاً من باقي الدرجات . استطاع «شنجي» ، بعينيه الحادتين ، ان يرى صدرها وهو يعلو ويهبط من شدة الخوف . لقد خرج ابوها من بين ظلال الاشجار التي اختبأ بينها فسكها من رسغها ، وقد لاحظ «شنجي » بانهما كانا يتبادلان كلمات عنيفة .

وقف الشاب في مكانه لا يتحرك كما لو انه قد قيِّد الى ذلك الموضع . ولم يلتفت «تيروكيجي» ناحية «شنجي» في وقت لم يزل يمسك فيه بمعصم ابنته حتى شرع بالنزول الى الاسفل .

لم يعرف «شنجي» ما يفعل ، وبشعور بدا فيه وكأن رأسه كان نصف مشلول ، استمر واقفاً بنفس ذلك الوضع الثابت كحارس تحتم عليه ان لا يتحرك في اعلى السلم الصخري .

وصل الاب وابنته اسفل تلك الدرجات ثم استدارا يميناً واختفيا بعد ذلك ، عن النظر تماماً .

ـ الفصـــل الثالـــث عـــشر ـ

استقبلت الشابات في الجزيرة حلول موسم الغوص بشعور من الوجل اطبق على قلوبهن تماماً كشعور الشـابات في المدن الكبرى وهن يسـتقبلن الامتحانات النهائية . كانت الالعاب ، التي تتسم بالتدافع في قاع البحر القـريب من الشـاطيء بحثاً عن الحصى والبلورات الصـــخرية ، تبدأ في السنوات الاولى من الدراسة الابتدائية . وتلك البدايات هي التي هيأتهنَّ لممارسة فن الغـوص ، ثم صرن ، فيما بعـد ذلك بالطبع ، اكثر خـــبرة ومهارة ، سيما بعد ان ازدادت روح المنافسة لديهن . غير أنهـــن ، عندما بدأن في ممارسة الغوص كسباً للرزق وعندما تحولت تلك الالعـاب البريئة الى حرفة حقيقية ، اسـتولى الخـوف على الفتيات بدون اسـتثناء وصـار الربيع بالنسـبة اليهـن يعـني ان الصـيف الرهيب على الأبواب . وهناك البرد الشديد والشعور بالهلع خوفاً من انقـطاع النفس داخـل الماء والألم الذي يفوق الوصف حينما يشـق الماء طـريقه الى داخـل النظارات المائية الواقية ، اضافة الى الالم الشـديد والخـوف المفـاجيء من الانهيار الذي كثيراً ما ينتاب الجسـم في وقت تكون فيه الرخـويات البحـرية في متناول اليد تقريباً . ثم ان هناك انواع الحوادث الاخرى والجروح التي تصـيب

رؤوس اصابع الاقدام عندما تبدأ تلك الاقدام بضرب قيعان البحر المفروشة بالاصداف ذات الحواشي الحادة . استعداداً للخروج الى سطح الماء . هذا بالاضافة الى الوهن الفظيع الذي يستولي على الجسم بعد ان يضطر للغوص داخل الماء الى ماوراء درجة الاحتمال والطاقة ... تركزت كل هذه الامور بحدةٍ في ذاكرة اولئك الناس ، كما اشتدت صور الرعب اكثر فاكثر بمقدار ما كانت تلك الصور تتردد في اذهان الفتيات . وكثيراً ما كانت الكوابيس الليلية المفاجئة توقظهن من نومهن العميق بحيث لم تعد تلك الكوابيس تترك للاحلام السعيدة مجالاً تتسلل اليه . وفي اعماق الليل ، في الظلام الذي يلف اسرتهنَّ الهادئة الآمنة ، كثيراً ما كنَّ يتحسسن غزارة العرق الذي يلتصق بقبضات ايديهن .

أما بالنسبة للنساء المتزوجات الاكبر سناً ممن يمارسن اعمال الغوص ، فالأمر يختلف تماماً ، فقد اعتادت تلك النسوة ، بعد الخروج من الماء ، أن يغنين ويضحكن ويثرثرن بصخب ، فيبدو وكأن العمل واللعب قد امتزجا في شيء واحد يقتصر عليهن فقط .

الشابات ، وهن يراقبن تلك النسوة بحسد كبير ، كثيراً ما كن يتحدثن مع انفسهن حول صعوبة التشبه باولئك النساء المتزوجات ، ومع ذلك ، فانهن ، بمرور السنين ، سوف يدهشن عندما يكتشفن ، دون ان يدركن ذلك تماماً ، بانهن بالذات قد وصلن النقطة التي يندرجن فيها بين اولئك الغواصات العريقات اللواتي تمتليء قلوبهن بصورٍ بهيجة مرحة .

في «اوتا ـ جيما» ، تبلغ ذروة العمل عند الغواصات خلال شهري حزيران وتموز ، وتتركز عمليات الغوص فيما حول «شاطيء الجنائن» في الجهة الشرقية من «جبل نبتن» .

وحدث في أحد الأيام ، قبل بداية موسم الامطار ، ان تعرض ذلك الشاطيء لاشعة شمس الظهيرة الحارقة لدرجة لم يعد بالامكان وصف ذلك الوقت بما يعرف بفترة ما قبل الصيف كما هي العادة ، وهناك اوقدت نار الاحماء والتجفيف فحملت النسائم الجنوبية دخانها باتجاه مثوى الامير

«ديكي» القديم . كان الشاطيء المزهر يحتضن كهفاً صغيراً يمتد المحيط الهادي الى الخلف منه مباشرة وتحوم قريباً منه غيوم الصيف العالية فوق مدى البحر البعيد .

وتماماً مثلما يوحي الاسم «نيوا ـ هاما» أي شاطيء الجنائن ، فان ذلك الشاطيء له من الميزات ما يجعله متنزهاً ذا منظر ساحر جميل . احاطت بذلك الشاطيء اجراف صخرية شديدة الانحدار تبدو وكأنها قد انتظمت عن عمد لكي تجعل في مقدور الاطفال اخفاء انفسهم واطلاق نيران مسدساتهم اثناء القيام بادوار رعاة البقر والهنود ، واكثر من ذلك ، فان سطوح تلك الصخور كانت ملساء ذات ثقوب تنتشر هنا وهناك بقدر حجم الاصبع يتخذها الاخطبوط والقمل البحري مأوى . كان الرمل الذي يعلق بالذراع من تلك الاجراف الصخرية ذا لون شديد البياض ، والى اعلى الجرف المواجه للبحر من جهة اليسار كانت الازهار التي تدعى بازهار القطن الساحلي في اوج تفتحها . لم تكن تلك الازهار كتلك الازهار التي تظهر في نهاية الموسم ، شعثاء من غير نظام ، انما كانت بتلات بيضاً مفعمةً بالحيوية والنقاء وشديدة الحساسية كنبات الكرات شامخة نحو سماء فضية رائعة .

الوقت الان هو فترة استراحة الظهيرة وقد امتلأت المنطقة المحيطة بالنار بضجيج ومزاح ضاحك . لم يصن الرمل حاراً بحيث يلهب باطن الاقدام الحافية ، ومع ان الجو كان بارداً نوعاً ما ، لكن الماء لم يكن من البرودة الشديدة بحيث يجعل الغواصات يندفعن مسرعات نحو بدلاتهن ذات البطانات السميكة او يدفع بهن للتزاحم حول النار بعد خروجهن من الماء مباشرة . وبمرح صاخب دفعت الغواصات بصدورهن الى الامام فعرضن بزهو كبير مفاتن اثدائهن لدرجة ان احداهن بدأت حتى برفع ثدييها بكلتا يديها .

ـ لا ، لا ، ليس من الانصاف استعمال اليدين لابراز المفاتن . انك ، لا شك تمارسين الغش بعملك هذا .

ـ والان ، انتبهــن الى من يتكلم ! لماذا ؟ انك بثدييك هذين لا تستطيعين الغش حتى ولو استعملت يديك فعلاً .

ضحك الجميع . لقـد كن يتحـاورن حـول من تملك أجمل ثديين من الغواصات .

كانت اثداء النساء جميعاً مسـفوعة باشـعة الشـمس الحـارقة ، واذا كانت تلك الاثداء بحاجة الى ميزة البياض التي تتسـم بالغموض فانهـا لا تزال بحاجة اقل منها الى شفافية تكشف عن تشـابك العـروق وزخـرفتها الخفيفة .

وبالحكم من خلل بشرة تلك الاثداء ، ليس هناك ما يدل على اية اشارة فيما يخص اي نوع من انواع الحساسية . ومع ذلك ، فان بامكاننا ان نرى تحـت تلك البشرة المكتوية ما تركته الشـمس وراءها من لون مشرق نصف شفاف شبيه بلون العسل على تلك الاثداء . ثم ا حلقات الاثداء الداكنة لم تبدو وكأنها مناطق سوداء منعزلة ذات طبيعة ندية ، انما كانت ، بدلاً من ذلك ، واقفـة بالتدريج تحـت تأثير هذا اللون العسلي الجميل .

من بين الاثداء التي تزاحمت حول النار توجد اثداء دبً فيها الارتخاء وظهرت عليها الليونة المفرطة ، واخرى كانت ذات حلمات جافة صلبة . وفي كثير من الاحوال توجد هناك عضلات جميلة نافرة تحمل الاثداء على صدور عريضة راسخة لاتسمح لها بالارتخاء على الرغم من الثقـل الذي تنوء تحته .

ان منظرها ينبيء عن حقيقـة هي ان هذه الاثداء لابد وانهـا قد ترعرعت تحت اشـعة الشـمس كل يوم من غير ان يعـتريها شيء اسمه الخجل مثل فاكهة بالغة تتدرج نحو التكامل والنضوج .

احدى تلك الفتيات ندبت حظها العـاثر لان واحـداً من ثديهـا كان اصغر حجماً من الآخر ، لكن امرأة عجوزاً لهـا من الصراحـة ما اشـاع الطمأنينة في قلبها ، قالت لها :

ـ ليس هناك ما يدعو الى القلق ، في هذه الأيام هناك من الشباب من يتحلى بالوسامة فيستطيع ترويض هذا الثدي ليأخذ شكله الطبيعي .

ضحك الجميع مرة اخرى ، ومع ذلك فقد بقيت الفتاة قلقة حول هذا الأمر وراحت تسأل :

ـ وهل انت متأكدة من هذا الأمر ، ايتها الجدة «أوهارا» ؟

ـ كل التأكيد ، فقد عرفت فتاة بهذا الشكل قبل الان ، ولكن ما أن نالت الرجل الذي تريد حتى تعادلت كفتا الثديين عندها مباشرة .

والدة «شنجي» كانت تفخر بان ثدييها لا يزالان ممتلئين بالفتوة والنضارة . انها ، بالطبع ، اكثر الاثداء فتوة بين النساء المتزوجات من عمرها . وثدياها ، كما لو انهما لم يعرفا التعطش للحب او يقاسيا ألام الحياة ومرارتها ، ادارا رأسيهما ، طوال اشهر الصيف ، نحو الشمس ليستمدان من تلك الاشعة المباشرة قوتهما التي لا تعرف الكسل . وهكذا ، لم تثر اثداء الفتيات الشابات اي مشاعر للحسد عندها .

ومهما كان الأمر ، فهناك زوج واحد فقط اتسم بالسحر والجاذبية فاصبح موضع اعجاب الجميع وبضمنهن أم «شنجي» نفسها . انهما ثديا «هاتسو» . هذا هو اليوم الأول الذي تخرج فيه أم «شنجي» للغوص ، وهو ايضاً فرصتها الاولى في القاء نظرة متمهلة على «هاتسو» . انها ، حتى بعد أن القت بكلمات الاهانة الوداعية على مسامع «هاتسو» ، اعتادت ان تتبادل انحاءات المجاملة والتحية في اي مكان يمكن ان يتلاقيا فيه . لم تكن «هاتسو» بطبيعتها تميل الى الثرثرة والكلام الفارغ وفي هذا اليوم بالذات ، كانتا منهمكتين بالعمل هنا وهناك ولذا لم تتح لهما فرص كثيرة للتحدث فيما بينهما . وحتى خلال هذا الوقت ، وقت استعراض الأثداء الجميلة ، فان النساء الكبيرات هن فقط من يبادرن بالحديث والتعليق ، ومع ذلك فان ام «شنجي» وهي التي كانت متحاملة بسبب الضيم الذي اصابها فيما سبق ، تجنبت الحديث مع «هاتسو» عن عمد واصرار .

ولكنها ، وهي ترمق صدر «هاتسو» وثدييها ، عبرت بايماءة من رأسها عن ادراكها سبب خمود الاشاعة القذرة التي راجت حول علاقتها بابنها ، على مرور الوقت . لا يمكن لأي امرأة ، وهي ترى هذين الثديين ان يساورها ادنى شك حول طهارة هذه الفتاة . لم يكونا ثديين لفتاة لم تتصل بالرجال حسب ، انما كانا ثديين لا يزالان في طريق التبرعم والنمو ويحملان كل من رآهما على التفكير في الطريقة التي سيتطوران بها نحو الفتنة والجمال عندما يصبحان في كامل ازدهارهما وروعة تفتحهما .

ينحدر ما بين الهضبتين الصغيرتين اللتين حملتا في اعلاهما حلمتين متوردتين واد ، وهو على الرغم من السمرة التي غشيته بفعل اشعة الشمس ، لم يفقد رقته ونعومته وبرودة العروق المنتشرة على بشرته ـ واد يملؤه عطر تتيه في ثناياه افكار مرحة بمقدم الربيع . لم يكن ثدياها ، وقد انسجما مع النمو الطبيعي لجسمها ، بأي شكلٍ من الاشكال متأخرين في نموهما ، ومع ذلك ، فلم تزلْ استدارة الثديين تحتفظ بمسحة من حيوية طفولية . يبدوان وكأنهما على وشك اليقظة من سبات او انهما على استعداد للاستيقاظ بلمسة من ريشة خفيفة او مداعبة من نسمة رقيقة . لم تستطع الجدة العجوز ـ أوهارا مقاومة الدافع في وضع يدها على حلمتي هذين الثديين اللذين كانا في اوج حيويتهما العذرية وفي كامل تكوينهما الرائع في الوقت نفسه . اللمسة التي قامت بها يدها الخشنة جعلت «هاتسو» تقفز على قدميها نفوراً وخشية ، وعند ذلك ضحك الجميع فعقبت احداهما تقول :

ـ وهكذا ، هل تدركين الان ، أيتها الجدة «اوهارا» مبلغ ما سيشعر به الرجال وهم يفعلون ما فعلتِ ؟

وعند ذاك مسحت الجدة على ثديها الممتلئين بالتجاعيد بكلتا يديها ثم عقبت على ذلك بصوت مجلجل :

ـ عن اي شيء تتحدثين ؟ ان ثديي «هاتسو» يمتلأن خوختين

خضراوين ، أما ثدياي ، وهو ما يجب ان اخبرك به ، فقد استحالا الى مخللات متبَّلة بالملح ، ولذا فهما مشبعان بكثير من النكهة اللذيذة .

ضحكت «هأتسو» ورمت برأسها الى الخلف بحركة مفاجئة فسقطت قطعة من نبات الطحلب البحري الشفاف في شعرها على الرمل البراق .

وبينما كانت النسوة يتناولن طعام الغداء ، ظهر بالقرب منهن شخص اثير عند كل النساء من خلف الصخور على نحو مفاجيء حيث كان ينتظر ما يعتقد بانها الفرصة المناسبة . اخذت النسوه بالصراخ ، ولكن من أجل الصراخ فقط وليس لاي سبب اخر ثم اخرجن كل ما وقع تحت ايديهن من داخل اغلفة اوراق الخيزران الموجودة على الارض قريباً منهن ليغطين به صدورهن . والحقيقة هي ان ظهور ذلك الرجل لم يبعث الدهشة فيهن لان ذلك المتطفل لم يكن غير بائع عجوز جوال اعتاد ان يشق طريقه الى الجزيرة في كل موسم ، اما اظهار ذلك الحياء الزائف فهو لم يكن سوى اثارة الضحك على سنه الكبيرة والسخرية منه ليس غير .

.كان العجوز يلبس سروالاً رثاً تملؤه الاوساخ وثوباً مفتوحاً عند العنق . وضع صرة كبيرة ملفوفة بقطعة من القماش كان يحملها على ظهره فوق صخرة كبيرة قريبة وراح يمسح العرق المتصبب من على وجهه وهو يقول :

ـ اظن بانني قد ادخلت الرعب في قلوبكن ، أليس كذلك ؟ يبدو ان من الخطأ المجيء الى هذا المكان بهذا الشكل ـ فهل انصرف ؟

قال البائع تلك الكلمات وهو واثق كل الثقة بانهن سوف لا يدعنه يفعل ذلك مطلقاً . كان يدرك جيداً بان ليس هناك من طريقة افضل لاثارة رغبة النساء الغواصات في الشراء من تلك الطريقة التي يعرض فيها بضاعته على هذا الشاطيء ، فالنساء غالباً ما يشعرن بالجرأة والسخاء عندما يكن قريبات من البحر . وهكذا اراد البائع من تلك النسوة اختيار ما يرغبن في شرائه ومن ثم سيوصل تلك البضائع التي

اشتريت الى بيوتهن في نفس تلك الليلة ليقبض اثمانها ، كما ان النساء بالذات يفضلن مثل هذه الطريقة من أجل اختيار الالوان والحكم عليها في ضوء النهار الرائق .

نشر البائع العجوز بضاعته في ظل بعض الصخور المجاورة فازدحمت النسوة حول مكان العرض في وقت مازالت افواههن ملأى بالطعام .

كانت هناك قطع من قماش الكيمونو الصيفية القطنية المنقوشة بواسطة الروسم (الاستنسل) . وهناك ايضاً ملابس بيتية خفيفة وملابس للاطفال وحزم وأوشحة خالية من الخطوط وسراويل وقمصان داخلية وخيوط .

رفع البائع الغطاء من على صندوق خشبي واطيء فندت من افواه النساء صيحات الدهشة والاستحسان . ضمَّ الصندوق حتىٰ الامتلاء ، ادواتٍ صغيرةٍ كالدبابيس والابر والعصائب ومحافظ النقود الصغيرة وسيور القباقيب والحقائب البلاستك والشرائط والبروشات وما شابه ذلك . كانت الالوان عديدة جذابة ، وعند ذلك اشارت احدى الغواصات الشابات بكل ثقة وهي تقول :

- يبدو أن ليس هناك من شيء لا اريد الحصول عليه من هذه المجموعة الرائعة .

وفي لمحة خاطفة امتدت الاصابع التي اكتوت باشعة الشمس نحو البضاعة تتفحصها بامعان ثم تعلق على الحسن منها والرديء . أثيرت النقاشات فيما بين النساء حول مدى صلاحية تلك الاشياء لهذا الغرض او ذاك ، ثم احتدم بعد ذلك نقاش نصف هازل حول اسعارها .

واخيراً ، استطاع الرجل ، نتيجة لكل ذلك ، من بيع قطعتين من الكيمونو الصيفية ذات الوان مبهرجة تخلو من الذوق وباع كذلك قطعاً من المناشف سعر القطعة الواحدة منها الف «ين» ، اضافة الى وشاح واحد يخلو من الخطوط متنوع النسيج وكمية كبيرة من مواد اخرى مختلفة .

أما أم «شنجي» فقد اشترت حقيبة من البلاستك تستعملها للتسوق ودفعت مائتي «ين» ثمناً لها ، واشترت «هاتسو» قطعة ممتازة من الكيمونو القطنية تصلح ان تكون بدلة للشابات تحمل نقوشاً تمثل نجوماً صباحية زرقاء غامقة على ارضية بيضاء .

استولى علي ذلك البائع العجوز فرح طاغ لهذا البيع غير المتوقع . كان رجلاً هزيلاً ذا اضلاع كويت باشعة الشمس يمكن مشاهدتها خلل فتحة الياقة في ثوبه وكان شعره الذي اختلط فيه البياض بالسواد قصيراً وقد تركت السنين الطويلة من ورائها عدداً من البقع السمراء فوق خدية وصدغية . أما اسنانه فقد احتفظ بعدد قليل منها ـ وهي اسنان اسودت بفعل التدخين فجعلت من الصعب ادراك ما كان يردد من كلمات ، وعلى وجة التخصيص ، في هذه اللحظة التي اخذ فيها صوته يعلو اثناء البيع . وعلى الرغم من كل ذلك ، فمن خلال الضحكة التي جعلت خديه يرتجفان وكأنهما قد اصيبا بألم حاد مفاجيء وبالايماءات التي لا تخلو من المبالغة ، ادركت النسوة بان البائع كان على وشك ان يقدم لهن خدمة رائعة ـ بعيدة تماماً عن كل رغبة في الربح .

وباصابع رشيقة سريعة حيث جعل البائع اضفر الخنصر يطول على سجيته في كل يد ـ اخرج البائع ثلاث حقائب يدوية جميلة من البلاستك

ـ انظروا ، ان هذه الحقيبة الزرقاء هي للشابات وهذه البنية لمتوسطات السن ، أما هذه الحقيبة ، السوداء فهي للسيدات المتقدمات في السن .....

ـ سوف آخذ الحقيبة الخاصة بالشابات .

قالت العجوز ذلك فضحكت النساء مما اضطر البائع ان يرفع صوته المرتعش عالياً وهو يقول :

ـ حقائب بلاستك من أحدث طراز ـ اسعار ثابتة ، ثمانمائة «ين » .

ـ اوه ـ غالية ! أليس كذلك ؟
ـ بالطبع ، فقد بدأ يرفع الاسعار .
ـ كلا ، كلا ، ثمانمائة «ين» من غير زيادة في السعر ابداً ، ثم انني سوف اقدم احدى هذه الحقائب هدية الى احداكن ، ايتها السيدات ، كعرفان بالجميل لما ابديتن نحوي من رعاية واحسان .. حقيبة بلا مقابل ! وهنا امتدت عشرات الايدي المفتوحة الساذجة في وقت واحد نحوه ، غير ان الرجل صرف كل تلك الايدي بتأنق لا يخلو من التبجح والادعاء .
ـ واحدة ، قلت لواحدة منكن فقط ، انها هدية من المحلات التي اتعامل معها ! وهي نوع من الخدمة يقدمها ذلك المحل احتفاءاً بالتقدم الذي تحققه قرية «اوتا ـ جيما» في كثير من الميادين . وعلى هذا ، فسوف نقوم باجراء منافسة فيما بينكن وسوف تمنح هذه الحقيبة للفائزة من بين الجميع . الحقيبة الزرقاء للفائزة من الشابات والبنية للفائزة من بين النساء المتوسطات في السن .
حبست النساء انفاسهن ترقباً ورغبة وقد فكرت كل واحدة منهن بان قليلاً من الحظ يمكن ان يسهل لها أمر الحصول على حقيبة يبلغ سعرها ثمانمائة «ين» مقابل لاشيء .
سبق ان كان البائع العجوز مديراً في احدى المدارس الابتدائية وغالباً ماكان يستغرق في تفكير عميق حول ما آل اليه أمره في هذه الظروف التعيسة وذلك بسبب الملابسات التي حدثت له بخصوص احدى النساء ، أما الان فقد اعاد له صمت تلك النسوة ثقة جديدة في قابليته لكسب قلوب الناس . لقد حدث نفسه مراراً بانه سوف يترك مهنته الحالية هذه ليصبح مديراً لاحدى فروع الالعاب الرياضية .
ـ حسن ، اذن ، اذا كنا سنقوم بمثل هذه المنافسة ، فلابد ان تكون هذه المنافسة لصالح قرية «اوتا ـ جيما» التي أجد نفسي مديناً لها بالشيء الكثير . ما رأي كل منكن في شيء كهذا ؟ ماذا تقولن عن منافسة في

صيد «أذن البحر» ؟ ان المرأة التي ستجلب اكبر عدد منه خلال الساعة القادمة سوف امنحها الجائزة هذه .

وبطريقة تتسم بمايشبه الرسميات وضع قطعة من القماش في ظل صخرة ثم وضع الجوائز فوقها بكل اتزان ووقار . والحقيقة ، هي ان أي واحدة من تلك الحقائب لا تساوي اكثر من خمسمائة «ين» ، غير ان السعر المثبت عليها هو ثمانمائة «ين» .

كانت جائزة الفتاة الشابة حقيبة زرقاء كلون السماء وشكلها كالصندوق . ان لونها اللماع يشبه لون زورق بني حديثاً ، وعلى هذا ، فقد اضفى كل ذلك نوعاً من التناقض البديع لا يمكن وصفه فيما بينها وبين مشبكها الذهبي . أما الحقيبة البنية التي خصصت للنساء المتوسطات السن ، فلها ايضاً شكل صندوق ، ثم ان قالب النعامة المنقوشة عليها قد ضغط بقوة كبيرة على ذلك البلاستك لدرجة ، وأنت تنظر اليه لأول مرة ، لا تستطيع معرفة ما اذا كان ذلك جلد نعامة حقيقي أم لا . والحقيبة السوداء التي تخص النساء الكبيرات لم تكن على شكل صندوق ، ولكنها بمشبكها الذهبي الطويل الرفيع وشكلها المستطيل الذي يشبه الزورق ، بدت كأروع قطعة نقية من الصناعة وذات ذوق رفيع .

كانت والدة «شنجي» ، وقد رغبت في الحصول على الحقيبة البنية التي تخص النساء المتوسطات السن ، أول من اعلنت عن اسمها في الاشتراك بتلك المباراة . أما الثانية التي اعلنت عن اسمها ، فهي «هاتسو» .

غادر الزورق ذلك الشاطيء وعلى ظهره جلست ثماني نساء ، هن مجمل الغواصات اللواتي اشتركن في تلك المباراة . وقفت امرأة متوسطة العمر لم تشترك في تلك المباراة في مؤخرة الزورق واخذت تجذف بقوة . كانت «هاتسو» ، الفتاة الشابة الوحيدة المشاركة من بين النساء الثمانية ، حيث تراجعت بقية الفتيات من مثل سنها عن الاشتراك في تلك المنافسة .

اخذت الفتيات ، بعد أن تأكدن بانه لا يمكن ان يكتب لهن الفوز في

مثل هذه المباراة ، بالهتاف باسم «هاتسو» . أما بقية النساء اللواتي بقين على الشاطيء فقد شجعت كل واحدة منهن زميلتها الاثيرة عندها .

شق الزورق طريقه جنوبا على امتداد الشاطيء ومن ثم توجه الى الجهة الشرقية من الجزيرة ، وعلى الشاطيء تجمعت النساء غير المشتركات في المباراة حول البائع العجوز واخذن يغنين ويغنين .

كان الماء في الخليج الصغير ازرق رائقاً ويستطيع المرء ، في حالة هدوء الامواج ، ان يرى الصخور المدورة في القاع وقد اكتست باعشاب البحر الحمر وبدت كأنها تطفو قريباً من سطح الماء ، أما في الواقع ، فهي تقع على مسافة بعيدة من ذلك . اصبحت الامواج في هذه النقطة من البحر غاية في الحجم والارتفاع وقد تكونت ظلال كثيرة من تشكيلاتها الهائلة ومن انكسارات الاضواء للزبد الذي خرج يرغي من فوق صخور الاعماق حيث كان يتقلب فوقها . ولم تلبث احدى تلك الامواج ان ترتفع عالياً حتى تتكسر الى نثار دقيق متطاير يتساقط على شاطيء البحر . وهكذا ، تتناهى الى سمع المرء آهة عميقة تنشأ من ارتداد تلك الامواج واصدائها على الشاطيء لدرجة يضيع في ثناياها كل غناء تلك النسوة .

عاد الزورق بعد ساعة من الجهة الشرقية للجزيرة وقد ظهر الاعياء على عشرات تلك النسوة الغواصات وذلك بسبب المنافسة الشديدة على الفوز . كن جالسات في الزورق وقد ران عليهن صمت مطبق واتكأت الواحدة منهن على الاخرى واخذت كل واحدة منهن تحدق في اي مكان يمكن ان تتجه اليه عيناها ، ساهمات لا تند منهن حركة اوكلام ، كذلك تشابكت شعورهن الشعثاء فيما بينهن لدرجة لم يعد ممكناً تمييز شعر الواحدة عن شعر من تجاورها .تعانقت اثنتان منهن والتصقتا الواحدة بالاخرى طلباً للدفء والراحة ، وظهر انكماش الجلد في صدورهن وسرت في تلك الصدور قشعريرة باردة . وفي اشعة الشمس الساطعة ظهر الشحوب حتى على تلك الاجسام العارية المسفوعة باشعة الشمس الحارقة مما اضفى على مظهرهن ما يشبه شحوب الموت .

لم تكن الضجة التي رافقت استقبال العائدات على الشاطيء لتنسجم مع الصمت المطبق على الزورق الذي كان ينزلق على سطح الماء من غير صوت . وحالما وصلت النساء الى الشاطيء اسرعن في الارتماء على الرمل حول النار وقد اصابهن انهيار كبير ولم يتفوهن بكلمة واحدة .

فحص البائع محتويات الدلاء التي اخذها من الغواصات ، وعندما انتهى من تلك المهمة اعلن النتائج بصوت مرتفع :

ـ الاولى «هاتسو ـ سان» ، عشرون سمكة والثانية هي «السيدة كوبو» ثماني عشرة سمكة .

تبادلت كل من الفائزة الاولى والثانية وأم «شنجي» النظرات بعيون مجهدة احتقنت بالدم .

لقد فازت على اكثر غواصات الجزيرة مهارة فتاة اكتسبت خبرتها من غواصات جزيرة اخرى . انها «هاتسو» .

نهضت الفتاة على قدميها بهدوء ثم استدارت حول الصخرة لتتسلم جائزتها . كانت الجائزة التي عادت بها «هاتسو» هي الحقيبة البنية التي خصصت للنساء متوسطات العمر . وضعت تلك الحقيبة في يد والدة «شنجي» بقوة فأحمرَّ خدا الأم من الفرح وهي تردد !

ـ ولكن ..... لماذا ؟

ـ لانني كثيراً ما اردت الاعتذار عما تحدث به أبي من خشونة مع خالتي في ذلك اليوم .

ـ يا لها من فتاة رائعة

ـ قال البائع ذلك ، وعندما أثنى الجميع على مبادرة «هاتسو» وبعد ان الح الجميع على والدة «شنجي» في قبول الشيء الجميل الذي قدمته «هاتسو» ، اخذت الأم تلك الحقيبة البنية ثم غطتها بقطعة من الورق ووضعتها تحت ذراعها العارية وقالت بعفوية ! .

ـ ولكن ، لماذا ؟ شكراً .

لقد ادرك قلب الام ببساطته وحسن نواياه للتو مدى التواضع والاحترام الصادرين عن حركات تلك الفتاة وايماءاتها . ابتسمت «هاتسو» . فأدركت الأم في نفسها مقدار ما يتميز به ابنها من حصافة وروية في اختيار مثل هده الفتاة زوجة له .

وعلى هذا الاسلوب كانت مجمل الامور تدار في تلك الجزيرة .

ـ الفصـــل الــرابع عــشر ـ

لم يجلب موسم الامطار ، بالنسبة الى «شـنجي» ، سـوى ايام نحسـة الواحد منها اسوء من الآخر . فقد توقفت حـتى رسـائل «هاتسـو» ، ولا شك بان أباها وهو الذي جعل أمر لقائهما متعذراً عند مقام «ياشيرو» بعد قراءة رسالتها على ما يبدو ، قد منعها كلياً من الكتابة الى «شـنجي» مرة أخرى .

وفي احد الايام ، بعد نهـاية موسـم الامطار ، وصـل ربان السـفينة «اوتاجيا ـ مارو» الى الجزيرة . كانت تلك السفينة اكبر سـفينتين تعملان بالشـحن يملكهما «تيروكيجـي ـ مياتا» ، وهي الان راسـية في ميناء «توبا» .

زار ربان تلك السـفينة بيت «تيروكيجـــي» اولاً ، ثم ذهب الى بيت «ياسـو» ، وفي نفس الليلة ذهب ليرى «جـوكيجي» ـ صـــاحب الزورق الذي يعمل عليه «شنجي» ، واخيراً ذهب الى بيت «شنجي» نفسه .

كان ربان السفينة قد تجاوز الاربعـين وله ثلاثة اطفـال ، رجـل ذو جسم قوي البناء مزهو بتلك القـوة ، ولكنه الى جـانب ذلك يتمتع بطبع رقيق . انه أحد الاعضاء المتحمسين في طائفة «نيشيرين» ، واذا حـدث

ان كان موجوداً في الجزيرة اثناء اقامة «مهرجان الفوانيس» ، فانه كثيراً ما يقوم ، بدور كاهن ، غير ملتزم بمعبد معين ، يقرأ تعاليم «بوذا» ومحاوراته من أجل انزال السكينة على ارواح الموتى .

كانت له نساء كثيرات في موانيء مختلفة يشير اليهن بحارته باسماء مثل العمة «يوكوهاما» والعمة «موجي» وغير ذلك ، فاذا رست السفينة في واحد من تلك الموانيء ، يأخذ الربان معه اولئك البحارة الشباب الى حيث تسكن تلك المرأة ليتناولوا الشراب هناك .

اعتادت تلك «العمات» الظهور بملابس محتشمة ومعاملة اولئك الشباب بكل رقة وعطف .

لقد انتشرت اشاعة تقول بان ذلك الربان الذي غزا الصلع نصف رأسه ، انما كان ذلك الصلع نتيجة لانغماسه في الملذات والفسوق ، ولعل هذا هو السبب الذي جعله على الدوام يؤكد على مظهره الجليل بوضع قبعة خاصة يزينها شريط من الذهب على رأسه .

حالما دخل الربان بيت «شنجي» ، بدأ الحديث حول المهمة التي جاء من أجلها مع الأم بحضور «شنجي» نفسه .

جرت العادة في تلك الجزيرة ، هي ان الاولاد ، عندما يبلغون السابعة او الثامنة عشرة من العمر ، يبدأون في ممارسة الاعمال الملاحية والبحرية بوظيفة «غسل الرز» كما يسمونها . انه اصطلاح محلي يطلق على البحار وهو في مرحلة التدريب الأولى .

و «شنجي» هو الان في السن التي يجب ان يتهيأ فيها لتلك الاعمال الملاحية ، ولذا فقد سأل الربان أم «شنجي» ما اذا كان ابنها يرغب في العمل على ظهر السفينة «اوتاجيما ـ مارو» من اول الطريق ـ «غسل الرز» .

لاذت الام بالصمت ، لكن «شنجي» وعد بان يجيب على ذلك الطلب بعد أن تعطى له فرصة نقاش الموضوع مع رئيسه «جوكيجي» ،

وحينذاك قال الربان بانه اذا كان الأمر يتطلب موافقة «جوكيجي» . فهو قد ضمن ذلك . ومع ذلك ، فهناك ، أمر لا يخلو من الغرابة له صله بالمسألة كلها .

ان السفينة «اوتاجيا ـ مارو» تعود الى «تيروكيجي» ، ويبدو أن ليس هناك من سبب يدعو ذلك الرجل لاستخدام «شنجي» الذي يكرهه كثيراً كواحد من طاقم البحارة على احدى سفنه .

ـ كلا، فالعم «تيرو» نفسه يرى بانك تصلح ان تكون بحاراً فذاً . انني حالما ذكرت اسمك أمامه وافق على استخدامك في الحال . هيا ، اذن ابذل جهدك واعمل بجد .

وزيادة في التأكيد ، فقد رافق ربان السفينة «شنجي» الى بيت «جوكيجي» الذي حث الشاب بدوره على قبول العمل الجديد . لقد اشار «جوكيجي» الى امكانية ظهور بعض المتاعب على زورقه «تاهيري ـ مارو» في غياب «شنجي» لكنه لا يمكنه الوقوف حائلاً ما بين الشاب ومستقبله . وهكذا وافق الشاب .

في اليوم التالي ، سمع «شنجي» اخباراً منهلة هي ان «ياسو» هو الاخر سيعمل تحت التدريب على ظهر السفينة «اوتاجيا ـ مارو» ، ولقد ذهبت القصة شوطاً أبعد الى القول بان «ياسو» لم يستسغ ابداً فكرة العمل كغاسل رز ، وانما اجبر على الموافقة فقط عندما اعلن العم «تيرو» بان فترة التدريب لا بد منها قبل التقدم لخطوبة ابنته .

عندما سمع «شنجي» ذلك ، امتلأ قلبه بالألم والقلق وامتلأ في الوقت نفسه ببريق من الأمل .

ذهب« «شنجي» مع أمه الى مقام«ياشيرو» لأداء الصلاة من أجل رحلة آمنة ومن اجل الحصول على تعويذة تقيه الشرور . ثم اقترب يوم الرحيل فركب الربان ، بمصاحبة «شنجي و ياسو» ، المعبرة «كاميكاز ـيمارو» للذهاب الى «توبا» وحضر عدد من الناس لتوديع

«ياسو» بضمنهم «هاتسو» نفسها ، ولكن ليس هنالك من أثر للعم «تيروكيجي» . أما «شنجي» فقد جاء لتوديعه اثنان فقط ، أمه واخوه «هيروشي» .

لم تلتفت «هاتسو» نحو «شنجي» ، ولكن عندما اوشكت المعبرة على الابحار همست في اذن أم «شنجي» بشيء ثم دست في يدها حزمة صغيرة اعطتها الأم بدورها الى ابنها .

لم تتح الفرصة بالنسبة للشاب ، حتى بعد وجوده على ظهر المعبرة ، أن يفتح تلك الحزمة الصغيرة نظراً لوجود الربان و «ياسو» معه . اشغل الشاب نفسه في التحديق بمعالم «اوتا ـ جيما» التي اخذت تتراجع أمام عينيه ، فادرك حينذاك حقيقة مشاعره للمرة الاولى .

ها هو الشاب ، وقد ولد وترعرع في تلك الجزيرة التي احبها اكثر من اي شيء اخر في الوجود ، قد دفع الان برغبة كبيرة لمغادرة تلك الجزيرة او الابتعاد عنها .

ان رغبته في مغادرة تلك الجزيرة هي التي اقنعته بقبول العرض الذي قدمه ربان السفينة لأخذ مكانه على ظهر «اوتاجيما ـ مارو» .

وعندما ابتعدت معالم الجزيرة عن نظره هدأ قلبه ، ونظراً الى انه لم يغد مرتبطاً بعمله اليومي الرتيب في صيد الاسماك ، فقد تحرر الان من تلك الفكرة التي تلح عليه للرجوع الى الجزيرة ليلاً مرة اخرى لقد صاح في داخل اعماقه «أنا حر» ، كما انها المرة الاولى التي يدرك فيها بان هناك ما يشبه هذا النوع الغريب من الحرية .

ابحرت المعبرة «كاميكازي ـ مارو» في جو تساقط فيه المطر رذاذاً ناعماً . فاستلقى الربان وكذلك «ياسو» على حصران القش في عنبر المسافرين واستسلما للنوم ، ولم يسبق ، منذ ان ركبا هذه المعبرة وحتى الان ، ان تبادل «ياسو» الحديث مع «شنجي» مطلقاً .

وضع «شنجي» وجهه قريباً من احدى الفتحات المستديرة الموجودة

على جانب المعبرة حيث كانت قطرات المطر تجري من خلالها ، وفي ذلك الضوء الذي تسرب منها تفحص محتويات الحزمة الصغيرة التي بعثت بها «هاسو» . كانت تحتوي على تعويذة اخرى من مقام «ياشيرو» وصورة فوتوغرافية لتلك الفتاة ورسالة جاء فيها :

«في كل يوم ، من الان فصاعداً ، سوف اذهب الى مقام «ياشيرو» للصلاة من اجل سلامتك . يجب ان تعلم بان قلبي لك وحدك ، ولذا أرجوك ان تهتم بنفسك لتعود الي سالماً معافى . اضع لك في هذه الحزمة صورتي الفوتوغرافية لاستطيع بذلك ان اجوب البحار معك . لقد اخذت هذه الصورة في «كيب دايو» . لم يتحدث أبي الي بشيء حول هذه الرحلة التي تقومون بهاالان ، لكنني اظن بانه لا بد ان يكون له غرض معين في ارسالكما ، انت و «ياسو» على احدى سفنه ، ويمكنني القول بانني ارى من خلال ذلك بصيصاً من الأمل نوعاً ما لكل منا . ارجوك ، ارجوك ، أن لا تفقد الامل ، كما ارجوك انّ تستمر في مقاومتك لكل انواع المعوقات .

كانت تلك الرسالة مدعاة للشجاعة بالنسبة الى «شنجي» فقد وهبت زنديه قوة هائلة وكان الشعور بجدوى العيش في الحياة قد غمر كيانه كله .

لم يزل «ياسو» مستغرقاً في النوم ، ومن خلل الضياء المتسرب من الكوة تملى «شنجي» صورة «هاتسو» الفوتوغرافية . تبدو الفتاة في تلك الصورة وهي تتكيء على احدى اشجار الصنوبر العملاقة في «كيب دايو» وقد رفعت نسمات البحر اطراف ثوبها لتسري داخل ثوبها الصيفي الخفيف ولتداعب جسدها العاري . لقد توقدت جذوة الحماسة فيه الى درجة كبيرة استعاد فيها حادثةً في احد الايام قام فيها بما قامت به الريح فيّ هذه الصورة تماماً . «شنجي» ، وهو لا يرغب في رفع عينيه عن تلك الصورة ، وضعها على حافه الكوة التي لم تتوضح معالمها وذلك بفعل

المطر ثم أخذ يحدق فيها لفترة طويلة من الوقت بينما تحركت فيما وراءها ببطء وتدرج معالم جزيرة «توشي» حتى ظهر ميناؤها ..... ومرة اخرى فقد الشاب السكينة في قلبه ، غير ان الطريقة الغريبة التي يعذب فيها قلب الانسان من خلال الرغبة والتطلع الى ما يريد ، لم تعد شيئاً جديداً بالنسبة اليه .

توقف المطر عندما وصلوا الى «توبا» فامتدت الى الاسفل خيوط اشعة فضية لا تخلو من عتمة كان مصدرها الشقوق المنتشرة في الغيوم . ومن بين العديد من زوارق الصيد الصغيرة في ميناء «توبا» ، انتصبت السفينة «اوتاجيا ـ مارو» ذات الحمولة المائة والخمس والثمانين طناً على نحو بارز يلفت النظر .

قفز الثلاثة على سطح تلك السفينة الذي تألق تحت اشعة الشمس التي ظهرت بعد المطر ، ولم تزل بعض قطرات ذلك المطر تنحدر اسفل الصواري ذات الطلاء الابيض الجديد وقد جمعت الاعمدة الاضافية المهيبة التي تستعمل لاطالة قاعدة الشراع فوق الباب الذي يؤدي الى قمرة السفينة .

لم يصل البحارة من اجازاتهم التي يقضونها على الشاطيء بعد . أما الربان فقد ارشد الشابين الى مكانيهما في حجرة سكن صغيرة تبلغ مساحتها حوالي خمسة عشر متراً مربعاً تقع الى جوار سكن الربان مباشرة فوق امتداد المطبخ وقاعة الطعام . وليس هناك ، عدا الادراج او الصناديق الصغيرة المقفلة ومساحة وسطية مغطاة بحصير خفيفة من القش ، من شيء سوى صفين من الاسرة المزدوجة على جهة اليمين وصف واحد على جهة اليسار وسرير أخر منفصل خصص لرئيس المهندسين ، وهناك ايضاً بعض الصور الفوتوغرافية لممثلات سينمائية ثبتت على سقف الحجرة كأنها الرقى او التعاويذ .

حدد المضجعان المخصصان الى كل من «شنجي و ياسو» في الصف

الاول من الاسرة على جهة اليمين . لقد نام كل من رئيس المهندسين ووكيلي ربان السفينة الأول والثاني وعريف الملاحين والبحارة والوقادين في هذه الحجرة الصغيرة ، ولكن بما انهم اعتادوا على مناوبة الحراسات ، فقد كان هناك على الدوام ما يكفي من الاسرة للنوم في اي وقت يشاء فيه المرء ذلك . وبعد ان أراهما ربان السفينة منصة الربان وسكن رئيس السفينة وعنابرها وقاعة الطعام ، تركهما ليستريحا في حجرة البحارة . حينما ترك الاثنان لوحدهما نظر احدهما في وجه الاخر فشعر «ياسو» بالحزن والكآبة يسيطران على قلبه ولذا قرر ان يهادن :

- حسن ها نحن لوحدنا فقط في اخر الامر ، ولذا يتحتم علينا ان نكون صديقين حميمين . لقد حدثت في الجزيرة أمور كثيرة في حينها ، غير اننا يجب ان نتناسى كل شيء عنها لنكون صديقين متحابين من الان فصاعداً .

اطلق «شنجي» صوتاً يشبه صوت الخنزير وهو يوافق على ذلك ويبتسم . عاد البحارة قبل حلول الظلام الى السفينة . كان اغلبهم من جزيرة «اوتاجيما» ومميزون بوجوههم فقط عند «شنجي و ياسو» . اغاظ اولئك البحارة القادمين الجديدين في وقت ما زالت الخمرة تفوح من افواههم واجسامهم ، وبعد ذلك اعطيت التعليمات لذلكما الشابين بخصوص عملهما اليومي الرتيب كما خصصت لهما واجبات اخرى مختلفة .

تقرر ان تبحر السفينة في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فانيط بـ «شنجي» واجب رفع مصباح الرسو من اعلى الصاري في أول تباشير فجر اليوم التالي ، ان مصباح الرسو هو بمثابة مصاريع النوافذ الليلية في البيت الذي يقام على الشاطيء . اطفاء ذلك المصباح يعني ان كل ما في السفينة يقظ تماماً مثلما يعني فتح مصاريع النوافذ الليلية بان كل ما في البيت قد استيقظ . نادراً ما اغمض «شنجي» عينيه طوال

الليل ، فقد نهض قبل شروق الشمس في صباح اليوم التالي وانزل المصباح المرسى عندما كانت الاشياء غير واضحة المعالم . كان الصباح ملتفعاً بضباب يخالطه المطر وقد امتدت مصابيح الشارع في «توبا» في صفين مستقيمين ابتداءاً من الميناء وحتى محطة القطار ، وتناهىٰ الى السمع ، من جهة المحطة ، صوت اجش لصافرة قطار الشحن .

تسلق «شنجي» صارية السفينة العارية على عجل متخطياً اشرعتها الملفوفة التي تستخدم كقوة دفع اضافية كانت الصارية رطبة شديدة البرودة وقد انتقلت حركة اهتزاز الامواج الضعيفة التي تتلاطم على جانب السفينة الى صاريته بشكل مباشر . في الخيوط الاولى من شمس ذلك المصباح ، بدا لون المصباح الندي بفعل الضباب ابيض كالحليب يخالطه ضباب كثيف . ادرك الشاب خطاف المصباح الذي بدا وكأنه يمتنع عن النزول وذلك من خلال تأرجحه القوي وارتجاف النور في داخل الزجاج المبلل مما جعل قطرات الماء تتساقط على وجه الشاب المرفوع الى الاعلىٰ ، وهنا فكر «شنجي» في الميناء الثاني الذي سيرسون فيه والذي سيقوم فيه بانزال المصباح للمرة الثانية .

كان على السفينة «اوتاجيا ـ مارو» المؤجرة الى شركة نقل «ياماكاوا» ان تنقل الواح الخشب المنشور الى «اوكيناوا» والعودة الى «كوبه» خلال ستة اسابيع بعد الابحار عبر قنال «كي» والرسو في «كوبه» .

ابحرت السفينة غرباً عبر المياه الاقليمية لتقضي فترة الحجر الصحي في «موجي» ومن ثم تابعت سيرها غرباً على امتداد ساحل «كيوشو» الشرقي وتسلمت التصريح بدفع رسوم الابحار في ميناء «نيشينان» في مقاطعة «يامازاكي» حيث توجد دائرة للكمارك هناك .

ثم توقفت السفينة بعد ذلك في ميناء «فيوكيوشيما» في الرأس الجنوبي، من «كيشو» فأخذت من هناك شحنة تبلغ اربعة عشر الف قدم مكعب من الواح الخشب .

بعد مغادرة ميناء «فيوكيوشيما» اصبحت السفينة «اوتاجيما ـ مارو» وكأنها سفينة ابحار عادية لنقل المسافرين وقد عوملت وفق ذلك المفهوم ، وكان من المؤمل وصولها الى «أوكيناوا» خلال يومين او يومين ونصف .... اعتاد البحارة عند الفراغ من العمل او في فترات الاستراحة المعينة على الاسترخاء على حصير القش الخفيفة التي كانت تغطي ما يساوي ستة امتار مربعة تقريباً من وسط الحجرة الخاصة بهم والاستماع الى الحاكي الصغير . هناك اسطوانات قليلة واكثرها كان مستهلكاً لدرجة لم يسمعوا سوى موسيق بائسة لا وضوح فيها من خلل ابرة صدئة يعلو صوت خربشتها وصريرها على سطح تلك الاسطوانات القديمة . كانت كل الاسطوانات ، بدون استثناء تحتوي على اغان عاطفية لها صلة بالمواني او البحارة أو الضباب او الذكريات عن النساء او منطقة صليب الجنوب او المشروبات أو آهات في الحب والتوجع . ولم يتمتع كبير المهندسين باذن موسيقية ، فهو لم ينجح ابداً في جهوده لتعلم ولو لحن واحد على الاقل خلال رحلة السفينة وينسى على الدوام الشيء القليل الذي حفظه سابقاً قبل ان يحل موعد الرحلة القادمة . وحينما تترنح السفينة أو تهتز على نحو مفاجيء ، تنزلق ابرة ذلك الحاكي عبر الاسطوانة تاركة وراءها أثراً من الخط والخربشة . وكثيراً ما كان البحارة يسهرون ليناقشوا مواضيع مضحكة كمواضيع الحب والزواج مثلاً أو ما اذا يمكن للجسم البشري ان يحقن بالملح بقدر ما يمكن حقنه بسكر العنب ، تلك المواضيع التي تجعلهم في حديث متواصل ونقاش مثير لساعات طويلة .

كان الشخص الذي يتمسك بوجهة نظره بعناد لا يعرف الاستسلام ، هو الذي يفوز في أخر الأمر عادة ، علماً بان الاستنتاجات والبراهين التي كان يعرضها «ياسو» رئيس جمعية الشباب ـ في الجزيرة ـ فيها من المنطق الرصين ما يجعله موضع احترام الكبار . أما «شنجي» فقد اعتاد الجلوس صامتاً ملاصقاً ما بين ركبتيه ومبتسماً أثناء الاصغاء الى اراء الاخرين .

ـ لا شك في ان هذا الشاب لا يتمتع بشيء سوى السذاجة والغفلة . هذا ما قاله رئيس المهندسين الى ربان السفينة في احدى المناسبات .

الحياة على السفينة تزخر بالعمل المستمر فمن اللحظة التي إنظم فيها القادمان الجديدان الى طاقمها ، خصصت لهما مساحات من سطح السفينة ينظفانها كما ان هناك كثيراً من الاعمال المناط بهما انجازها .

اصبح «ياسو» على مر الايام ، معروفاً عند البحارة على انه انسان كسول بالمرة . ان الموقف بالنسبة اليه يكفي ان يبدو وكأنه ينجز الواجبات المناطة به حتى وان كان لا يقوم بانجازها فعلياً ، لان «شنجي» اعتاد التستر على ذلك او حتى القيام بجزء من العمل المخصص الى «ياسو» لدرجة لم يتوضح مثل هذا الموقف أمام رؤسائه مباشرة .

حدث في صباح أحد الأيام ان شاهد عريف البحارة «ياسو» وهو يتسكع في حجرة الملاحين بلا عمل بعد ان كان قد تهرب عن تنظيف سطح السفينة بذريعة الذهاب لمحادثة رئيسه . فاستشاط ذلك العريف غضباً لذلك واخذ يوبخه بصوت جهوري صريح لكن «ياسو» اجابه بكلام لا يدل على الاحترام :

ـ اوه حسن ، على أية حال ، عندما ستنتهي هذه الرحلة سوف اصبح أبناً بالتبني للعم «تيرو» وسوف تؤول ملكية هذه السفينة لي .

تميز العريف غيظاً لكنه مسك لسانه بتعقل وحذر قائلاً في نفسه بأن من الجائز ان تتغير الامور بالشكل الذي تحدث به «ياسو» ، ولذا لم يوجه له اللوم بعد ذلك وجهاً لوجه ولكن من خلال كلماته الهامسة ادرك بقية الرجال ما تفوه به ذلك الشاب الطائش فانقلبت بذلك النتيجة الى غير صالح «ياسو» اكثر مما هي الى اي شيء أخر .

كان «شنجي» منهمكاً في دوامة العمل ، والفرصة الوحيدة التي اعتاد فيها ان يختلس النظر الى صورة «هاتسو» هي فترة قصيرة في كل ليلة

قبل أن يأوي الى فراشه او عندما يكون في الحراسة الليلية . ولم يفسح المجال لاي شخص أخر ، مهما كان ، ان يلقي نظرة على تلك الصورة .
وفي أحد الايام ، عندما كان «ياسو» يتباهى بان العم «تيرو» سوف يختاره زوجاً لابنته «هاتسو» التي «شنجي» بما كان يظن بانه اكثر وسائل الانتقام مراوغة وغرابة . لقد سأل «ياسو» ما اذا كان يحتفظ بصورة لتلك الفتاة ، فاجابه «ياسو» على الفور :

ـ بالطبع عندي مثل تلك الصورة .

ادرك «شنجي» بما لا يدعو للشك بان ما قاله «ياسو» هو محض افتراء ، وعند ذلك امتلأ قلبه فرحاً ، أما «ياسو» فقد تحدث بعد لحظات بلا اكتراث وقال :

ـ وهل تحتفظ انت ايضاً بصورة لها ؟

ـ احتفظ بواحدة ، من اي شيء ؟

ـ صورة «هاتسو» ؟

ـ كلا ، كلا ، ليس عندي صورة .

ربما كانت تلك أول كذبة مقصودة قالها «شنجي» في حياته .

وصلت السفينة «اوتاجيا ـ مارو» الى «ناها» ، وبعد دفع رسوم الحجر الصحي دخلت الميناء فافرغت بضاعتها وقد اجبرت على الرسو مدة يومين او ثلاثة تنتظر وتنتظر السماح لها بدخول ميناء «اونتن» المغلق حيث كان من المقرر أخذ شحنة من النفايات (السكراب) في رحلة العودة الى اليابان .

تقع «أونتن» في أعلى القسم الشمالي من جزيرة «أوكيناوا» التي نزلت فيها القوات الامريكية لأول مرة خلال الحرب العالمية الثانية .

ونظراً الى انه لم يسمح للبحارة بالنزول الى الشاطيء فقد امضى اولئك البحارة الوقت في التحديق ، من على سطح السفينة نحو الجبال المنعزلة الجرداء . لقد أحرق الامريكيون كل شجرة فوق تلك الجبال ، عندما غادروا سفنهم الى اليابسة ، خوفاً من الالغام المدفونة التي لم تنفجر بعد .

كانت الحرب الكورية قد انتهت في ذلك الوقت ، ولكن الجزيرة في نظر الملاحين ما زالت تعيش ظرفاً غير طبيعي بالمرة ، فانه ، ابتداءاً من الصباح حتى الليل ، لا ينقطع الدوي المتواصل الذي ينبعث من الطائرات المقاتلة وهي تقوم بتدريباتها اليومية اضافة الى المركبات الكثيرة البراقة في الشمس الاستوائية اثناء الصيف وهي تتحرك باستمرار ذهاباً و مجيئاً في الطريق العام المبلط الواسع الذي يمتد كحدود لذلك الميناء ـ هذا اضافة الى باقي السيارات والشاحنات والمركبات العسكرية الاخرى . كانت الدور الجاهزة لعوائل الموظفين في المؤسسة العسكرية الامريكية الواقعة على جانب الطريق ، تتألق بلونها الاسمنتي الحديث بينما تكتسي سطوح بيوت أهل البلد بالصفيح الصديء فتبدو كبقع مشوهة في ذلك المنظر المترامي أمام العين .

كان الشخص الوحيد الذي نزل الى الشاطيء ـ ليطلب من وكيل شركة نقل «ياماكاوي» ارسال بائع المواد الضرورية للسفن ـ هو الوكيل الأول لربان السفينة . واخيراً ، تسلموا الورقة التي تسمح لهم بدخول ميناء «اونتن» . دخلت السفينة «اوتاجيما ـ مارو» ذلك الميناء فقامت بشحن النفايات ، ولم يكادوا ان ينتهوا من العمل حتى وافاهم تقرير يفيد بان اعصار «الثيفون» هو الان في طريقة الى جزيرة «اوكيناوا» . ورغبة في تحاشي ذلك الاعصار المدمر بالابحار سريعاً جهد الامكان ، غادروا الميناء في وقت مبكر من صباح اليوم التالي حيث كان كل ما قامت به السفينة من شيء هو شق طريقها نحو اليابان مباشرة .

تساقط المطر خفيفاً في ذلك الصباح وكان البحر صاخب الموج والريح جنوبية شرقية واختفت الجبال القائمة على الشواطيء خلف تلك الامواج العالية بسرعة مما اضطر السفينة ان تبحر على هدي البوصلة البحرية لست ساعات متواصلة ، كما ان الرؤية ساءت كثيراً وهبط مقياس الضغط الجوي بقوة الى نقطة دنيا خلاف المعتاد في وقت لم تزل فيه الأمواج عالية جداً .

اعطى ربان السفينة أوامره بالعودة الى ميناء «اونتن» في وقت تطاير فيه رذاذ الامواج ليصبح ضباباً بفعل الريح القوية ثم أصبحت درجة الرؤية صفراً فكانت رحلة العودة الى الميناء التي تستغرق ست ساعات في غاية الصعوبة .

واخيراً ، اصبح بالامكان مشاهدة جبال «اونتن» ، وكان العريف ، الذي اعتاد كثيراً على مثل هذه المياه ، قد وقف في نقطة المراقبة على مقدم السفينة . كان الميناء محاطاً بحوالي الميلين من سلاسل الصخور المرجانية ، ولم يكن القنال من خلل تلك السلسلة المرجانية غير محدد المعالم بواسطة عوامات*الارشاد الطافية حسب ، بل كان صعب الملاحة للغاية كذلك . قف ! ... تحرك ! ... قف ! ... تحرك ! ... سارت السفينة وهي تتحسس طريقها الى الأمام مرات لا تحصى واخذت تتحرك بعد ذلك بحذر وبطء خلل القنال فيما بين سلاسل الصخور المرجانية ، وعند ذلك اشارت الساعة الى السادسة مساءاً .

وحدث ان التجأت احدى سفن صيد سمك الاسقمري بين سلاسل تلك الصخور وبعد ان ربطت الباخرتان فيما بينهما بحبال عديدة ، تابعتا سيرهما جنباً الى جنب داخل ميناء «اونتن» .

لم تكن الامواج داخل الميناء مرتفعة ، لكن الريح اخذت تشتد باستمرار . فرمت كل من السفينتين «اوتاجيما ـ مارو» وسفينة صيد الاسقمري ، وهما ما زالتا تكافحان الطبيعة جنباً الى جنب ، اربعة حبال ، اثنان منها كانا عاديين والاخران كانا من السلك المتين . ثم ربطت السفينتان من الامام الى عوامة طافية بحجم غرفة صغيرة وراحتا تتشبثان للخروج من تلك العاصفة الهوجاء بسلام .

لم يكن في السفينة «اوتاجيما ـ مارو» جهاز لاسلكي ولذا فقد اعتمدت على البوصلة فقط ، أما مسؤول جهاز اللاسلكي على سفينة الصيد فقد كان يرسل لهم اي تقرير يحصل عليه بخصوص التطورات الحاصلة على عاصفة «التيفون» ومسارها .

وعند حلول الظلام وضعت سفينةالصيد في برج المراقبة على سطحها اربعة رجال كما وضعت سفينة الشحن «اوتاجيا ـ مارو» ثلاثة رجال في برج المراقبة فيها . كان واجبهم الرئيس مراقبة الحبال الاعتيادية الضخمة والحبال السلكية في وقت لا يستطيع فيه المرء ضمان عدم انقطاعها في اية لحظة . وهناك ، ايضاً شعور بالقلق من ان تلك العوامة بالذات ربما لا يمكنها تحمل مثل ذلك العبء الثقيل ، علماً بان الخوف من انقطاع الحبال نفسها كان هو الاكثر احتمالاً .

لقد واجه رجال المراقبة ، وهم يقاومون الريح والامواج ، الموت مرات عديدة في محاولة لابقاء الحبال مبللة بالماء والملح لانها ربما تعرضت للانقطاع عندما تصبح شديدة الجفاف بفعل الريح القوية .

احاطت بالسفينتين ، في الساعة التاسعة من تلك الليلة ، ريح عاتية من جميع الجهات ذات سرعة تبلغ ستاً وخمسين ميلاً في الساعة . فقام بالحراسة ، قبل ساعة من منتصف الليل ، ثلاثة بحارة ـ «شنجي ياسو» وشاب آخر . وحالما بدأوا في الزحف فوق سطح السفينة ، ارتطمت اجسامهم على أحد الجدران بقوة وقد صفعت قطرات المطر المدفوع بعنف الريح العاتية خدودهم وانغرست فيها كالابر .

كان الوقوف على سطح السفينة في غاية الصعوبة ، ثم ان ذلك السطح ارتفع مائلاً أمام عيونهم كالجدار وتصاعد من كل قطعة خشب في تلك السفينة صرير ودمدمة ، ومع ذلك ، فلم تكن الامواج في الميناء من الارتفاع ما يكفي لغمر سطح تلك السفينة ، لكن رذاذ الامواج المتطاير في الهواء قد استحال الى ضباب كثيف حجب عنهم الرؤية تماماً .

بعد ان زحف الثلاثة عبر سطح السفينة ، استطاعوا ، في آخر الامر ، الوصول الى مقدم السفينة فتشبثوا بمربط الحبال المعدني الموجود هناك بكل ما عندهم من قوة ، اما الحبلان الاعتياديان والحبلان السلكيان التي ربطت بالعوامة للحفاظ على السفينة فقد شدت بقوة الى المرابط المعدنية على السطح .

استطاع الثلاثة رؤية العوامة في الظلام بلا وضوح على مسافة خمس وعشرين ياردة ، واصبح من العسير ان تكشف تلك العوامة عن هيكلها المصبوغ بطلاء أبيض في منطقة يسودها الظلام تماماً . وفي الوقت الذي كانت تبدأ فيه الحبال السلكية بالصرير الذي يشبه الزعيق وتهب فيه دفقة من ريح هوجاء تضرب السفينة لترفعها بعنف وقوة ، هبطت العوامة الى اسفل منهم في ذلك الظلام لدرجة بدت فيها اصغر بكثير عن حجمها الحقيقي .

تبادل الشباب الثلاثة النظر فيما بينهم اثناء تشبثهم بتلك المرابط المعدنية دون ان يتكلم اي واحد منهم ، وقد جعل الماء المالح الذي ضرب وجوههم أمر فتح عيونهم في غاية الصعوبة . واضفى عويل الريح وهدير الامواج ، وهو أمر يبعث على الدهشة معا ، على ذلك الليل اللامتناهي الذي احاط بهم من كل مكان ، جواً من المهابة الخانقة .

كان عملهم يقتضي ان يركزوا انظارهم على الحبال التي تربط السفينة «اوتاجيا ـ مارو» بالعوامة الطافية . لقد تحكمت تلك الحبال المربوطة بقوة في عملية الشد المطلوبة وسط مشهد مثير كان كل ما فيه يعلو ويتدحرج هنا وهناك بلا استقرار نتيجة لجنون تلك العاصفة العاتية . لقد اثارت الطريقة التي نظروا فيها بامعان الى الحبال المشدودة بقوة شعوراً في قلوبهم هو اقرب الى الثقة بالنفس وذلك نتيجة للتركيز على الانتباه المتزايد فيما يخص تلك المهمة العسيرة . ومرت لحظات ، بدت فيها الريح وكأنها قد توقفت لتبعث الاطمئنان في قلوبهم ، ولكن بدلاً من دعم ذلك الاطمئنان وترسيخه ، مرت بهم لحظات اخرى ادخلت الرعب في قلوبهم وجعلتهم يرتجفون خوفاً وفرقاً ، لان عصفة ريح هائلة اخرى فاجأتهم بسرعة مدمرة لتبعث في اطراف عوارض الشراع قعقعةً وجلبة وأثارت في الجو زئيراً فظيعاً يحبس الانفاس .

واصل الثلاثة حراسة الحبال بصمت ، وعلى الرغم من صوت

الريح المدوي ، فقد تناهى الى سمعهم صرير تلك الحبال الحاد على نحو متقطع .

- انظروا !

صاح «ياسو» بصوت خافت .

لقد بدأ احد تلك الحبال الملتفة حول المرابط بالتقشط على نحو ينذر بالخطر ، ثم بدأ بالانزلاق عن مكانه قليلاً . كانت المرابط المعدنية أمام انظارهم مباشرة وقد لاحظوا تغيراً بسيطاً في الطريقة التي لفت بها الحبال حول تلك المرابط ، ومع ذلك فان ذلك الأمر قد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه .

وفي تلك اللحظة بالذات شاهدوا قسماً من السلك يتراجع نحوهم من قلب الظلام يلمع كالسوط ومن ثم ضرب المربط بعنف . تفادوا الأمر لفترة من الوقت خوفاً من ضربة يوجهها لهم ذلك السلك المقطوع الذي فيه من القوة ما يكفي لتمزيق اجسامهم حتى العظم . ثم اخذ السلك ، فيما يشبه كائناً حياً يحتضر لفترة طويلة من الوقت ، يلتف في الظلام الذي خيم على سطح السفينة مصحوباً بضجيج حاد وليستقر في أخر الأمر على شكل نصف دائرة .

عندما ادرك الثلاثة جلية الامر ، ظهر الشحوب على وجوههم . ان واحداً من تلك الحبال الاربعة التي تربط السفينة بالعوامة الطافية قد انقطع فارتد الى المربط على سطح السفينة ولم يكن باستطاعة اي منهم ضمان أن لا تنقطع الحبال الثلاثة الباقية على هذا النحو في اية لحظة .

قال «ياسو» وهو يبتعد عن المرابط المعدنية :

- يجب ان نخبر الربان بذلك .

قال ذلك ثم تسلل عبر سطح السفينة متلمساً مواضع يديه ، وبعد ان انزلقت اقدامه عن مواضعها عدة مرات شق طريقه الى منصة ربان السفينة فاخبره بما حدث . بقي الربان الضخم صامتاً او على الاقل ، كان قد اصطنع هذا المظهر الخارجي فقط .

ـ حسن ، دعونا نستعمل حبل الانقاذ اذن ، لقد مرت ذروة العاصفة في الساعة الواحدة صباحاً ولذا فلا اجد ضيراً في استعمال حبل الانقاذ الان . يستطيع أحدكم بمجرد ان يسبح الى العوامة ليربط ذلك الحبل حولها .

وبعد ان ترك الربان وكيله الثاني في مسؤولية المنصة ، سار مع الوكيل الاول خلف «ياسو» واخذا يدحرجان ويسحبان كفئران تسحب قطعة (كيك) كبيرة من الرز ، أحد حبال الانقاذ وحبلاً أخر ذا طاقين تدريجاً إبتداءً من المنصة حتى المرابط الموجودة في صدر السفينة . نظر «شنجي» والبحار الذي معه الى الرجلين باستغراب ، وعند ذاك انحنى الربان نحو الشباب الثلاثة وصاح بصوت عالٍ :

ـ من منكم ، ايها الرجال ، سيأخذ حبل الانقاذ هذا الى العوامة ليربطه حولها ؟

طغى زئير الريح على الصمت الذي ران على الملاحين الثلاثة ، وعند ذاك صاح الربان مرة اخرى :

ـ من منكم له من الشجاعة ما يدفعه للقيام بذلك ؟

ارتجفت شفتا «ياسو» فادخل رقبته بين كتفيه خوفاً وهو يسمع ذلك أما «شنجي» فقد صاح بصوت مرح فاشرقت ومضة بيضاء من اسنانه خلال تلك الظلمة الحالكة دلالة على الابتسامة التي ارتسمت على فمه وهو يوافق على ما قاله ربان السفينة وبعد ذك صاح بكلمات واضحة .

ـ سوف اقوم أنا بذلك .

ـ حسن ، هيا !

نهض «شنجي» على قدميه لانه كان ، في واقع الحال يخجل من الطريقة التي أقعى فيها على سطح السفينة حتى الان تلك الطريقة التي لا توحي إلا بالجبن . هجمت الريح من كل مداخل الليل المظلم لتصفع «شنجي» على وجهه وعلى جسمه ولكن بالنسبة اليه ، وهو الذي اعتاد

على المناخ القاسي في زورق صيد صغير ، لم يبد سطح تلك السفينة المضطربة الذي تشبث عليه اقدامه بثبات سوى قطعة من ارض انحرف مزاجها قليلاً . وقف يصغي .

احاطت تلك العاصفة العاتية برأس «شنجي» الشامخ مباشرة بحيث تساوت لديه الدعوة الى الجلوس في مأدبة هذه الريح الجنونية او الاستسلام لقيلولة هادئة بعد الظهر . جرى العرق بغزارة في داخل معطفه لدرجة ابتلّ فيها ظهره وصدره مما حدا به ان ينزع ذلك المعطف فيرميه جانباً ، وهكذا ظهر جسمه بقميص ابيض وقدمين حافيتين جسم هائل في عتمة تلك العاصفة المدوية . شد الرجال وفقاً للتعليمات التي ابداها ربان السفينة ، طرفاً من حبل الانقاذ الى احد مرابط الحبال المعدنية في صدر السفينة وربطوا الطرف الاخر الى حبل آخر ذي طاقين ، وقد سار العمل بطيئاً بسبب المعوقات التي اوجدتها الريح القوية . وعندما شدت الحبال في آخر الامر ، اعطى الربان طرف الحبل السائب الى «شنجي» وصاح في اذنه :

ـ اربط هذا الطرف الى وسطك واسبح به الى العوامة ، وحين تصل اليها ، اسحب حبل الانقاذ اليك حتى تجعل الشد قوياً لا ارتخاء فيه .

لفّ «شنجي» الحبل ذا الطاقين حول وسطه مرتين الى اعلى حزامه ، ومن ثم وهو يقف في صدر السفينة ، نظر الى البحر المترامي امامه .

كانت الامواج اللامرئية التي تشبه الكهرمان ، اسفل ذلك الرذاذ المتطاير والامواج المزبدة التي تكسرت على مقدم السفينة ، تتلوى وتلتف حول نفسها وتكرر حركاتها التي لا نظير لها وكأنها تتستر على نزوات متنافرة خطرة . لم تكد احدى تلك الامواج ان ترتفع الى مدى البصر حتى تهبط الى الاسفل ثانية لتصير دوامات مائية لا يمكن بلوغ اغوارها بتاتاً .

مرّت انذاك فكرة في ذهن «شنجي» حول صورة «هاتسو» الفوتوغرافية في داخل جيب معطفه المعلق في حجرة الملاحين ، غير ان هذه الفكرة تبددت الى نثار متطاير حملته العاصفة معها .

كانت العوامة على مسافة خمس وعشرين ياردة ، وعلى الرغم من قوته البدنية الهائلة التي تأكد من انها سوف لا تلين أمام أي شيء ، وعلى الرغم من قابليته الكبيرة على السباحة حول الجزيرة التي يعيش فيها خمس مرات دون توقف ، بدا له ان من المستحيل ان تكفي مثل هذه القدرات لاجتياز ذلك المدي الذي بدا كبيرا وان كان لا يعدو مسافة خمس وعشرين ياردة ما بين السفينة والعوامة .

كانت ذراعاه واقعتين تحت تأثير قوة رهيبة وقد اخذ شيء مجهول يشبه الهراوة في الضرب على تلكما الذراعين بعنف اثناء محاولته شق طريقه بين الامواج .

انقذف جسمه بلا ارادة منه ، فوق تلك الامواج وفي الوقت الذي حاول فيه استجماع قوته لمواجهتها والتحكم فيها برباطة جأش ، بدت له حركاته عقيمة وبأنه انما كان يحاول النفاذ في سائل زيتي زلق لا غير .

لقد تأكد بأن العوامة أصبحت ، في آخر الأمر ، في متناول ذراعيه ولكنه عندما كان يرتفع بجسمه خارج الموجة الثانية ، كان يشخص ببصره نحو العوامة ليجدها في نفس تلك المسافة التي رآها بها أول مرة .

واصل الشاب السباحة باقصى ما يستطيع حتى بدت ضخامة ذلك العدو الهائل تستسلم أنجاً بعد انج وخطوة بعد خطوة فاسحة له مجال الوصول الى هدفه . كان الامر يشبه مثقباً يشق طريقه بصعوبة بالغة في اكثر الصخور قوة وصلابة ولم تكد يده أن تلامس العوامة لأول مرة حتى فقد السيطرة على قبضته ثانية فجرفه التيار بعيداً ، ومع ذلك فقد حالفه الحظ مرة اخرى ، عندما دفعته من الخلف موجة كبيرة كادت ان تضرب صدره على حاشية العوامة الحديدية ، لكن ما حدث هو انها رفعته بدفقة قويةٍ لتضعه فوقها .

تنفس «شنجي» بعمق حتى ملأت الريح منخريه وفمه بهواء كاد أن يخنقه ، وقد فكر في تلك اللحظة بانه سوف لا يستطيع التنفس ثانية فنسى لفترة من الوقت المهمة التي اوكل به أمر انجازها .

كانت العوامة تهتز فتأرجحت بفعل الأمواج الى الاعلى والاسفل مستسلمة بكل طوعية الى ذلك البحر الاسود المتلاطم . واخذت تلك الامواج تلعق في نصف تلك العوامة بلا توقف ثم تنحدر عنها ولكن باضطراب بالغ .

بدأ «شنجي» ، وقد حنى رأسه لكي لا تقذفه الريح عن موطيء قدميه ، يفك الحبل من على وسطه . كان حل العقدة بالغ الصعوبة بسبب البلل والرطوبة ، ولكنه عندما انتهى من حلها في آخر الأمر ، استمر في سحب الحبل من الماء . وللمرة الاولى في تلك الفترة ، نظر «شنجي» نحو السفينة فرأى هياكل اشخاص اربعة تجمعوا حول المرابط المعدنية ، كذلك وقف رجال الحراسة في صدر سفينة الصيد يحدقون بامعان في الجهة التي ذهب اليها «شنجي » . وعلى الرغم من ان المسافة كانت لا تعدو خمساً وعشرين ياردة فقط ، إلاّ ان كل شيء بدا على ابعد ما يكون في مثل هذا الجو المضطرب . كان الشبحان الاسودان للسفينتين الراسيتين جنباً الى جنب يرتفعان في الهواء ليهبطا الى داخل الامواج مرة اخرى باستمرار .

الحبل الرفيع كان قليل المقاومة أمام الريح وسهل السحب نسبياً ، غير ان وزناً ثقيلاً اضيف الى نهايته متمثلاً بحبل الانقاذ الذي كان سمكه خمس بوصات تقريباً والذي بدأ «شنجي» في سحبه الآن وقد أوشك بسبب ذلك الثقل ان يقذف الى داخل البحر .

اشتدت الريح في مقاومتها لحبل الانقاذ كثيراً ، لكن «شنجي» استطاع ، في آخر الأمر ، من مسك أحد طرفيه بكلتا يديه ، ومع ذلك فقد كان الحبل من السمك بحيث لم تستطع احدى يديْ الشاب من الالتفات حوله .

ارتبك «شنجي» وهو يفكر في كيفية استغلال قوته او استخدامها حاول التشبث بقدميه ليقوم بالسحب ، غير ان الريح كانت اقوى من ان تسمح له بذلك ولكنه عندما صمم على استخدام كامل طاقته بعناد جنوني للتعامل مع ذلك الحبل ، كان هو على وشك ان يرمىٰ داخل الماء . التهب جسمه ، وان كان مبللاً ، بحرارة تشبه الحمى والتهب وجهه بتلك الحرارة ايضاً كما ان صدغيه اخذا بالضرب والارتجاف بعنف .

وفي الاخير ، نجح الشاب في لف حبل الانقاذ دورة واحدة حول العوامة فاصبحت المهمة بعد ذلك اكثر يسراً وسهولة . لقد منحه الحبل نقطة ارتكاز لممارسة قوته واستطاع في هذه اللحظة ، دفعاً لما اعتوره من سأم ، أن يريح جسمه بواسطة ذلك الحبل السميك . لف الحبل لفةً اخرى حول العوامة ومن ثم تابع عمله بانتظام في شد الحبل بسرعة . واخيراً ، لوح بذراعيه معلناً عن نجاح المهمة التي انيطت به

استطاع «شنجي» ان يرى الرجال الاربعة بوضوح كبير على سطح السفينة أثناء ما كانوا يلوحون له باذرعهم جواباً على ذلك ، كذلك نسي مقدار الاجهاد الذي اصاب جسمه فأكدت غريزة المرح عنده على نفسها ، كما تفجرت في داخله من جديد طاقة ، كانت الى وقت من الاوقات ، خائرة واهنة .

بعد ان واجه العاصفة بتحدٍ كبير ، استنشق من الهواء ما يكفي ثم رمىٰ نفسه داخل الماء في رحلة العودة الى السفينة .

وحينما اقترب الشاب من السفينة ، انزلوا شبكة رفعوه بها الى السطح ولما صعد «شنجي» الى سطح السفينة مسكه الربان من كتفه بيد ضخمة قوية وعلى الرغم من أن الشاب كان على وشك الاغماء من الجهد الكبير الذي بذله ، فقد كان فيه من الطاقة الرجولية ما حافظ بها على رباطة جأشه .

أمر الربان «ياسو» لمرافقة «شـنجي» الى حجـرة الملاحـين وقد عمل الرجال ، ممن لم يكن لهم من واجب أخر ، على تجفيف جسـمه والعناية به . استسلم الشاب للنوم حـالما وجـد نفسـه على سريره ، ولم تسـتطع العاصفة ان تثير من الضجيج ما يجعل نوم الشاب العميق مضطرباً ....

فتح «شنجي» عينيه في صباح اليوم التالي ليرى شمساً مشرقة تسللت خيوط منها على وسـادته ، ومن خلل فتحـة السـفينة القـريبة من سريره امتد بصره نحـو السماء الصـافية الزرقاء التي ظهـرت في اعقـاب تلك العـاصفة المثيرة ، كذلك امتد بصره الى الجبال الجـرداء تحـت اشـعة الشمس الاسـتوائية والى وهج البحـر الهـاديء الذي خـلا من أي اضطراب .

ـ الفصـــل الخـــامس عـــشر ـ

عادت السفينة «اوتاجيا ـ مارو» الى ميناء «كوبه» بعـد عدة ايام من الوقت المحدد لها . وهكذا عندما وصل الربان يرافقه كل من «شـنجي و ياسو» الى الجزيرة التي كان يفترض وصولهم اليهـا قبل منتصـف شـــهر آب ، وهو الوقت الذي يقام فيه «مهرجان الفوانيس» عادة وفق التقـويم القمري.، كانت الاحتفالات قد انتهت كلها .

لقد سمعوا بعض اخبار الجـزيرة اثناء وجـودهم على ظهـر المعـبرة «كاميكازي مارو» في عرض البحـر ، لقـد قيل لهـم بأن سـلحفاة هائلة ركنت الى الشاطيء المعروف باسم ـ شاطيء الفـراسخ الخمسـة ـ قبل أيام من أقامة «مهرجان الفوانيس» وقد قتلت في الحال . وجـدوا ، بعـد ان قتلت ، ما يسـاوي ملء سـلة من البيض داخلهـا فباعوا كل بيضـة بسعر «ينين» اثنين .

ذهب «شنجي» لأداء الصـلاة في مقـام «ياشـيرو» ولتقـديم فروض الشكر على سلامة العودة للبيت ، ومن ثم قصـد بيت «جـوكيجي» حيث دعي في الحـال لحضـور احتفـال أقيم على شرقه . وعلى الرغم من احتجاجات الشاب الذي لم يعتد الشراب فقد ملء لـهالقـدح من شراب «الساكيه» مرات عديدة .

وبعد يومين فقط خرج «شنجي» مرة اخرى للصيد اليومي في زورق «جوكيجي» . لم يتحدث الشاب بشيء حول رحلته ، لكن «جوكيجي» كان قد سمع التفاصيل كلها من ربان السفينة نفسه .

ـ سمعت بانك قمت بعمل رائع .

ـ اوه ، كلا .

أحمر وجه الشاب من الخجل ولم يعقب بشيء أخر . لعل من السهل بالنسبة الى اي شخص لم يعرف شيئاً عن شخصية «شنجي» ، أن يستنتج بأن ذلك الشاب قد قضىٰ فترة الشهر والنصف الماضية في التسكع والنوم في مكان ما ليس غير .

لاذ «جوكيجي» بالصمت فترة من الوقت ثم تحدث بطريقة خشنة :

ـ هل بلغك اي شيء من العم «تيرو» ؟

ـ كلا .

ـ اوه .

لم يتحدث اي واحد منهما بشيء حول «هاتسو» ، لكن «شنجي» وهو الذي لم يعتد على الشعور بالعزلة اثناء عمله في هذا الزورق الصغير ، التى بنفسه في دوامة العمل الرتيب السابق في وقت كان فيه الزورق يهتز في تلك المياه المضطربة خلال الفترة القائضة من السنة الواقعة ما بين اوائل تموز واوائل ايلول . لقد وهبه العمل راحة نفسية وجسدية كبيرتين وكان ملائماً له كبدلة خيطت له على نحو مناسب ، اضافة الى ان العمل لم يترك له فرصة تستطيع فيها الهموم والمتاعب المتطفلة من السيطرة عليه . لم يفارقه الشعور بالثقة طوال اليوم . وفي الغسق من ذلك اليوم نفسه رأىٰ معالم سفينة شحن بيضاء تسير بعيداً في داخل البحر . كانت تختلف عن تلك السفينة التي رآها في أحد الايام منذ مدة طويلة ، ومع ذلك فقد شعر بعاطفة جديدة في اعماقه لقد قال في نفسه : «انني اعرف الجهة التي تقصدها السفينة هذه واعرف الحياة التي يعيشها الناس عليها والصعوبات التي يواجهونها انني ، في الواقع ، اعرف كل شيء عنها» .

وعلى الاقل لم تعد تلك السفينة البيضاء ظلاً من المجهول بالنسبة اليه ، فهناك ، بدلاً من ذلك ، شيء يتصل بها أثناء ابحارها وفي وقت تجر وراءها خطاً طويلاً من الدخان في ساعات غروبٍ لأحد أيام الصيف المتأخرة مما يجعل قلبه يدق بسرعة اكثر مما يفعله المجهول نفسه . ومرة اخرى تحسس الشاب بيديه ذكرى ثقل حبل الانقاذ الذي كان يسحبه بأخر ذرة من القوة التي يملكها لقد لامس بالتأكيد وبيديه القويتين ذلك «المجهول» الذي نظر نحوه من مسافة بعيدة فيما سبق وها هو الان وقد ساوره شعور بانه عندما يمد يده بيسر ، يستطيع لمس تلك السفينة البيضاء التي تمخر البحر .

وبدافع طفولي رفع يده باصابعها الخمسة وبعقدها الكبيرة الى البحر نحو الشرق الذي تلبد بطبقات سميكة من غيوم المساء .

كانت العطلة الصيفية في منتصفها ، ومع ذلك فلم تأتي «شيكو» الى الجزيرة . انتظر كل من موظف المنار وزوجته عودة ابنتهما يوماً بعد يوم ، ولكن من غير جدوى كتبت الأم رسالة مستعجلة ولكن لم يأت الجواب على تلك الرسالة . كتبت ثانية فتسلمت بعد عشرة أيام رسالة فيها الكثير من الشكوى والتذمر ، ومن دون أن تعطي سبباً معيناً قالت «شيكو» بكل بساطة من انها سوف لا يمكنها العودة الى الجزيرة خلال تلك العطلة .

قررت الأم اللجوء الى الدموع في آخر الأمر كوسيلة من وسائل الاقناع لابنتها وارسلت لها رسالة بالبريد السريع في اكثر من عشر صفحات صبت فيها كل مشاعرها وتوسلت بابنتها ان تعود للبيت . جاءها الجواب في وقت لم يبق في العطلة سوى بضعة أيام ـ بعد اسبوع من وصول «شنجي» الى الجزيرة . كان جواباً لم تحلم الأم المذهولة بشيء مثله بالمرة .

اعترفت «شيكو» في رسالتها كيف انها شاهدت «شنجي» ومعه

«هاتسو» ينزلان من الدرجات الصخرية يداً بيد في ذلك اليوم العاصف وكيف وضعتها كليهما في مشاكل كبيرة بسبب تصرفها الذي لامبرر له ، وذلك عندما اسرعت الى «ياسو» لتخبره بكل تلك القصة . لم تزل «شيكو» نهباً لعذاب الشعور بالذنب فقد استمرت تقول لنفسها بانه مالم يحقق «شنجي وهاتسو» سعادتهما في آخر الأمر فستجد نفسها في وضع فيه من العار اكثر مما تستطيع التفكير به للعودة الى الجزيرة . أما اذا استطاعت أمها القيام بدور الوسيط في اقناع العم «تيرو» للسماح لهما بالزواج فانها ....

هذا هو الشرط الذي عرضته «شيكو» من أجل عودتها للجزيرة ، وكانت هذه الرسالة الحزينة بمطالبها التي تبعث على الضيق سبباً في نوبات القشعريرة الباردة التي سرت في نخاع تلك الام الرؤوم . لقد جوبهت بفكرة ، هي انها ما لم تتخذ الخطوات المناسبة لعلاج الموقف فان ابنتها ، وهي لا تتحمل وخزات الضمير ، ربما التجأت الى الانتحار . انها من خلال قراءاتها الكثيرة تذكرت لحظات رهيبة متعددة مرت بفتيات مراهقات قتلن انفسهن لسبب يشبه مثل هذه الحالة التافهة .

قررت الأم ان لا تري الرسالة الى زوجها ـ موظف المنار ـ وقالت في نفسها بأن كل يوم يمر يجب ان يدخل في الحساب وبأنها هي نفسها لا بد ان تتدبر الأمر بسرعة لتجلب ابنتها الى البيت بسرعة قدر الامكان .

بعد ان لبست الأم افضل ملابسها ـ بدلة من قماش قطني ابيض ناعم ـ تولد في نفسها شعور متقد اعاد الى ذهنها السنين الخوالي عندما كانت مدرسة في احدى ثانويات البنات ، ثم سارت في طريقها كأنما كانت تقصد ولي أمر واحدة من طالباتها في قضية تخص ابنته .

رأت أمام بيوت القرية حصران القش منتشرة على امتداد الطريق المؤدي الى داخل القرية وقد وضع عليها السمسم واللوبياء وفول الصويا لتجف تحت اشعة الشمس . كانت قرون السمسم الصغيرة الخضر التي جفت بفعل اشعة شمس آواخر الصيف ترمي ظلالها الصغيرة الشبيهة

بالمغازل على القش الخشن لتلك الحصران ذات الالوان الصارخة . ومن هذا المكان يمكن للمرء ان ينظر الى البحر الذي لم تكن امواجه عالية في هذا اليوم .

حينما نزلت السيدة من اعلى السلم الذي كان بمثابة الشارع الرئيس للقرية ، صدرت عن حذائها اصوات ناعمة فوق الارض الاسمنتية ، ومن ثم تناهت الى سمعها اصوات مرحة ضاحكة واصوات خفيفة لملابس رطبة كانت تضرب بشيء ما .

اقتربت الأم من مصدر الاصوات فرأت ست نساء في ملابسهن البيتية منهمكات بالغسيل الى جانب الجدول الصغير المحاذي للطريق . كانت أم «شنجي» واحدة من تلك المجموعة .

بعد انتهاء «مهرجان الفوانيس» تمتعت النساء الغواصات بفترة استراحة لا عمل فيها عدا ما يقمن به ، من وقت لآخر من جمع بعض الاعشاب البحرية الصالحة للأكل وهكذا اتجهت النسوة بكل ما يملكن من طاقة الى غسل أكداس الملابس المتسخة . ونظراً الى انهن لا يستعملن الصابون إلا قليلاً ، فقد نشرت كل واحدة منهن غسيلها فوق صخرة منبسطة وراحت تضرب الملابس بقدميها ضرباً خفيفاً .

ـ اوه ـ هلو ، ايتها السيدة الى اين تذهبين في هذا اليوم ؟

ثم انحنت النساء احتراماً وهن يرددن التحية لها ، كانت انعكاسات الماء ، تحت ثيابهن المشمرة ، تداعب سيقانهن السمر .

ـ فكرت في القيام بزيارة بيت العم «تيرو» لفترة قصيرة من الوقت . حينما اجابت بذلك ، بدا لها أن من الغرابة مقابلة أم «شنجي» بهذا الشكل ومن ثم ، دون ان توجه لها كلمة واحدة ، سوف تتابع سيرها لترتب أمر خطوبة ابنها الى «هاتسو» .

وهكذا فقد استدارت لتنزل اسفل ذلك السلم الشديد الانحدار الذي كان مكسواً بالطحالب الزلقة ـ السلم الذي يوصل ما بين الشارع

والجدول . وعلى حين غرة انزلق حذاؤها فوق ذلك السلم الخطر ، لانها وهي تدير ظهرها الى الماء وتلقي بنظرات عاجلة من فوق كتفها سقطت على الدرجات فاستقبلت الارض بيدها . اسرعت احدى النساء التي كانت تقف في وسط الجدول ، نحوها وانحنت عليها من أجل ان تساعدها على النهوض .

اتجهت السيدة فيما بعد نحو ضفة الجدول ثم نزعت حذاءها واخذت تخوض عبر الماء . وقفت النسوة في الجهة الاخرى من الجدول يراقبن عبورها الذي ينطوي على محاذير كثيرة بدهشة خلت من اي تعبير .

مسكت السيدة أم «شنجي» من ردن ثوبها واخذت ، بمحاولة تنقصها الرقة ، تتجاذب معها حديثاً خاصاً . كانت تلقي في اذنها كلمات استطاع كل من كان قريباً منهما سماعها بوضوح :

ـ لعل المكان غير مناسب للحديث ، غير انني مع كل ذلك اردت أن أسألك عن تطورات الأمور بين «شنجي ـ سان و هاتسو ـ سان» في الفترة الاخيرة .

كان هذا السؤال المفاجيء سبباً في اتساع عيني الأم على نحو غريب ، ولم تجب بشيء .

ـ «شنجي ـ سان» يحب «هاتسو ـ سان» ، أليس كذلك ؟

ـ حسن .....

ـ وما زال «تيروكيجي ـ سان» يقف حائلاً بينهما ، أليس هذا صحيحاً ؟

ـ حسن ، هذه هي المشكلة تماماً ، ولكن ....

ـ وما هو شعور «هاتسو ـ سان» حول هذه المسألة ، يا ترى ؟

وفي هذه النقطة من الحديث شاركت النساء الاخريات ، اللواتي كن يسترقن السمع حتى تلك اللحظة فقط ، في هذا الحديث الخاص . لقد جرت العادة عندما يدور حديث يخص «هاتسو» ، أن تقف جميع النساء

الغـواصات بلا اسـتثناء موقف المدافع منذ ذلك اليوم الذي اقيمت فيه المباراة باقتراح من البائع المتجول ، اضـافة الى انهـن قد سمعـن القصـة الحقيقية كلها من «هاتسو» نفسها لدرجة اصبحت كل واحدة منهـن تقف موقفاً معارضاً أمام نزعات «تيروكيجي» ،

ـ ان «هاتسو» غارقة من قمة رأسـها حـتى اخمص قدميهـا في حـب «شنجي» . تلك هي الحقيقة التي لا شـائبة فيهـا ، أيتهـا السـيدة . ومع ذلك ، فهل تصدقين بان العم «تيرو» يخطط لزواج ابنته من ذلك الشاب الذي لا يصـلح لشيء ـ «ياسـو» ؟ هل سمعـت بشيء اكثر سـخفاً من هذا ؟

وعند ذاك علقت السيدة وكأنها تتحدث الى تلاميذ مدرسة :

ـ هذه هي الحال ، فلقد تسلمت في هذا اليوم رسالة فيهـا الكثير من التهديد من ابنتي في طوكيو . لقد اخـبرتني بانهـا لا تدري ما سـتفعل ان انا لم افعل شـيئاً في سـبيل زواج الشـابين ، وها انتن ترونني في طـريق لتبادل الرأي مع «تيروكيجـي ـ سـان» ، ومع ذلك فقـد فكرت في انني يجب أن اقف قليلاً لاستطلع رأي أم «شنجي» حول هذه القضية اولاً .

انحنت أم «شنجي» لتلتقـط ثوب ابنهـا الكيمونو الذي كانت تدوس عليه بقدميها ومن ثم تابعت عملها تعصر ذلك الثوب ببطء واستغلت ذلك الوقت للتفكير بالأمر .

التفتت في الاخير لتواجـه السـيدة وبعـد ذلك أحنت رأسـها وهي تقول :

انني اقدر كثيراً اي شيء يمكنك القيام به .

أما النساء الاخـريات وقد تأثرن بروح التعـاون تلك ، فقـد بدأ فيما بينهن حديث خـاص لا يخلو من ضـجيج كأنهـن سرب طيور مائية تقف على ضفة النهر . لقد قررن بانهن لو ذهبن ايضاً كممثلات لنسـاء القـرية فلابد ان هذا الاستعراض القوي سوف يدخل نوعاً من الخشـية في قلب

«تيروكيجـي» . وافقـت سـيدة المنار على ذلك وهكذا انصرفت النســاء الخمس عدا أم «شنجي» بعد ان عصرن الملابس واسرعن بها الى بيوتهـن واتفقـن على ان يكون اللقـاء في منعــطف الزقاق الذي يؤدي الى بيت «تيروكيجي» .

كانت السـيدة تقف بالضـبط في داخـل الغــرفة المظلمة في الطابق الارضي لبيت «تيروكيجـي» ، عندما صـاحت بصـوت لا يزال محتفــظاً بفتوته وثباته .

ـ طاب يومكم !

لا جواب .

وقفـت بقية النسـاء خـارج الباب وقد برزت وجــوههن الى الأمام كأوراق الصـبار وتوقدت عيونهـن حماسـة وهن ينظرن الى داخـل البيت المعتم .

وصاحت السيدة مرة اخرى فتردد صوتها خاوياً في ارجاء البيت .

وبعـد ذلك بدأ السـلم بالصرير فنزل «تيروكيجـي» بنفســه مرتدياً الكيمونو الفضفاض ، أما «هاتسو» ، فلم تكن في البيت على ما يبدو .

ـ من ؟ سيدة المنار ؟

دمدم «تيروكيجي» وهو يقف بوقار على العتبة التي تفضي الى الاعلى من الطابق الارضي .

يشعر اكثر زوار هذا البيت بدافع قوي للهروب منه ، حينما يسـتقبله ذلك الرجـل بسـيماه التي لا تبعث على الارتياح وبشـعر رأســه الابيض الذي يقف كالعرف تحدياً وعدوا ناً . سـاور قلب تلك السـيدة نوع من الرعب ومع ذلك فقـد اسـتجمعت شـجاعتها لتقــول : ـ«هناك شيء أود التحدث اليك به ولو لدقيقة» .

ـ هكذا ؟ حسن ، ارجوك تفضلي .

ادار «تيروكيجي» ظهره واخـذ يصـعد السـلم بسرعة ، فصــعدت السيدة خلفـه مع بقية النسـاء الخمس اللواتي سرن خلفهـا على رؤوس اصابعهن .

سـار «تيروكيجـي» الى الأمام ثم ولج الغـرفة الداخلية من الطابق الاعلى ، ومن غير شكليات ، اتخذ مجلسه في الصدارة أمام فجوة موجودة في الجدار .

لم يظهر وجهه دهشة كبيرة وهو يرى هذا العدد من الضيوف في تلك الغرفة اخذ يحدق ، وهو يتجاهل وجودهن في النوافذ المفتوحة بينما راحت يداه تداعبان مروحة ظهرت عليها صـورة امرأة جميلة تقـوم بدعاية لمخـزن ادوية في «توبا» . كانت النوافذ تشرف على ميناء القرية مباشرة حيث لم يكن هناك غير سفينة واحدة داخل حاجز الماء تعود ملكيتهـا الى الجمعية التعاونية وحيث طافت من بعيد غيوم صيفية فوق خليج «ايسه» .

كانت الشمس في الخـارج مشرقة لدرجـة بدت الغـرفة على النقيض منها لشدة العتمة فيها ، وفي الفجوة الموجودة على الجـدار ، تدلت وثيقـة درجية كتبت بخط الحـاكم ما قبل الاخـير لمقـاطعة «ميي» والى اســفلها كانت هناك زخـرفة تتمثل بديك ودجـاجة يتوهجـان ببريق يشــبه بريق الشمع وقد صنع جسماهما من جـذور شـجرة كثيرة التعقيد ، أما ذيلاهما وعرفاهما فقد كانت من اغصان وبراعم فتية .

جلست السيدة الى جوار طاولة مصنوعة من خشب الورد الاستوائي لا يكسوها شيء . أما النساء الخمس ، اللواتي فقـدن الشـجاعة للقيام باية مبادرة فيما مضى من الوقت ، فقد جلســن بكلّ احتشـام امام سـتارة الخيزران المدلاة في مدخل الغرفة كما لو انهن كن يقدمن عرضـاً في أحـد دور الازياء .

واصل «تيروكيجـي» التحـديق خـارج النافذة دون ان يقــول كلمة واحدة . لقد ران عليهم سكون ما بعد ظهـر يوم صـيفي مشـبع بالحـرارة والرطوبة ، سكون لا يقـطعه سـوى ازيز بعض ذباب كبير ازرق البطن يطير عبر الغرفة .

مسحت السيدة العرق من على وجههـا مرات عديدة ، وبعـد طـول انتظار بدأت الحديث :

ـ حسن ، انَّ ما اريد التحدث عنه هو شيء يخص ابنتك «هاتسو ـ سان» و «شنجي ـ سان» من عائلة «كيبو» ....

لم يزل «تيروكيجي» ينظر من خلل النافذة ، وبعد فترة من الصمت قال وكأنه يبصق الكلمات بصقاً :

ـ «هياتسو و شنجي» ؟ ..

ـ نعم .

ادار «تيروكيجي» وجهه الان وللمرة الاولى نحو السيدة ، ومن ثم تحدث دون ان ترتسم على وجهه ابتسامة :

ـ اذا كان هذا هو ما تريدين الحديث عنه ، فلا بد ان تعلمي بان الأمر قد انتهى الآن . ان «شنجي» هو الذي تبنيته ليكون زوجاً لابنتي «هاتسو» .

ندت من بين النساء حركة كما لو ان سداً كبيراً قد انفجر وتهاوى ، لكن «تيروكيجي» واصل حديثه دون ان يعير اهتماماً لردود الفعل على ضيوفه :

ـ غير انني اعتقد بانهما لا يزالان صغيرين ، ولذا فقد قررت في الوقت الحاضر أن يكون الامر مجرد خطوبة ، ومن ثم ، بعد ان يكبر «شنجي» سوف نرتب للمناسبة ما يليق بها من احتفال . ثم انني علمت بان أمه تمر بظروف حرجة ، ولذا قررت بان تعيش هي وابنها الصغير معنا ، أو ان ذلك سيعتمد على ما يستجد من الامور في حينها ، كأن اساعدهم ببعض المال كل شهر ، ومع ذلك فانني لم اخبر اي أحد بهذا الأمر حتى الان . صحيح ، كنت غاضباً في أول الامر ، ولكن بعد أن منعت لقاءهما ، اهتمت «هاتسو» وتكدر مزاجها فشعرت بالضيق كثيراً من اجلها لدرجة فكرت بان الامور يجب ان لا تستمر على ذلك النحو ، وعلى هذا الاساس فكرت في وضع خطة خاصة .

لقد استخدمت كلاً من «شنجي و ياسو» في سفينتي وطلبت من ربان السفينة ان يراقبهما ليقرر في آخر الأمر من منهما يمكن ان يكون افضل

من زميله فيما يقـدم من خـدمات ، ثم ابلغـت ربان السـفينة بان عليه ان يخبر «جوكيجي» بكل شيء على أن يعتبر ذلك سراً من الاسرار ، واعتقد بان جوكيجي» لم يخبر «شنجي» بهـذا حـتى هذه اللحـظة . حســن ، وبالاختصار ، فقد احب ربان السفينة «شـنجي» من كل قلبه وقرر بانه لا يمكنني ان اجـد من هو افضـل منه كزوج الى «هاتســو» . ومن ثم ، عندما قام «شـنجي» بذلك العمل الكبير في «اوكيناوا» حسـن ، لقــد غيرت رأي أنا الاخـر وقررت على انه الشـخص المناسـب لابنتي . هذا هو الشيء الذي يمكن ان يعول عليه المرء حقاً .

وهنا رفع «تيروكيجي» صوته بحماسة ليقول :

ـ ان الشيء الوحيد المعــول عليه في الرجــل هو الاندفاع للعمل ، فاذا اكتسـب المرء تلك المزية ، أصـبح رجــلاً حقيقياً . ان مثل هؤلاء الرجال هم الذين نحتاج اليهم هنا في «اوتاجيما» ، أما العائلة والثروة فهي أمور ثانوية لا اهمية لهـا ، ألا توافقـين على ذلك يا سـيدة المنار ؟ ـ ان ذلك هو ما حصل عليه «شنجي» فعلاً ـ الاندفاع للعمل .

ـ الفصـــل الســادس عــشر ـ

اصـبح بالامكان الان قيام «شـنجي» بزيارة بيت «تيروكيجــي» جهـراً ، ففي احـدى الاماسي بعـد عودته من الصـــيد اليومي ، نادى «هاتسو» من الباب الامامي . كان يرتدي سروالاً نظيفـاً وثوباً ابيض مما يرتديه الرياضـيون وتدلت من كل يد من يديه سمكة كبيرة حمراء . انتظرت «هاتسو» مجيء «شنجي» بكامل استعدادها لانهما قد اتفقا مسـبقاً على الذهاب الى مقام «ياشـيرو» والى المنار ليعلنا عن خـطوبتهما وتقـديم فروض الشكر الواجبة .

عندما دخلت «هاتسو» غرفة الطابق الارضي ، اصبحت تلك الغـرفة اكثر سطوعاً لانهـا كانت ترتدي كيمونو صـيفياً نقشـت على ارضـــيته البيضاء نجوم ملونة . كان ثوبها من ذلك القماش الذي اشـترته من البائع المتجـول في تلك المناسـبة ، وقد تلألأ بياضـه الان على الرغم من عتمة الليل .

اتكأ «شنجي» على الباب ينتظر ، ولكن عندما خـرجت «هاتسـو» ، اسرع فاخفض بصره الى الاسفل واخذ يحـرك قدمه التي أنتعلت قبقـاباً كمن يطرد حشرة ثم تمتم :

ـ ان البعوض فظيع هنا .

ـ اوه ، أولم يكن البعوض هكذا ؟

بدآ في الصعود على السلم الصخري الذي يفضي الى مقام «ياشيرو» . صحيح انه كان بامكانهما الصعود عليه بسرعة وبسهولة وبنفس واحد ، لكنهما بدلاً عن ذلك ، وقد غمر قلباهما بالرضى حد الامتلاء ، صعدا ببطء كانهما يستمتعان بلذة السعادة في كل درجة من ذلك السلم . وعندما وصلا الى الدرجة المائة توقفا لانهما كانا يكرهان الانتهاء من ذلك الصعود والوصول الى القمة بسرعة . اراد الشاب ان يمسك يدها ، غير ان السمكتين حالتا دون ذلك . والطبيعة هي الاخرى ابتسمت لهما ، فهما في الوقت الذي وصلا فيه الى القمة استدارا لينظرا الى خليج «ايسه» كانت سماء الليل مرصعة بالنجوم وقد امتدت طبقة من الغيوم عبر الافق باتجاه شبه جزيرة «شيتا» ، وظهر بين فترة واخرى ، بريق غير مصحوب برعد ، كذلك لم يكن هدير الامواج قوياً صاخباً ، بل كان رتيباً هادئاً كما لو ان البحر كان يتنفس وقد استسلم الى اغفاءة خفيفة .

بعد اجتياز أكمة اشجار الصنوبر ، وصلا الى مقام «ياشيرو» المتواضع ، وعند ذاك وقفا لاداء مراسيم العبادة ، امتلأ قلب الشاب بالزهو على صوت التصفيق القوي الواضح الذي جلجل في الارجاء كما كانت تقاليد القرويين تقضي بذلك ، وعلى هذا فقد صفق «شنجي» ثانية. حنت «هاتسو» رأسها واخذت تتلو صلاتها ، وبالمقارنة مع بياض ياقة بدلتها الكيمونو ، لم تبد رقبتها بيضاء على وجه التخصيص ، بل كانت في الحقيقة سمراء وذلك بفعل اشعة الشمس الحارقة ومع ذلك فقد سحر لونها «شنجي» اكثر مما تستطيع أية رقبة بيضاء فعله . استعاد الشاب صور السعادة الغامرة من اعماق قلبه فقد منحته الالهة كل ما طلبه منها .

رتلا صلواتها لفترة طويلة من الوقت ، وعلى الرغم من الحقيقة في انهما لم يساورهما شك بالعناية الالهية يوم ما ، فقد شعرا الان بتلك العناية تحيط بهما من كل جانب .

تلألأ الضريح بنور ساطع فصاح «شنجي» وعند ذاك جاء الكاهن الى النافذة . تحدث «شنجي» معه بكلمات ينقصها الوضوح نوعاً ما ، فلم يستطع الكاهن لفترة من الوقت معرفة السبب الذي جاء من اجله الشابان . واخيراً ادرك الكاهن ذلك .

قدم «شنجي» اليه هدية ، هي واحدة من السمكتين كقربان للالهة ، فقال الكاهن بعد ان تسلم تلك الهدية الرائعة من البحر بانه سيسره كثيراً اقامة القداس لاجراء مراسيم الزواج لهما ، وعلى هذا فقد قدم لهما التهاني من كل قلبه سلفاً .

وحينما سارا الى أعلى الطريق الضيقة خلل أكمة اشجار الصنوبر خلف المزار ، استمتعا مرة اخرى ببرودة الليل المنعشة . وعلى الرغم من ان الشمس كانت قد غابت في تلك الساعة ، لكن زيزان الحشائش واصلت غناءها وضجيجها .

كانت الطريق المؤدية الي المنار شديدة الانحدار ، وبما أن احدى يديه قد تحررت الان ، فقد امسك بيد «هاتسو» واستمرا في الصعود ثم قال :

ـ بقدر ما يتعلق الأمر بي ، فأنني سوف اسعى في القيام بالامتحان من اجل الحصول على شهادة وكيل ربان أول حيث يستطيع المرء الحصول على ذلك بعد سن العشرين كما تعلمين .

ـ اوه ، ذلك شيء رائع .

ـ واذا حصلت على تلك الشهادة ، فسيكون أمر زواجنا على ما يرام .

لم تجب «هاتسو» بل ابتسمت بكل حياء .

استدارا حول المنطقة المعروفة باسم «منحدر المرأة» فوصلا الى مسكن موظف المنار . صاح الشاب مردداً كلمات التحية عند الباب الزجاجية كما اعتاد ان يفعل ذلك على الدوام واستطاعا من هناك مشاهدة ظل السيدة وهي تتحرك هنا وهناك تهيء طعام العشاء .

فتحت السيدة باب الدار فرأت الشاب وخطيبته يقفان في الظلام مترددين .

ـ اوه ، انتما هنا ؟ أهلاً وسهلاً .

قالت السيدة ذلك بكلمات عالية ومن ثم اخذت السمكة الكبيرة التي قدمت اليها بكلتا يديها نادت بعد ذلك الى داخل البيت :

ـ ابتاه ، ها هو «شنجي» ـ سان» قد جاءنا بسمكة كبيرة حمراء .

وحين ذاك اجابها موظف المنار من مكان استراحته في احدى غرف المسكن الداخلية ومن غير ان ينهض :

ـ شكراً لك كالعادة ، وفي هذه المرة ، اقدم لك التهاني ايضاً ، ادخل ادخل . أما السيدة فقد اضافت :

ـ ارجوكما ان تتفضلا بالدخول ، وبالمناسبة ، ان «شيوكو» سوف تعود غداً .

لم تكن لدى «شنجي» أقل فكرة عما اثاره من عواطف في نفس «شيوكو» ، كما لم تكن لديه فكرة عن الازمة الفكرية التي مرت بها بسببه ، ولذا فهو عندما سمع اشارة الام السريعة بصدد ابنتها لم يربط بها اي معنى خاص . وبالنظر الى انهما قد اجبرا تقريباً على البقاء في البيت لتناول العشاء ، فقد بقيا فترة ساعة تقرر بعدها ان يطلعهما موظف المنار على ما يدور في داخل المنار في طريق عودتهما الى البيت . لم تكن «هاتسو» التي كانت قد عادت الى الجزيرة في الفترة الاخيرة فقط ، قد شاهدت طبيعة العمل في داخل المنار وما يحتويه من شيء .

قام موظف المنار باطلاعهما على غرفة المراقبة قبل كل شيء ، وهم من أجل الوصول اليها من المسكن ، ساروا على امتداد حافة الحديقة الصغيرة التي خصصت لزراعة الخضروات حيث نثرت فيها بذور الفجل قبل يوم ، ومن ثم صعدوا على سلم صخري . كان المنار يستند في جزئه الاعلى الى سفح الجبل ، أما غرفة المراقبة فقد اقيمت على حافة جرف يطل على البحر

يتحرك ضوء الارشاد في ذلك المنار . وهو شبيه بعمود من الضباب المتوهج ، من اليمين الى اليسار عبر القسم الاعلى من جملون غرفة المراقبة

في الجهة المواجهة للبحر . فتح موظف المنار باب الغرفة ، وبعد ان تقدم في دخول الغرفة ، اشعل النور ، وانذاك شاهدوا مثلثات التخطيط معلقة على واجهة النافذة ، كما شاهدوا المكتب الذي رتبت فوقه المواد على نحو دقيق وكذلك رأوا سجل سرعة السفن وتحركاتها ، واخيراً شاهدوا التلسكوب الموضوع على الحامل الثلاثي أمام النوافذ .

فتح موظف المنار احدى تلك النوافذ ثم نظمً وضع التلسكوب واخفضه الى الارتفاع المناسب بالنسبة الى «هاتسو» فقامت الفتاة بالقاء نظرة واحدة من خلله ، وبعد ذلك توقفت لتمسح عدسته بردن ثوب الكيمونو ثم نظرت ثانية وأطلقت صيحة اعجاب وفرح :

- اوه - شيء رائع !

استطاع «شنجي» ، حينما اشارت «هاتسو» الى المصابيح المتناثرة في كل جهة ، ان يميزها عند النظر اليها بعينيه الحادتين وبدأ يشرح لها .

اشارت «هاتسو» وهي تنظر في التلسكوب الى مجاميع المصابيح التي ارتسمت كنقاط مضيئة فوق البحر الى جهة الجنوب الشرقي منه وتساءلت .

- تلك ؟ انها مصابيح زوارق الصيد بالشباك التي تأتي من مقاطعة «ايشي» .

لقد بدا لهما كما لو أن اية مجموعة كبيرة من المصابيح في تلك المناطق البعيدة في البحر قد وجدت ما يناظرها من النجوم الهائلة الموجودة في صفحة السماء . وظهرت في الجهة المقابل تماماً خيوط الضياء من منار «كيب ايراكو» بينما انتشرت الى الخلف منه مصابيح مدينة «كيب ايراكو» والى اليسار بدت للعيان مصابيح جزيرة «شينو» واهنة ضعيفة .

استطاعا ، في اقصى اليسار ، مشاهدة منار«كيب نوما» في شبة جزيرة «شيتا» والى اليمين مشاهدة مجاميع مصابيح «تويوها» .

يعود الضوء الاحمر في الوسط الى المصباح الموجود على حاجز

الميناء ، والى جهة اليمين ارتجف ضوء برج ارشاد الطائرات فوق جبل «اوياما» .

اطلقت «هاتسو» صرخة اعجاب للمرة الثانية فقد دخلت للتو سفينة ، من عابرات المحيط الضخمة ، مجال الرؤية في التلسكوب لم تكد تلك السفينة ان ترى بالعين المجردة ، ولكنها عندما شقت طريقها بكل عظمة ووقار عبر مجال الرؤية ، كان انعكاسها الجميل من الروعة والوضوح ما جعل الشابين يتناوبان النظر اليها .

يبدو ان تلك السفينة تقوم بشحن ونقل المسافرين في وقت واحد وتبلغ حمولتها من الفين الى ثلاثة الاف طن . وفي احدى الغرف البعيدة عن الجزء من سطح السفينة المخصص للنزهة ، استطاعا بوضوح مشاهدة عدة موائد مغطاة بقطع من القماش الابيض مع كراس عديدة ويبدو من الواضح بان تلك الغرفة هي غرفة الطعام ، وفي الوقت الذي كانا يتفحصان فيه جدرانها المغطاة برقائق الاسفلت المطلي باللون الابيض ، دخل على حين غرة نادل يرتدي بدلة بيضاء من جهة اليمين ومرّ أمام نوافذها ......

وفيما بعد مرت تلك السفينة ، التي انتشرت المصابيح الخضر على مقدمها ومؤخرها خارج مجال التلسكوب حيث واصلت سيرها عبر قنال «ايراكو» في طريقها نحو المحيط الهادىء .

اخذهما موظف المنار بعد ذلك ، الى المنار نفسه شاهدا على الطابق الارضي المولد الكهربائي يدمدم بضجيج يصم الاذان وقد انتشرت حوله رائحة الزيت وعلب الزيت والمصابيح النفطية وصفائح النفط ، وبعد ان صعدا السلم اللولبي ، وجدا الجهاز الذي يمثل مصدر الضياء بالنسبة للمنار مركوناً في غرفة صغيرة منعزلة تقع الى الاعلى ولابد أنه يقضي حياته هناك بهدوء بعيداً عن كل شيء .

وعند النظر من خلل النافذة شاهدا حزمة ضوء تتحرك بين الامتدادات الواسعة من اليمين الى الشمال عبر الامواج المظلمة الهادرة في

قنال «ايراكو» وهنا ، نزل موظف المنار بكل لباقة اسفل السلم اللولبي تاركاً الشابين لوحدهما . كانت الغرفة الصغيرة المستديرة التي تقع في اعلى البرج بمنغلقة على جدران خشبية ذات طلاء ، وكانت اللوازم النحاسية فيها ذات بريق وتوهج والعدسة الزجاجية السميكة تدور بتمهل حول المصباح الكهربائي ذي الخمسمائة شمعة حيث يكبر هذا المصدر من الضياء الى قوة خمس وستين الف شمعة فيساعد على خلق سرعة تنشأ عنها سلسلة ثابتة من الومضات القوية . كانت بعض انعكاسات العدسة التي تدور حول الجدار الخشبي المستدير وبمصاحبة الصوت الذي يبعث صريراً متواصلاً أثناء الدوران ، وهو ما يميز المنارات التي بنيت قبل انعطاف القرن الحالي - تتراقص على ظهري الشاب وخطيبته اللذين التصق وجهاهما على صفحة النافذة

شعرا باقتراب خديهما الواحد من الاخر لدرجة الملامسة الممكنة في اية لحظة ، اضافة الى انهما أخذا يشعران بالحرارة المتقدة التي تنبعث من خد احدهما نحو الاخر ... وامامهما ترامى الظلام الذي لا حدود له ... وهناك كانت حزمة الضوء الصادرة عن المنار تقوم بنشر اشعتها المنتظمة الهائلة في كل مكان ، كما استمرت انعكاسات العدسة في دورانها داخل الغرفة الصغيرة ولم تكن تضطرب إلا في النقطة التي تعبر فيها المناطق الخلفية لثوب «شنجي» الابيض وبدلة الكيمونو المنقوشة التي ترتديها «هاتسو» .

وحدث مرة اخرى أن أخذ «شنجي» بالتأمل واستغرق في تفكير عميق كان يفكر على الرغم مما حدث لهما ، بانهما ها هنا في اخر الأمر ، ينعمان بالحرية في اطار الاعراف الاخلاقية التي نشأ فيها ، ولم تتنكر لهما العناية الالهية ... لان هذه الجزيرة الصغيرة التي يلفها الظلام ، بالاختصار ، هي التي رعت سعادتها واوصلت حبهما الى هذا الحد ....

استدارت «هاتسو» نحو «شنجي» فجأة وضحكت ، ثم اخرجت من كمها صدفة صغيرة وردية اللون وضعتها أمام عينيه وقالت :

- هل تتذكر هذه ؟

ـ نعم ، اتذكرها .

اشرقت اسنان الشاب الجميلة عن ابتسامة عريضة ومن ثم ، اخرج من جيب الصدر في ثوبه صورة «هاتسو» وعرضها عليها . لمست الفتاة تلك الصورة برفق بيدها ثم اعادتها اليه . امتلأت عيناها بما يشبه الزهو والاعتزاز فقد كانت تعتقد بان صورتها هي التي اسبغت رعايتها على «شنجي» وابعدت المخاطر عنه أما «شينجي» فقد رفع في هذه اللحظة حاجبيه الى الاعلى لانه يعرف جيداً بأن قوته بالذات هي التي قدمت له العون في التغلب على المصاعب في تلك الليلة المحفوفة بالخطر .

تصميم الغلاف : راجحة القدسي
الخطوط : خالد الخالدي
الاشراف الفني : خضير عباس اللامي

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والأعلام
دار الرشيد للنشر

مكتبة بغداد

السعر ٢٥٠ فلسًا

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٩٧٩

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان